الإسلام والخلافة

تأليف
الدكتور علي حسني الخربوطلي

دار بيروت للطباعة والنشر
بيروت ١٩٦٩

الإسلام والخلافة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

هذه هي دراسة علمية منهجية جديدة عن (الاسلام والخلافة) . ودراسة الخلافة تعتبر في مقدمة الدراسات الاسلامية والعربية . وقد كانت الخلافة دائماً هي محور التاريخ الاسلامي والعربي ، على مر العصور التاريخية المختلفة ، فقد شغلت الأفهام والأقلام ، واصبحت موضع اهتمام جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها .

كان العرب في العصر الجاهلي شعوباً وقبائل متفرقة ، لا تجمعها جامعة ، ولا تربطها وحدة ، في صراع ونزاع مستمرين (1) مما أدى الى شقاق سياسي ، وقتال دموي ، واضطراب اجتماعي ، وتأخر حضاري حتى ظهر الاسلام ، فكان ثورة شاملة نقلت العرب والعالم من ظلام البداوة والخلاف ، الى نهار مشرق منير ، تسطع فيه أنوار الايمان والحضارة والوحدة ، وكان ظهور الاسلام ايذاناً بمولد وحدة قومية وسياسية واجتماعية جديدة ، هي الدولة العربية الاسلامية ، التي خلقها الاسلام ، وقامت في المدينة المنورة بعد هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام والمسلمين من مكة .

وضع الاسلام أسس هذه الدولة الجديدة ، وبثّ فيها من روحه ، وجعلها نموذجاً ومثلاً أعلى لكل دول العالم . والاسلام يهتم بالأسس العامة والقواعد الكلية ، والخطوط العريضة ، ويترك الجزئيات والتفاصيل للمسلمين يشكلونها ويطورونها تبعاً لمقتضيات حاجاتهم ، وحسب ظروف الزمان والمكان يستوحونها من هدى الله وسنّة رسوله ، فجعل الاسلام هذه الدولة تقوم على الشورى والحرية والاخاء والمساواة والعدل والمسئولية الانسانية ، ورسم الإسلام أيضاً علاقات الأفراد ببعضهم ، وعلاقة الفرد بالمجتمع ، والصلات بين الحاكم والمحكومين ، وعلاقة الدولة الاسلامية بسائر دول العالم .

لم ينص الاسلام على شكل الحكم بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وترك الأمر شورى بين المسلمين ، يختارون نظام الحكم الذي يناسب ظروفهم ، على أساس شريعة الله الغرّاء ، وسنّة الرسول الكريم . ثم كان ظهور نظام الخلافة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأصبح نظاماً جديداً فريداً ، لا نظير له في الدول السالفة للدولة الاسلامية ، أو المعاصرة لها . وفتح باب الاجتهاد فأصبحت الخلافة موضع بحث وجدل واجتهاد بين المسلمين جميعاً ، وظهرت آراء ونظريات عديدة حولها ، واختلفت الفرق والجماعات السياسية والدينية ، حول شكل الخلافة ، وطريقة اختيار الخليفة ، والبيت الذي يُختار منه . وأدى هذا كله الى ظهور اشكال ونماذج مختلفة من الخلافة .

فكانت مرحلة الخلفاء الراشدين ، فشهدت أربعة من أعظم الخلفاء المسلمين ، وصلوا الى قمة الرشد السياسي والاداري . ثم كانت مرحلة الخلافة الأموية ، حيث انحصرت الخلافة في البيت الأموي ، وأصبحت تتبع مبدأ الوراثة ، وانتقلت الى بلاد الشام ، واصطبغت بطابع يميزها عن خلافة الراشدين . ثم بدأت مرحلة جديدة طويلة من الخلافة ، هي مرحلة الخلافة العباسية التي عاشت أكثر من خمسة قرون ، وانحصرت الخلافة في البيت

العباسي ، وشهد العالم الاسلامي في عهدها حضارة زاهرة . ثم قامت الخلافة الفاطمية في المغرب ثم في مصر ، وهي خلافة علوية شيعية ، فكان عصرها من أزهى العصور الاسلامية . كما ظهرت في نفس الوقت الخلافة الأموية في بلاد الأندلس ، فأصبح في العالم الاسلامي ثلاث خلافات : الخلافة العباسية في المشرق ومركزها بغداد ، والخلافة الفاطمية في قلب العالم الاسلامي ومركزها القاهرة ، والخلافة الأموية في الجناح الغربي من هذا العالم الاسلامي ومركزها قرطبة . ثم غربت شمس الدولة العباسية في بغداد ، لتشرق مرة أخرى في القاهرة في عصر دولة المماليك ، وظلت تحمل لواء الزعامة الدينية حتى كان الفتح العثماني للعالم العربي ، فتم تنازل آخر الخلفاء العباسيين بالقاهرة عن الخلافة للسلطان العثماني سليم الأول ، وتوارث السلاطين العثمانيون الخلافة ، فأصبحوا سلاطين وخلفاء في نفس الوقت . وكانت الخلافة العثمانية تختلف في نظامها عن سائر نظم الخلافة السالفة اذ تولى الخلافة أتراك عثمانيون بينما كان قد أصبح تقليداً ثابتاً أن يكون الخليفة عربياً قرشياً . واستمرت الخلافة العثمانية الى سنة ١٩٢٤ حيث أعلن الغاءها مصطفى كمال اتاتورك بعد الغائه السلطنة العثمانية سنة ١٩١٨ وانشاء الجمهورية التركية ، فكان هذا آخر عهد العالم الاسلامي بالخلافة .

وهذا الكتاب هو في الحقيقة دراسة للدول الكبرى الزاهرة التي شهدها العالم الاسلامي منذ ظهور الاسلام الى أوائل القرن العشرين الميلادي ، ويجعل الكتاب (الخلافة) محوراً لهذه الدراسة ، فقد كانت الخلافة فعلاً هي النواة التي تكونت حولها هذه الدول المختلفة على مر العصور . وكانت الخلافة مسألة حيوية هامة ، وتقليداً ثابتاً ، ونظاماً ضرورياً ، في العالم الاسلامي طوال العصور التاريخية السالفة ، حتى اعتبر كثير من المسلمين ان سقوط الخلافة العباسية في بغداد على ايدي المغول هو نهاية هذا العالم .

يدرس الكتاب قيام الدولة العربية الاسلامية ، واثر الاسلام في وحدة

العرب القومية والسياسية والاجتماعية . ثم يتناول فلسفة الخلافة من جميع جوانبها ، ونظريات الأحزاب والفرق الاسلامية حولها . ثم يدرس فجر الخلافة ، ويتناول بالدراسة التفصيلية ، على أساس علمي منهجي ، مراحل الخلافـــة جميعها : خلافة الراشدين ، الخلافة الأموية بالشام ، الخلافة العباسية ، الخلافة الفاطمية ، الخلافة الأموية بالأندلس ، إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة ، الخلافة العثمانية . ويقدم الكتاب دراسة جديدة فريدة عن خلافة السلاطين العثمانيين ، وسقوط خلافتهم في مطلع القرن العشرين .

أرجو أن يجد كل باحث ، ومسلم ، وعربي ، وشرقي ، حاجته وبغيته في هذه الدراسة العلمية الجديدة . وأدعو الله عز وجل أن أكون قد ساهمت في رسم صورة مشرقة لحياة الآباء والأجداد ، وان يكون التوفيق قد حالفني فيما أقدمت عليه ، وقصدت اليه ، وهو خدمة الدراسات الاسلامية ، والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الدكتور علي حسني الخربوطلي

١ . قيـــام الدولة الاسلامية

الحياة السياسية قبل الاسلام :

كانت الجزيرة العربية قبل الاسلام لا يضمها دولة عربية واحـــدة ، وظهرت ثلاثة أشكال للحياة السياسية ، أولها حياة الدولة كوحدة سياسية في بلاد اليمن ، والشكل الثاني المدينة كوحدة سياسية في اقليم الحجاز فظهرت عدة مدن كبرى مثل مكة ويثرب(١) والطائف ، والشكل الثالث القبيلة كوحدة سياسية واجتماعية معاً في الصحاري والبوادي ، وهـــذه الأشكال الثلاثة حتّمتها الطبيعة والبيئة والظروف الجغرافية .

وكان لحرمان بلاد العرب من حكومة مركزية أكبر الأثر في حياتها الاجتماعية . فالحكومة تدعم المجتمع وتعزز جانب النظام والقانون . ولم يكن هناك أي منهج للادارة أو القضاء أو الاجتماع ، مما نلمسه في دول القرن العشرين . وكانت الدول أو المدن المتناثرة في الجزيرة العربية ، أضعف من أن توجد وحدة سياسية موحدة القوانين، وانتشرت في الصحراء قبائل كثيرة تؤلف كل منها وحدة سياسية منفصلة مستقلة ، ومجتمعاً صغيراً ، لكل قبيلة زعيم من أبنائها ، يقودها في قتالها للقبائل الأخرى ، وكان هذا الزعيم مستقلاً تماماً لا يدين بولاء أو طاعة لأية سلطة مركزية ، بل كان كل فرد في هذا المجتمع يحاول أن يكون له شخصية مستقلة ، فهو لا يعتـــبر زعامة شيخ قبيلته أو سلطته إلا رمزاً لفكرة عامة شاءت الظروف

أن يأخذ هو فيها بنصيب ، بل كان لكل فرد مطلق الحرية في أن يرفض ما اجتمع عليه رأي الأغلبية من أبناء قبيلته ، وأبعد من هذا أنه لم يكن هناك نظام لنقل سلطة الرئيس، اذ كان يختار لها غالباً أكبر أفراد الأسرة سناً ، وأكثرهم مالاً ، وأعظمهم نفوذاً .

واذا ما تضخمت قبيلة تشعبت فروعاً كثيرة يتمتع كل فرد منها بحياة منفصلة ووجود مستقل ، ولا تتحد الا في ظروف غير عادية ، اشتراكاً في الدفاع عن القبيلة ، أو قياماً بغارات خطيرة ، وكانت وطنية البدوي وطنية قبلية لا وطنية شعبية ، وهذا الشعور بارتباطه بقبيلته يحميها وتحميه ، هو المسمى بالعصبية .

وصف السير (وليم ميور)(١) عرب الجاهلية وصفاً دقيقاً معبراً ، فقال : أكثر ما يلفت الانتباه هو تفرق العرب الى جماعات عديدة ، تتشابه في العادات والطباع ، تتحدث لغة واحدة ، وتتبع دستوراً أخلاقياً غير مكتوب ، أساسه الأخلاق والشرف . ولكن هذه القبائل متباعدة مستقلة لا تعرف الهدوء والاستقرار ، وتشتبك هذه القبائل في حروب مستمرة ، حتى مع القبائل التي ترتبط بها بروابط الدم والمصلحة ، لأسباب تافهة . وكانت كل محاولة لايجاد نوع من الاتحاد مصيرها الاخفاق . وكان لا بد من البحث عن حل لهذه المشكلة ولكن أين القوة التي تستطيع اخضاع هذه القبائل وجذبها الى نقطة الارتكاز ؟ لقد ظهر محمد صلى الله عليه وسلم وتمت بظهوره المعجزة .

ينقسم عرب العصر الجاهلي من الناحية العنصرية الى قسمين : عرب الشمال ، سكان الحجاز ، وهم من نسل اسماعيل بن ابراهيم ، ويسمون العدنانيين ، أو المعديين . والقسم الثاني ، عرب اليمن ويسمون القحطانيين

The Life of Muhammad, PP. 40 - 45 . (١)

أي أنهم من نسل قحطان . وكان الخلاف الجوهري بين القسمين هو الحضارة ، فقد عاش القسم الجنوبي حياة متحضرة وعيشة استقرار نتيجة خصوبة بلادهم واشتغالهم بالزراعة ، بينما أهل الشمال تغلب عليهم البداوة وحياة الترحال .

كانت هناك رابطة تجمع القبائل العربية رغم اختلافها ونزاعها الدائم المستمر . وكان نظام (الأحلاف) السائد في الجاهلية خير مظهر لهـذه الوحدة العربية، وكان عرب الجاهلية يتبعون المثل السائر (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) . واذا دخلت قبيلتان في حلف كان لكل فرد من احدى القبيلتين النصرة على أفراد القبيلة الأخرى . عقدت قريش (حلف الفضول) [1] وكانت ترد كل مظلمة بمكة الى صاحبها ، لا فرق بين قرشي وغيره . وهي روح تنم على الوحدة العربية وتخفف من حدة العصبية الجاهلية [2] . كما أراد العرب أن يخففوا من حدة الصراع والنزاع ، فعينوا أشهراً حُرماً لا قتال فيها ، وأدى هذا الى تأمين القوافل التجارية وتجار القبائل القادمين حاجين الى الكعبة أو قاصدين الى سوق عكاظ وغيرها من الأسواق .

ومن أسباب النزاع الدائم بين العرب في العصر الجاهلي ، تنافر البداوة والحضارة ، والصراع حول موارد المياه والتنازع حول الشرف والرئاسة . أما تنافر البداوة والحضارة فيبدو واضحاً في العداء الشديد بين أهل المدينة من الأوس والخزرج ، وهم يمنيون ، وأهل مكة وهم عدنانيون . واستمر هذا العداء بعد ظهور الاسلام ، أما الصراع حول موارد الحياة فكثيراً ما كان يدور بين بني الأب الواحد ، فإننا نعلم أن حياة العرب قد اعتمدت على المراعي والماء . ولم يكن عند العرب نظم تنظم هذه الموارد الاقتصادية . كما كان التنازع حول الشرف والرئاسة سبباً لحروب عديدة بين القبائل

(١) الطبري ج ٤ ص ٢٧ .
(٢) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٦ .

المتقاربة في الأنساب والمكان مثلما كان بين بـني هاشم وبني أمية بمكة، وبين عبس وذبيان من قيس وبين بكر وتغلب من ربيعة .[1]

ينقسم العرب بالنسبة إلى مساكنهم إلى بدو يقيمون في البادية ، وهم القسم الغالب ، والى حضر وهـم سكان المدن وما يقوم عـلى أطرافها من مزارع ، مثل سكان مكة ويثرب والطائف . على أن التباين بينهما غير كبير ، اذ تنم حياة الحضر ، في حالات عديدة ، عن نشأتهم الرعوية ، حيث يشتركون مع البدو في طبائعهم المعروفة . ومن ذلك أن المزارعين المستقرين وأهل الحضر أيضاً لم يتخلوا تماماً عن عادة التجوال والارتحال من مكان الى آخر . ثم ان البدو من ناحية أخرى لم يكونوا مجرد أفاقين ، يجوبون الأرض حباً في محض التجوال والارتحال ، وانما كانوا يتخيرون البقاع التي ينتجعونها بقطعانهم على أساس خصوبتها ووفق أوقات معينة من السنة . واذا وجد أولئك البدو أرضاً خصبة صالحة للزراعة وسط المروج الكبيرة ، استقروا فيها ، على حين اذا وجدت عين ماء يتلاقى عندها الرعاة ورجال القوافل قامت احدى القرى وربما احدى المدن .[2]

كان سكان المدن أو الواحات الخصبة في الجزيرة ، يجرون على حياة تختلف قليلاً عن الحياة التي يحياها البدوي ، لأن المفروض في هذه الجماعات أن تقيم في هذه الأرض الخصبة ، وأن تزرعها وترعاها ، ولكنهم مع ذلك كانوا يتفقون مع البدوي في طريقة حياته وتفكيره ،وكانوا، ما في ذلك شك ولا ريب ، متأثرين بالحياة البدوية التي حولهم ، متأثرين الى حد بعيد بالتفكير البدوي نفسه ، في الشعر وغير الشعر من الفنون الأدبية التي كانت تجد أرضاً خصبة في هذه الصحراء الملتهبة الجياشة .

وفي هذه الأرض الواسعة كانت الحياة تسير سبيلها متحركة ابداً ،

---

(١) ابن قتيبة : المعارف ص ٢٦٠ — ٢٦١ .

(٢) هل : الحضارة العربية ص ٣ .

مختلفة أبداً ، ولكنها تظل مطبوعة بطابع البداوة والصحراء ، فاذا هلكت قبيلة ، أو هاجرت قبيلة الى مكان آخر ، أتت غيرها ، فحلت محلها ، وراحت تحيا حياتها وتعيش على غرارها .

كان البدو يمثلون غالبية سكان الجزيرة العربية قبل الاسلام . وقد احتفظ البدو بطباعهم وبداوتهم ، وتجلت هذه البداوة في عاداتهم وحرفهم . وأدت خبرتهم واشتغالهم بالتجارة الى معرفة دروب الصحراء . وهم يعيشون حياة ترحال دائمة ، اذ ينتقلون من مكان الى آخر حيث توجد الآبار والعيون ، وهي أساس حياتهم منذ عهد الآباء والجدود ، وينصبون خيامهم حيث يجدون أشجار النخيل التي يحتمون بظلها ، والأعشاب التي يرعون عليها اغنامهم وابلهم، ولكنها اقامة مؤقتة تنتهي بانتهاء ما لديهم من امدادات وتموين .

انقسم هؤلاء البدو الى قبائل وأسر ، لكل منها شيخ أو أمير ، يغرس حربته الى جانب خيمته علامة على رئاسته ، وقد تظل الرئاسة في أسرة عدة أجيال ، ولكن ذلك يتوقف على موافقة القبيلة . وقد يعزل الشيخ وتنتخب القبيلة رئيساً آخر من أسرة أخرى . وسلطة الشيخ لها حدود ، وتعتمد على صفاته الشخصية والثقة التي تمنح له . وللشيخ سلطة تقرير الحرب أو السلم ، وعقد المعاهدات ، وقيادة القبيلة في الحروب ، واختيار المكان الذي تنصب القبيلة فيه خيامها ، واستقبال الأجانب والتفاوض معهم ، ولكن يجب على الشيخ عند تقريره هذه الأمور أن يحترم آراء ومطالب شعبه .[1]

تتفرع القبيلة الى فروع كثيرة ، ويعرف كل فرد نسبه وصلته بكل فرع من هذه الفروع ، ويتزعم شيوخ هذه القبيلة شيخ يعرف باسم (شيخ

---

(١) ارفنج : حياة محمد (من ترجمتنا) ص ٢ .

الشيوخ) ويسكن عادة في قلعة مبنية من الصخر ، أو ينصب خيمته وسط قطعان أغنامه وابله في الصحراء ، ومن واجبه التوفيق بين هذه الفروع والعمل على سعادتها ورفاهيتها .

وكثيراً ما تصطدم القبائل ببعض ، وتعتبر عادة الأخذ بالثأر من أهم دوافع الاصطدام . فمن أهم واجبات كل قبيلة أن تأخذ بثأر قتيلها اذ يتوقف على ذلك شرفها ، وقد تستمر الحروب الدموية من أجل الثأر أجيالاً طويلة . ويتضامن أفراد القبيلة تضامناً شديداً ، ينصرون أخاهم ظالماً أو مظلوماً ، يسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم . اذا جنى أحدهم جناية حملتها قبيلته ، واذا غنم غنيمة فهي للقبيلة ولرئيسها خيرها ، واذا أبت قبيلة أن تحميه لجأ الى قبيلة أخرى ووالاها ، وحسب نفسه كأنه أحد أفرادها .

وبعض القبائل ترجع في أصولها الى رجل واحد ، كان كثير الولد ، ثم تناسل أولاده ، فأسسوا قبيلة جديدة تحمل اسم الأب ، واستقلوا عن غيرهم من القبائل ، وانضم إليها جماعة تركوا قبائلهم لأسباب شخصية أو لاختلافات محلية . ولم يكن البدوي يحاول ان يعرف أن هناك في الحياة غير القبيلة ، ولم يكن يريد أن يفطن الى ان هناك نُظماً سياسية تختلف عن النظم القبلية .

وكانت نظم هؤلاء البدو الاجتماعية بسيطة ، أولها وأهمها حق البدوي في الحرية الشخصية ، برغم صلة القربى التي ربطت الفرد بأسرته وقبيلته وجنسه . وثاني هذه النظم هو حق البدوي في الاغارة على القبائل المعادية ، وذلك لأن تنازع البقاء دار في الجزيرة العربية منذ القدم حول الماء والمراعي ، وأدّى ذلك التناحر الى ضعف الروح القومية ، اذ اصبح العربي البدوي ينظر الى قبيلته على أنها وطنه ، والى القبائل الأخرى على أنها أعداء ، يحل له الاغارة عليها. ولكن اذا كان الصراع من أجل الحياة قد فرّق البدو الى

شيع صغيرة متنافرة ، فان نضالهم المشترك ضد الطبيعة القاسية قد قرب بين بعضهم بعضاً ، وأدى الى أن اعترف العرب جميعاً بواجب واحد ، غالوا في المحافظة عليه ، واعتبروه فضيلة كبرى ، ألا وهو واجب الضيافة .

أما الحضر ، سكان المدن ، فقد كانوا اقل شجاعة وأكثر ميلاً الى الترف والنعيم ، وقد نبغوا في التجارة . فقد جابت قوافل قريش بلاد العرب ومعظم دول العالم القديم ، مما أدى الى رقي أحوال قريش الاجتماعية .

أثر الإسلام في تحقيق الوحدة الاجتماعية :

كان من أهم أغراض الاسلام العمل على محو تلك البداوة بين العرب ، واقامة حضارة اجتماعية جديدة خالية من الفساد الذي وقعت فيه حضارة الفرس والروم ، فترتفع رايات الحضارة الاسلامية ، وتتحقق المساواة بين الشعوب والأفراد ، ويعيشون جميعاً في ظل هذه الحضارة العادلة الصالحة .

والاسلام رسالة جديدة غيرت مجرى التاريخ ، وبدّلت نظام الحياة ، وسمت بالانسانية التي كان يهوي بها الجهل والفاقة والاستبداد ، وارتفعت بكرامة الفرد والمجتمع الى المكان اللائق بها ، حيث السمو في العقيدة ، والكمال في النظام وروح الجماعة ، وقضت على المبادىء الضارة التي تسيء الى الحضارة ، سواء في العقيدة أو في التفكير أو في الاجتماع ، وبعثت شعوراً جديداً في العالم كافة ، يقوم على ايمان عميق وطيد بمبادىء الحق والعدالة والحرية والمساواة والأخوة العامة والزمالة الانسانية المشتركة .

قرر الاسلام أسمى المبادىء في قوة وصراحة ، وأقام أعدل النظم في تناسق وتماسك ، ووضع لكل داء علاجاً شافياً ، ولكل مشكلة حلاً وافياً يُفقّه مَنْ شرح الله صدره للاسلام وأنار بصيرته بنور العرفان . وكفلت الشريعة الاسلامية تحقيق العدالة الاجتماعية بأوسع معانيها بالنسبة للأفراد

والجماعات . فقد اعتبرت الفرد قواماً للجماعة وسنت له النظم الصالحة لحياته في نفسه وباعتباره عضواً في أسرته ، وفي عشيرته وفي أمته ، وفي المجتمع الانساني ليكون لبنة متينة في بنائه وعضواً قوياً في كيانه . كما اعتبرت الجماعة عضداً للفرد وظهيراً له في أداء رسالته والتمتع بحقوقه والقيام بواجباته . ووثقت الصلة بين الفرد والجماعة بالتكافل في كثير من الحقوق والواجبات ولم تدع شأناً من شئون الفرد والجماعة الا أنارت فيه سبيلاً .

وأوجب الاسلام الزكاة ، تؤخذ من الأغنياء وترد الى الفقراء ، وأمر بالبر والاحسان لذوي القربى واليتامى والمساكين والجار وابن السبيل ، وضاعف مثوبة الصدقات ، كما حث الاسلام على العمل والكسب ، ونهت السُنّة عن البطالة والكسل واراقة ماء الوجه بالسؤال والاستجداء لكيلا يتكل الفقراء على الأغنياء . ونادى الاسلام بالحرية والإخاء والمساواة ، وأقام موازين الحق والعدالة والانصاف ، ودعم التعاون على البر والخير والاصلاح ، كل ذلك في ظل المحبة والوئام والسلام .

اعترف الاسلام للانسان بحريته واستقلاله الفكري والاجتماعي والمالي ، وجعله حراً طليقاً من كل قيد ، الا من الخضوع لدين الله ، وأولي الأمر الذين يحكمون بشريعة الله ، ويحفظون الأمن والنظام بين الناس ، فرفع الاسلام بذلك من كرامة الانسان ومعنويته ، وهيّأه للمزيد من الحضارة والمدنية .

دعا الاسلام الى ان يكون الناس إخوة متحابين في الحياة ، وساوى بينهم في الحقوق والواجبات ، وحرّم دعوة العصبية واستبدل بها دعوة الدين والطاعة لحاكم واحد يلزم شريعة الله . وشرع كثيراً من الشرائع الاجتماعية التي تزيد من قوة المجتمع ووحدته كالحج والزكاة وصلاة الجماعة والاحسان ، وحارب الرذائل الاجتماعية ، وأزال الفوارق الاجتماعية بين الناس

والشعوب ، لا فضل لأحد على أحد الا بالتقوى .[1]

غيّر الاسلام من الحياة الاجتماعية في بلاد العرب والعالم أجمع ، فقد أخذت روح الفردية تتضاءل لتخلفها روح الجماعة ، وتلاشت مبادىء الطغيان الديني والاجتماعي والمادي ، لتقوم بدلاً منها مبادىء الايمان بالعدالة والمساواة والحرية والكرامة . جاء الاسلام والعرب قبائل موزعة ، وأحياء متخاصمة ، لا يجمعهم دين ولا سلطان ، ولا شريعة اجتماعية عادلة منظمة . فبدّلهم من ذلك كله نظاماً موحداً ، وحياة كريمة مهذبة في الاجتماع والسياسة ، وفي الدين والدنيا .

تحدث جعفر بن أبي طالب الى نجاشي الحبشة ، وقد ارسلت قريش وفداً لتحريضه على طرد المهاجرين المسلمين ، يصف ما غيّر الاسلام من حالهم . فقال : « أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف . فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام » .[2]

وازن كل من (جولد تسيهر) و (أرنولد) بين المثل العليا في الجاهلية والاسلام . فقال جولد تسيهر[3] : ان الشجاعة الفردية ، والكرم العظيم،

---

١ — خفاجي : الاسلام وحقوق الانسان ص ٢٤ .
٢ — ابن هشام جـ ١ ص ٣٥٨ — ٣٥٩ .
٣ — انظر تاريخ الفرس الأدبي لبراون جـ ١ ص ١٨٩—١٩١ .

والبذخ والاسراف في تكريم الضيف والانتصار لذوي القربى والأخذ بالثأر بلا شفقة أو رحمة اذا وقع اعتداء على شخصه أو عشيرته ، كانت أبرز فضائل الجاهلية . أما في الاسلام ، فنجد الصبر والاحتمال ، وتفضيل المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، شخصية كانت أو قبليّة . كما نجد عدم الاكتراث بالأمور الدنيوية والأعراض الزائلة ، وتجنب الرياء والفخر . وكانت هذه الفضائل كفيلة بأن تدفع المسلمين على احتقار هذه المثل العليا للجاهلية .

وقال أرنولد[1] : كانت المساواة بين المؤمنين في الاسلام وما ساد بينهم جميعاً من أخوة مشتركة ، فكرة عارضت في الصميم نعرة الشعور القبلي عند العربي الذي بنى احترامه الشخصي على شهرة أجداده ، وأخذ يقتدي بهم في اثارة النزاع الدامي الدائم الذي كان يلتمس فيه اللذة والسرور .

وتحدث (جوزيف هل)[2] عن أثر الاسلام في وحدة المجتمع فقال : ثم ان انتظام المؤمنين في الصلاة شجع روح الوحدة بين المسلمين ، وخلق بينهم شعوراً بالمساواة التي كانت أفكاراً جديدة على أهل بلاد العرب . اذ كانت الوحدة الموجودة حتى ذلك الوقت هي رابطة الدم . كما أن المظاهر الرئيسية التي سادت حياة العرب اذ ذاك هي الافتخار بالأسرة والحسب والثراء ، وامتهان شأن المعوز وعديم الحياة . ولذلك فان محمداً مهّد السبيل لوحدة بلاد العرب المتنافرة ، عندما نجح في تدعيم الاتحاد الذي احتضن على السواء الغني والفقير على أساس المساواة . وعندما نجح كذلك في توجيه ضربة عنيفة الى العصبيّة القبلية والعائلية . واستهدف الاسلام منذ مبدإ أمره تحقيق ذلك الغرض وهو القضاء على العصبية القبلية والعائلية وتحطيمها . والى جانب الصلاة ، كانت فكرة المساواة الاجتماعية تجديداً تاماً أحدثه الاسلام ،

---

١ – الدعوة الى الاسلام ص ٦١ – ٦٢ .

٢ – الحضارة العربية ص ١٢٤ .

فأصبحت مساعدة الفقير والقيام بأمره واجباً مقدساً ، ولم يعد من شأن الأفراد أن يعطوا كيفما شاءوا ، وانما غدت الزكاة فرضاً تجبى الى بيت المال وينفق منها على الفقراء .

أراد محمد ، المصلح الاجتماعي الأول ، أن ينظم مجتمعه ويقرر الحقوق والواجبات . فكان يستمد من الشريعة الاسلامية روح قوانينه وتشريعاته . وَوَضْع القوانين ورعايتها يحتاجان الى حكومة مسئولة مطاعة ، ولذا اهتم محمد بانشاء حكومة عربية اسلامية مستنيرة ، وعوّد الناس الحياة في ظل حكومته ، وذلك بالمشاركة في المسئولية والخضوع للقوانين . فكان يطبق الشورى .

وأصبحت بلاد العرب بعد انتشار الاسلام فيها تجمع بينها عقيدة واحدة ، وقد مهدت هذه الرابطة الدينية لقيام وحدة سياسية ووحدة اجتماعية تجمع شمل العرب . وقامت الدولة العربية الاسلامية على أساس الوحدة الدينية . ونجح الاسلام في القضاء على القبلية ، فتحول التيار الذي كان يغذي العصبية القبلية الى تغذية عصبية أخرى هي العصبية الاسلامية التي تعمل على عزة المسلمين والعرب ، وتجعل في الاسلام ما يغني عن الحسب والنسب ، وتدفع المسلمين الى الحضارة والتقدم .

ووحّد الاسلام المجتمعات العربية ، أي القبائل ، في مجتمع كبير وألف بين قلوب العرب ، وقضى على العصبية الجاهلية ، فزالت العداوة التي كانت بين القبائل ، وخضعوا لحكم النبي ، وأوامر القرآن الكريم ، بعد أن كانوا يدينون لرؤساء القبائل . وبذلك قامت في بلاد العرب حكومة مركزية عزيزة الجانب . وأبدى العرب حماسة كبيرة للاسلام ، وبذلوا النفس والنفيس في سبيل نشر دينهم وحمايته . ودانت جميع قبائل العرب بالاسلام ، وأصبحت ترى فيه رمز وحدتها وشعار مجدها .

اهتم الاسلام بتنظيم المجتمع ، فبدأ باصلاح الفرد ، فدعاه الى طهارة

الجسم وصفاء الروح ، ونبذ العادات الاجتماعية المرذولة ، والتحرر من غرائزه الجنسية ، وفرض الاسلام عبادات القصد منها أن تنهى القائم بها عن الفحشاء والمنكر والبغي . واستمر محمد ينصح قومه ، فأمرهم بالمعروف والتضامن الاجتماعي ، والتعاون على البر والتقوى . وهذا الاصلاح الفردي متشابك مع التنظيم الاجتماعي . وآخى محمد بين المسلمين ، وبيّن علاقة المرأة والرجل في نطاق الأسرة التي هي الخلية الأولى للمجتمع . وحدّد مركز المرأة في المجتمع وحقوقها وواجباتها ، وحرّرها من قيود الجاهلية لتكون عضواً نافعاً في المجتمع . كما اهتم الاسلام بالأسرة ، فنظّم علاقات الآباء والأبناء . ونهى عن وأد البنات ونظم الزواج والطلاق والمواريث والرق ، وهي أمور أهملها المجتمع الجاهلي تماماً .

أثر الإسلام في تحقيق الوحدة السياسية :

نجح الاسلام في أن يجمع القبائل العربية في صعيد واحد ، وألّف بين قلوبهم ، وقضى على العصبية القبلية ، فزالت الحزازات القديمة والثارات التي بين القبائل ، فخضعوا لحكم الرسول وأوامر القرآن الكريم بعد ان كانوا يدينون لرؤساء متفرقين . وبذلك قامت في بلاد العرب حكومة مركزية قوية . ولم يكن هدف الدولة العربية الاسلامية سيادة شعب على شعب ، كما كانت اهداف الدولتين الفارسية والرومانية ، بل كان هدفها الدعوة إلى توحيد الله ، والحكم بالعدل بين الناس ونشر لواء الحضارة .

يصف ابن حزم[1] أثر الاسلام في تآخي العرب وتخلصهم من مفاسد الجاهلية فيقول : «وكانت العرب بلا خلاف قوماً لقاحاً لا يملكهم أحد كربيعة ومضر واياد وقضاعة ، أو ملوكاً في بلادهم يتوارثون الملك كابراً

---

١ – انظر كتاب الدعوة الى الاسلام لارنولد ص ٣٧ .

عن كابر ... فانقادوا كلهم لظهور الحق وآمنوا برسول الله ، وهم آلاف آلاف وصاروا اخوة كبني أب أو أم ، وانحل كل من أمكنه الانحلال عن ملكه منهم الى رسوله طوعاً بلا خوف غزو ولا اعطاء مال ولا بطمع في عزّ ... بل كلهم أقوى جيشاً من جيشه ، وأكثر مالاً وسلاحاً منه ، وأوسع بلداً من بلده ... » .

وصف (فون كريمر) أثر الاسلام في توحيد العرب فقال : جمعت فكرة الدين المشترك تحت زعامة واحدة شتى القبائل في نظام سياسي واحد ، ذلك النظام الذي سرت مزاياه في سرعة تبعث على الدهشة والاعجاب ، وان فكرة واحدة قد حققت هذه النتيجة ، تلك هي مبدأ الحياة القومية في جزيرة العرب الوثنية . وأصبح النظام القبلي شيئاً ثانوياً بالنسبة للشعور بالوحدة الدينية . وتكللت المهمة الضخمة بالنجاح ، فعندما انتقل محمد الى جوار ربه ، كانت السكينة ترفرف على أكبر جزء من شبه الجزيرة العربية بصورة لم تكن القبائل العربية تعرفها من قبل ، مع شدة تعلقها بالتدمير وأخذ الثأر ، وكان الدين الاسلامي هو الذي مهد السبيل الى هذا الائتلاف .

ويرى (نولدكيه) أن أبرز ما تركه الاسلام في العرب هو القضاء على عادة الأخذ بالثأر . فكانت كل قبيلة اعتنقت الاسلام تتنازل عن حقها في الأخذ بثأر من قتل من أبنائها في الحروب ، بينما كان العربي في الجاهلية يرى تركه الأخذ بالثأر عاراً وذلاً .

عمل الاسلام على جمع شمل العرب ، وأزال دوافع تفرقهم ، وخلص العرب من رذائل الجاهلية ، ونشر بينهم روح العدالة والشورى والسلام ، وأن أكرم الناس أتقاهم ، وأعد العرب ليكونوا خير أمة صالحة ينشرون دينهم في أرجاء الأرض .

قيام الدولة العربية الإسلامية في عهد الرسول :

نجح الرسول صلى الله عليه وسلم في تحقيق هدفين كبيرين : فقد وحّد

بين العرب وخلق منهم أمة واحدة ، ودولة عربية اسلامية قوية ، ثم ساوى بين العرب وغيرهم من الأجناس ما داموا قد اعتنقوا الاسلام وامتازوا بالتقوى . وكان العرب قبل الاسلام يتفاخرون بالعصبية والأنساب ، فجاء الاسلام فجمع كلمتهم وصاروا يداً واحدة على اختلاف أنسابهم ومواطنهم ، وجمعهم تحت راية واحدة باسم واحد هو الاسلام[1] . ورغم أن محمداً كان عربياً قرشياً ، فإن العادات العربية القبلية لم تؤثر عليه في حال من الأحوال ، فكان يقضي على كل ما يدعو الى الانقسام والخلاف ، ويدعو الى دين وطني شعاره توحيد الصفوف في الدين والسياسة والاجتماع .

كتب المؤرخ الألماني الكبير (فلهاوزن) بحثاً بعنوان « الجماعة السياسية نشأت من الجماعة الدينية »[2] جاء فيه : نشأت الجماعة السياسية في الاسلام من الجماعة الدينية ، ويكاد أن يكون اهتداء محمد الى طريق الحق قد حدث مع نهوضه لتبليغ الرسالة : نعم ، هو قد بدأ بنفسه ، وكان أول ما استولى على قلبه اليقين بالله القادر على كل شيء ، واليقين بيوم الحساب . ولكن ذلك اليقين الذي ملأ نفسه كان من القوة بحيث فاض عنها ، فلم يجد بدّاً من أن يرشد اخوانه الى نور الهدى والى الصراط المستقيم ، ولم يلبث حتى أنشأ في مكة جماعة دينية صغيرة . وكان الذي يؤلف بين قلوب هذه الجماعة هو الايمان بإله واحد ، لا تدركه الأبصار ، خالق هذا العالم ، ومحاسب كل نفس بما كسبت ، كما كان يجمع بينها مبدأ خلقي ، وعماده أن يعبد الانسان الله ، وأن يسعى الى نجاة روحه من شرور الدنيا . وكان يربط بين الجماعة الاسلامية من الخارج القيام بعبادات واحدة .

ويقول فلهاوزن : أما الدولة من حيث هي نظام منفصل عن الجماعة ومستقل عنها في وظيفته ، ومن حيث أن لهذا النظام سلطاناً يخضع له الناس ،

---

١ – جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ٤ ص ٣٨ .
٢ – فلهاوزن : الدولة العربية ص ١ – ٤ .

فلم يكن بعد قد وجد بين العرب ، بل كانت الدولة عندهم هي الجماعة في جملتها ، ولم تكن هيئة لها نظام خاص ، ولا كانت لها أرض محدودة . فلم يكن هناك في الحقيقة دولة وانما كانت هناك أمة . فلم يكن هناك نظام سياسي من صنع الانسان ، بل كان هناك كيان اجتماعي طبيعي بالغ درجة النماء ، لم يكن هناك موظفون يدبّرون شئون الجماعة بالمعنى الذي تعرفه في الدولة ، وانما كان هناك رؤساء العشائر والقبائل . ولم يرَ محمد أن رسالته هي أن يضم إلى دعوته اتباعاً متفرقين هنا وهناك . نعم كان لا بد له أن يبدأ بضم أفراد ، لكنه كان يرمي الى ضم الجماعة كلها . فكان يطمح الى ان يجعل أمته العربية كلها جماعة دينية .

ثم تحدث (فلهاوزن)[1] عن تحوّل الجماعة الدينية بعد هجرة الرسول الى المدينة الى جماعة سياسية فقال : أصبحت المدينة منذ الهجرة أمة واحدة . وكلمة (الأمة) هنا ليست اسماً للجماعة العربية القديمة التي تربطها رابطة النسب ، بل هي تدل على الجماعة بالمعنى المطلق . وهي تدل في العادة على جماعة تقوم على الدين،والايمان هو رباط الاتحاد . والأمة لا تشتمل على المؤمنين وحدهم ، بل هي تتألف أيضاً من كل من يتبعهم ويحارب معهم ، أي من كل أهل المدينة .

كان معنى (الدولة الاسلامية) في عهد الرسول ينطبق تماماً على معنى (الدولة العربية)،فليس هناك غير دولة اسلامية واحدة ، ولهذه الدولة صفتان في وقت واحد ، الاسلام والعروبة ، ومحمد زعيم المسلمين ، وزعيم العرب في وقت واحد .

وينادي جرجي زيدان[2] بمثل هذا الرأي فيقول : العصبية التي قام

---

١ – جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ٤ ص ٣٨ .
٢ – فلهاوزن : الدولة العربية، ص١٠ – ٤ .

بها الاسلام هي الجامعة العربية ، ولذلك كان اللفظان مترادفين في ذلك الحين ، وخصوصاً عند الأمم التي خضعت لسلطان المسلمين ، فكانوا اذا قالوا (العرب) أرادوا (المسلمين) وبالعكس . ولفظ (طيبوتا) عند السريان يدل على العرب والمسلمين على السواء ، والفرق بين هذه الجامعة قبل الاسلام وبعده أن العرب كانوا في الجاهلية عصبيات عديدة تختلف باختلاف الأنساب فأصبحوا بالاسلام عصبة واحدة تجمعها كلمة (العرب) وتركوا ذكر الآباء والأجداد عملاً بما تقتضيه روح الاسلام .

أثر الاسلام في قيام الدولة :

دعا الاسلام الى اتحاد العرب وقيام (دولة عربية اسلامية) تجمعهم وتوحد كلمتهم ، فقد أدى الاسلام الى إضعاف القوة الرابطة للفكرة القبلية القديمة ، تلك الفكرة التي أقامت بناء المجتمع العربي على أساس قرابة الدم . وكان اسلام العربي ودخوله في المجتمع الجديد هدماً لأهم قوانين الحياة العربية الأساسية ، كما كانت كثرة دخول العرب في الاسلام من العوامل القوية التي أدت الى تفتيت النظام القبلي وتركه ضعيفاً أمام حياة قومية شديدة التماسك ، كذلك الحياة التي صار اليها المسلمون ، وهكذا اضطرت القبائل العربية الى أن تذعن للنبي ، لا لمجرد أنه رئيس لأقوى قوة عسكرية في بلاد العرب ، بل لأنه رمز لمذهب حياة اجتماعية كان يجعل كل خارج عليها ضعيفاً عديم الأثر .

كانت شعائر الاسلام تؤدّي الى الوحدة السياسية والقومية . كانت الصلاة تمثل نوعاً من الرياضة البدنية ، بل يصفها بعض المستشرقين بأنها نوع من التدريب العسكري ، بما فيها من الوقوف صفاً واحداً على قياس واحد ، ثم القيام بالحركات المفروضة من ركوع وسجود وفاقاً لأمر يصدره الامام . واذا نظرنا الى أن العرب الفخورين بأنفسهم وعاداتهم وتقاليدهم لم يكونوا

يقبلون نوعاً من أنواع التقييد والحصر ، أدركنا خطورة هذه الصلاة التي فرضت عليهم الائتمار بأمر رجل واحد في وقوفه ، وركوعه وسجوده ، مما كان جديداً عند العرب غريباً عنهم وعن تقاليدهم وعاداتهم . ثم إن هذه الاجتماعات المقررة لكل المسلمين في المسجد قد خلقت منهم نوعاً من روح المخالطة والتفاهم بعضهم مع بعض ، خصوصاً بعد اقرار مذهب المساواة في الاسلام مما قضى على رابطة القبيلة ، وأحلّ محل هذه الرابطة الضيقة رابطة عربية اسلامية انسانية واسعة ، كانت الخطوة الأولى للوحدة العربية . ثم هناك (الزكاة) وهي ظاهرة جديدة في العالم حينئذ . فالاسلام لم ير من الحكمة أن يترك مساعدة الفقير للجماعة نفسها . بل فرض ذلك فرضاً ، وحدّده تحديداً . وجعله من أركان الدين . وكلف الحكومة أن تقوم بجمعه ثم تعمل على تقسيمه بين المستحقين .

تحدث (أرنولد)[1] عن أثر الاسلام في قيام الدولة العربية الاسلامية فقال : كان ظهور مبادىء الاسلام في بلاد العرب في القرن السابع الميلادي ، على يد النبي العربي الذي انضوت تحت لوائه شتى القبائل العربية فأصبحت بذلك أمة واحدة . فلما امتلأوا من آثار هذه الحياة القومية الجديدة ، ومن هذه الحماسة ، وتلك الحمية التي أمدت جنودهم بقوة لا تُقهر ، تدفقوا في أرجاء الأرض ، يفتحون البلاد .

الدولة هي الحكومة التي تقوم في طائفة من الناس لتدبير مصالحهم الداخلية والخارجية . ولم يكن للعرب قبل ظهور الاسلام حكومة ترعى هذه المظاهر . وانما كانوا قبائل متفرقة متعادية ، في نزاع وصراع دائمين ، وفي فوضى سياسية واجتماعية ودينية بعيدة المدى . ثم ظهر الاسلام فخلق دولة عربية اسلامية ، ووحّد كلمة العرب وعرفوا معنى النظام والأمن

---

١ – الدعوة الى الاسلام ص ٢٥ – ٢٦ .

والاستقرار . ونجح الاسلام في أن يجمع شمل العرب المتفرقين المتنابذين وأن يخلق دولة عربية اسلامية جديدة .

أهداف الدولة الجديدة :

ظهرت الدولة العربية الاسلامية في القرن السابع الميلادي برسالة تهدف الى تكوين أمة واحدة (وان أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) . وأبرز أبناء هذه الدولة هم العرب المسلمون ، الذين اعتنقوا الاسلام ونبذوا دياناتهم السابقة . وأهل هذه العقيدة أهل وطن واحد لا حدود له ، فهم فيه مواطنون متساوون في الحقوق والواجبات مشتركون في وطن عالمي واحد لا فضل فيه لعربي على عجمي الا بالتقوى . ولم يريدوا أن يقيموا من وطنيتهم وقوميتهم نزاعاً أبدياً بينهم وبين الأوطان الأخرى . فقالوا إن من يدخل هذا الوطن ويرضى ذمتهم ولو لم يكن من دين أهله ، أي من غير المسلمين ، يصبح له ما لهم وعليه ما عليهم . وبذلك أصبحت داخل الدولة العربية الاسلامية أمم وأقوام مختلفة الأصول والملل متساوية الحقوق والواجبات .

كانت غاية الدولة الاسلامية كما بيّن الله تعالى في كتابه العزيز في عدة مواضع اقامة المآثر والمكارم التي يحب الله أن تتحلى بها الحياة البشرية ، وأن تستأصل من الأرض كل ما يبغض الله من شرور . فالاسلام ما جاء ليقيم في هذه الدنيا دولة من حيث انها دولة ويعنى بتدبير شؤونها فقط ، فالاسلام يضع بين يدي الدولة التي يقيمها وفق مبادئه وأصوله غاية أسمى وأرفع من ذلك بكثير[1]. ويحتم عليها ان تستخدم في سبيل تحقيقها كل ما يسمو من الوسائل . وذلك ليظهر ما يحب الله أن تتزين به حياة عباده في أرضه وتصطبغ بصبغة من النزاهة والخير والرشد . ويقضي على كل ما يتوقع منه أن يكون مبعث فساد في الأرض .

---

١ – نظام الحياة في الاسلام ص ٣٢ .

فالدولة الاسلامية تستطيع أن تضع برنامجها الاصلاحي على أساس ما يحقق مصالحها وخير البشرية .

وجه محمد صلى الله عليه وسلم جهوده المباشرة الى عشيرته والجزيرة العربية عند ظهور الاسلام . وكانت العلاقات التي أخذ ــ عند نهاية رسالته ــ في عقدها مع الدول الأجنبية وكذلك الأعمال والمشاريع التي نظمها ، هذه وتلك تكشف عن جهد تجاوز حدود الجزيرة العربية . ومما لاحظه (نولدكيه) أن خططه كانت ترمي إلى ميادين أوسع اذ كان على يقين من الالتقاء بالروم في ميادين القتال ، وكان آخر ما أوصى به المجاهدين متجهاً إلى غزو أو فتح الامبراطورية البيزنطية ، وإن الفتوحات الكبرى التي تمت بعد وفاته بمعرفة الذين كانوا أكثر أصحابه اطلاعاً على نواياه ومشروعاته ، لهي أحسن تفسير لارادته الخاصة في هذا الصدد .

دعا محمد صلى الله عليه وسلم الى وحدة الإنسانية ، أممها وجماعاتها ، والى محو جميع الفروق الطائفية والعنصرية الظالمة التي فرقت بين الانسان والانسان ، وبين الجماعة والجماعة ، وبين الأمة والأمة ، والى المساواة التامة بين الأفراد والجماعات . وأهدر جميع الموازين التي ألف الناس تقويم قيم الأشخاص على أساسها من الحسب والجاه والمال ، الا ميزاناً واحداً هـو ميزان الكفاءة الشخصية والعمل الصالح والخلق الكريم .

ويذكر المؤرخ (أرنولد)[1] أن محمداً كان يطالب البشرية كلها بارتضاء الاسلام ، فكان يقول عن بلال إنه « أول ثمار الحبشة » وإن صهيباً « أول

---

١ ــ الدعوة الى الاسلام ص ٥٠ .

ثمار الروم » . وهكذا صرح الرسول بكل وضوح وجلاء أن الاسلام ليس مقصوراً على الجنس العربي قبل أن يدور بخلد العرب أي شيء يتعلق بحياة الفتح والغزو بزمن طويل . ويؤيد عموم دعوة الرسول والحق في المطالبة أن يستجيب لها جميع الناس ، أن الاسلام كان الدين السماوي الذي اختاره الله للجنس البشري كافة ، ثم أوحى به اليهم من جديد على لسان محمد « خاتم النبيين » كما أوحى به قبل على لسان غيره من الرسل .

٢ . فلسفة الخـــلافة

معنى الخلافــة :

الخلافة مصدر « خلف » ، يقال : خلفه خلافة ، كان خليفته وبقي بعده . والخليفة هو الامام أو السلطان ، والجمع خلائف وخلفاء ، والخلافة موضوعة في الأصل لكون الشخص خلفاً لأحد ، ومن ثم سمي من يخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في اجراء الأحكام الشرعية خليفة (١) .

ذهب السلف إلى أن أساس كل حكم في الاسلام « الخلافة » أو « الامامة » وجروا في تعريف الخلافة على أنها رياسة في أمور الدين والدنيا نيابة عن رسول الله ، وأن منزلة الخليفة من الأمة منزلة رسول الله من المؤمنين ، له عليهم الولاية العامة ، والطاعة التامة ، وله حق القيام على دينهم ، فيقيم فيهم حدوده ، وينفذ شرائعه ، وله حق القيام على شئون دنياهم أيضاً . بيده زمام الأمة ، فكل ولاية مستمدة منه ، وكل خطة دينية أو دنيوية متفرعة عن منصبه ، فهو الحاكم الزمني وهو الحاكم الروحي .

وهكذا تشمل الخلافة سلطة أخروية وأخرى دنيوية ، وقد يظهر الفرق

---

١ — حسن ابراهيم : النظم الاسلامية ص ٢٠ .

بين السلطتين كبيراً ، ومرجعهما إلى مبدإ واحد لأن الذي يتأتى له أن يتولى أمور الناس اما أن يسير بهم على قانون مفروض أو على مقتضى ميوله وأغراضه . وأكثر حكام العالم المتمدن يحكمون بقوانين سياسية وضعها عقلاء الأمة وأكابر الدولة ، يطيعها الناس ويجرون على أحكامها . كذلك كان الفرس والروم قبل الاسلام، وكان هذا شأن الملوك المطلقين في أوروبا الى عهد قريب، بل كذلك شأن الديمقراطيات التي يتولى الحكم فيها ملك يرث العرش عن آبائه ، أو رئيس جمهورية ينتخبه الشعب وفق قواعد مقررة في الدستور ويقوم بالحكم في حدود يعينها الدستور ايضاً .

وأما الخلافة فانها مقيدة بقوانين دينية شرعية ، يسوس الخليفة بها أمته ويحمل الناس على أحكامها بالنيابة عن الرسول ، ومن هذا القبيل اشتمال الخلافة على الامامة ، وقد سموا الخليفة اماماً تشبيهاً بامام الصلاة في اتباعه والاقتداء به[1] .

ظهرت الخلافة بعد وفاة الرسول مباشرة ، وكان ظهورها نتيجة حتمية للفراغ الذي أحدثته وفاة الرسول ، وضرورة أوجبتها ظروف الدولة العربية الاسلامية التي أنشأها الاسلام . ثم تناول الفقهاء مسألة الخلافة بالبحث والمناقشة ، وحاولوا أن يجدوا للخلافة أصلاً في القرآن الكريم فجروا وراء الآيات الكريمة التي حوت كلمتي « خليفة » و « إمام » ، وقد دفع الفقهاء الى هذا السلوك أن القرآن الكريم هو القانون الديني والمدني ، وهو دستور الدولة العربية الاسلامية .

تحدث ابن خلدون في مقدمته عن المجتمع البشري ووقف على ميوله وخصائصه ، ورأى أن السياسة الدينية هي السياسة المثلى التي تعود بالخير على البشر ، وتؤدي الى سعادة المجتمع في جميع أحوالهم من عبادة أو معاملة

---

١ – جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ١ ص ١٢٧ .

حتى في الملك الذي هو طبيعي للاجتماع الانساني . ويرى ابن خلدون أن الحكومة الدينية هي خير أنواع الحكومات اذ ان غايتها هي المصلحة العامة ومنفعة المجتمع ، وان الحياة الدنيا يجب أن تتخذ وسيلة للحياة الآخرة . وأما القوانين التي تصدر من عند الله فهي خير ما يضمن سعادة الانسان في الدنيا والآخرة . ويرى ابن خلدون أن الخلافة وكالة عن النبي في السلطة السياسية والدينية ، ولا يمتاز الخليفة عن عامة المسلمين الا من حيث كونه منفذاً للأحكام وحارساً للدين .

الخلافة في القرآن الكريم :

في القرآن الكريم آيات قرآنية تعبر عن الخلافة بعبارات عامة ليس فيها تخصيص أو تحديد . من هذه الآيات الكريمة آية وردت في سورة النور وهي : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم » ، ومنها أيضاً من سورة الأنعام : « وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم » . واستعملت كلمة « خليفة » استعمالاً متشابهاً ، وبمعنى أضيق حينما وبخ الله سبحانه وتعالى قبيلة عاد على شركها وكفرها برسالة هود ، وهو النبي الذي بعثه اليها ، فيقول هود لقومه : « أوَعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ، واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح »[1] .

وهذه الآية الكريمة تبين أن هذه القبيلة فازت بالنعم التي تمتع بها قوم نوح من قبلهم . وهناك آية كريمة أخرى تحدثنا عن نبي آخر هو صالح الذي رفض قومه ، وهم قبيلة ثمود ، الايمان به ، فيدعو هؤلاء المشركين العرب

---

١ — سورة الأعراف : ١٩ .

ليعترفوا بالبركات التي أرسلها الله لهم : « واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوّأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين » . وكلمة « خلفاء » هنا تدل على عدد من الناس ، وكلمة خليفة لا يمكن شرحها متصلة مع الخليفة المعروف في التاريخ الاسلامي ، رئيس الجماعة الاسلامية (١) .

جاء في الآية ٢٦ من سورة ص : « يا داود انا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » . وجاء في الآية ٣٠ من سورة البقرة : « واذ قال ربك للملائكة : اني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا : اتجعل فيها من يفسد فيها ؟ » .

ولكن كلمة « خليفة » التي وردت في هاتين الآيتين لا يقصد منها معنى الحكم وهو الذي فسرت به فيما بعد . فأما تسميته « اماماً » فتشبيهاً بامام الصلاة في اتباعه والاقتداء به ، ولهذا يقال الامامة الكبرى . وأما تسميته « خليفة » فلكونه يخلف النبي في أمته ، فيقال خليفة ، باطلاق ، وخليفة رسول الله ،واختلف في تسميته خليفة الله ، وأجازه بعضهم اقتباساً من الخلافة العامة التي للآدميين في قوله تعالى : « اني جاعل في الأرض خليفة » ، وقوله عز وجل : وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ، ومنع الجمهور عنه . وقد نهى أبو بكر عنه لما دعي به وقال : لست خليفة الله ولكني خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولأن الاستخلاف انما هو في حق الغائب ، وأما الحاضر فــلا (٢) .

أعلن الله سبحانه وتعالى للملائكة أنه سيخلق آدم فقال : « واذ قال ربك للملائكة : اني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها

---

١ — ارنولد : الخلافة ص ٢٢ .
٢ — حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ١ ص ٤٢٨ .

ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك »[1] .

وقد أثارت هذه الآية كثيراً من جدال الفقهاء ، وكأن كلمة خليفة تعني هنا شيئاً ما أكثر من مجرد خلف ، بينما يقول بعض الفقهاء انه عندما اعلن الله عن نيته في خلق آدم دعاه خليفة ، لأن آدم كان خليفة الملائكة الذين اعتادوا أن يعيشوا على الأرض قبل خلق الانسان ، ولكن بعض الفقهاء يفسرون كلمة (خليفة) بمعنى وكيل ونائب وبديل وخلف بمعنى الذي يفوز بمنصب سام . وهكذا فانهم يذهبون الى أن آدم وداود سميا باسم خليفة اذ كان كل منهما على الأرض نائباً عن الله في هداية الناس وانذارهم بما أمر الله . ومن الواضح أن هذا التفسير يمكن استعماله لزيادة حرمة الخليفة وسلطته[2] .

يرى بعض المسلمين ، من المتأخرين طبعاً ، أن نصب الخليفة واجب اذا تركه المسلمون أثموا جميعاً ، وبعضهم يحاول تخفيف الاثم ولكنهم يجمعون على وجوب نصب الخليفة . وابن خلدون يقول في مقدمته ان هذا ما انعقد عليه الاجماع ، والدليل على ذلك اجماع الصحابة بعد وفاة رسول الله على بيعة أبي بكر ، ثم اختيار أبي بكر لعمر ، ثم عهد عمر لأهل الشورى باختيار خليفة منهم . ولكن الشيء الواقع هو أن أحداً من العلماء لا يستطيع أن يقيم الدليل القاطع على وجوب ذلك بآية من القرآن الكريم ، ونريد طبعاً آية صريحة لا سبيل إلى الشك في مدلولها ومعناها .

والعلماء السابقون يقررون بانعدام نص في الكتاب بهذا المعنى ، ويردون الأمر كله الى الاجماع ، وإن كان القرآن لم يشر الى نظام الحكم الذي يخضع له المسلمون بعد وفاة محمد ، إلا أن القرآن يأمر المسلمين بأن يطيعوا أولي

---

١ — سورة البقرة : ٣٠ .
٢ — أرنولد : الخلافة ص ٢٢ .

الأمر ، فمن هذه الآيات : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » .

الخلافة في الأحاديث النبوية :

هناك بعض أحاديث نبوية تتناول الخلافة ، وقد استخدم الحديث النبوي كأساس للبحث المنسق لعقيدة الخلافة التي عرضت في مخطوطات علماء الدين الاسلامي وفقهائه . ومن المستحيل أن نحدد الزمن الحقيقي الذي ظهرت فيه هذه الأحاديث ، ولكن مما لا شك فيه أنها ظهرت لتبرير النظم السياسية التي سادت في القرنين الأول والثاني الهجريين والتي حازت رضا غالبية المسلمين .

تقرر الأحاديث أن الخليفة يجب أن يكون من قريش ، وهي القبيلة العربية التي ينتسب الرسول اليها ، وقد توافر هذا الشرط في الخلفاء الأمويين في دمشق والخلفاء العباسيين في بغداد والخلفاء الفاطميين في القاهرة ، وهذه الأحاديث تتفق في المعنى وان اختلفت في الألفاظ ، وهي : « الأئمة من قريش » ، « لا يزال على الناس والٍ من قريش » ، « الخلافة في قريش والحكم في الأنصار والدعوة في الحبشة » ، « الأئمة من قريش ، أبرارها أمراء ، وفجارها أمراء » ... الخ .

ولكننا نرى أن معظم هذه الأحاديث موضوع أو مدسوس على الرسول ، ونرى أنه كما أن ليس في القرآن نص على الخلافة والامامة فكذلك لا يوجد في الأحاديث النبوية نصٌ يعترف بوجود الخلافة أو الامامة العظمى بمعنى النيابة عن رسول الله والقيام مقامه من المسلمين .

نعم ورد في السنّة حديث بأن الخلافة في قريش وهي قبيلة النبي صلى الله عليه وسلم . فان صح هذا الحديث وجب حمله على أنه من باب الإخبار

بالغيب لا من باب الأمر باتخاذ الخلفاء من قريش خاصة ، أو حمله على أنها في قريش ما دامت قريش أقوى عناصر الأمة الاسلامية وأقدرها على حفظ كرامة الخلافة ، لأنه لو كان قصد النبي أن يكون الخلفاء من قريش لكان قال ذلك لجمهور الأنصار ، وهم القوم الذين ينتظر منهم الطموح إلى خلافة النبي ، ولما كانت الأنصار تلكأت في البيعة لأبي بكر بعد وفاة الرسول ، وقد كاد الخلاف يفضي الى خصام بين المهاجرين والأنصار .

ان الاسلام دين عام شرّعه الله ليجمع العالم كافة ، ولذلك لم يتعبدنا الا بما يدين له كل قلب انساني مما يحس به بالفطرة ، وقد محق الله فيه امتيازات الجنسيات والقرابات ، وقرر لنا وجوب احترام صوت الأمة واعتبار رأيها والرجوع إليها ، بقوله صلى الله عليه وسلم : « ما رآه المسلمون حسناً فهو حسن » ، فكيف يعقل أن ديناً هذا شأنه يحصر أمر خلافة الأرض في قبيلة واحدة ، قد تدور عليها الأدوار فتصبح أثراً بعد عين ، كما نرى في عصرنا هـــذا !؟

نص القرآن على أن الأيام يداولها الله بين الناس ، وما ارتفعت اليوم أمة إلا وانخفضت غداً ، وقريش ما خرجت عن دائرة البشر ، فهل يعقل أن الدين العام الذي أُنزل ليضم بين جناحيه الأبيض والأسود يعلق أمر الخلافة على قاعدة غير ثابتة ؟

وكما أن القرآن لم يعرض لمسألة الحكم بعد رسول الله ، فان الحديث لم يبحث أمر الخلافة بعد وفاة محمد ، ولكن رسول الله كان رسولاً وكان حاكماً سياسياً في الوقت نفسه ، فقضاؤه بين الناس ، وتعيينه بعض العمال ، وقيادته الجنود يمكن اعتبارها كلها من آثار الدولة ، ومظهراً من مظاهـــر الحكومة .

وهنا يحق لنا أن نتساءل : هل كان تأسيسه صلى الله عليه وسلم الدولة

العربية الاسلامية ، وقيامه ببعض أعمال الحكم السياسي فيها شيئاً خارجاً عن حدود رسالته ، أم كان جزءاً مما بعثه الله له ، وأوحى به اليه ؟

والكتّاب الأقدمون لم يعرضوا لهذه الناحية على الوجه الذي أشرنا اليه ، ولكن ابن خلدون[1] عرض لذلك ، بما يشير إلى أن الاسلام دون غيره من الملل الأخرى قد اختص بأنه جمع بين الدعوة الدينية وتنفيذها بالفعل ، وقد بينه بنوع خاص في الفصل الذي شرح فيه اسم البابا والبطرك عند النصارى .

بدأ نظام الخلافة بعد وفاة الرسول ، واستمر فترة طويلة ، واختلفت أشكال الخلافة ، فهي في عهد الخلفاء الراشدين انتخابية شورية ، وفي عهد الخلفاء الأمويين والعباسيين استبدادية وراثية ، فقد انعدمت الشورى وأصبح الانتخاب صورياً محضاً ، والتمس الفقهاء لتبرير ذلك سنداً من الأحاديث فنسبوا إلى الرسول أنه قال: « الخلافة بعدي أربعون سنة ، ثم تصير ملكاً عضوضاً » .

الخلافة والأمبراطورية الرومانية المقدسة :

ذهب كثير من المستشرقين يقولون ان الخلافة ونظامها يشابهان نظام الامبراطورية الرومانية المقدسة، الذي نشأ في أوروبا في العصور الوسطى ، وراح بعضهم يحاول التقريب بين النظامين ، والتأليف بين المذهبين ، ولكن الواقع أن الخلافة شيء والامبراطورية المقدسة شيء آخر ، وقد فطن الى الفوارق العظيمة بين المذهبين (توماس أرنولد)[2] فقال : « لما صرح البابا

---

١ — مقدمة ابن خلدون .
٢ — الخلافة ص ٢ .

اينوسنت الثالث بأن المسيح قد استودع بطرس الرسول شئون الكنيسة العالمية ، وحكم العالم كله أيضاً ، أعلن مذهب الدين العالمي الذي كانت تدعو اليه الكنيسة منذ نشأتها ، ومن هنا نشأت فكرة الأمبراطورية الرومانية المقدسة التي يكون الامبراطور فيها امبراطوراً عالمياً ، وحاكماً مرشداً لشئون المؤمنين الدنيوية بسلطات واسعة جداً حتى تعم سلطته العالم كله .

والاسلام دين عالمي ، يدعو جميع الناس الى الايمان بالله ورسوله ، أو يدفعون الجزية كشعوب خاضعة للسيادة الاسلامية التي يشرف عليها سياسياً ودينياً الخليفة .

ومع وجود فكرة أو مبدإ السيطرة العالمية بين المذهبين فانهما يختلفان فيما بينهما من حيث أن الأمبراطورية الرومانية المقدسة لم تكن مستحدثة الوجود ، وانما هي منبعثة عن امبراطورية وثنية سابقة ، كما نجد فيها حاكمين : أحدهما (زمني) وهو الامبراطور ، والآخر (روحي) وهو البابا ، وأما الخلافة فنظام مستحدث ووليد ظروف وأحوال نشأت عند وفاة رسول الله ، والخليفة الى ذلك حاكم سياسي وديني ، ولكن وظيفته الدينية لا تتعدى المحافظة على الشئون الدينية المقررة في الاسلام ، وليس له وظائف دينية كهذه التي ينعم بها البابا ، من عصمة وغفران للخطايا ، فان مثل هذه الأمور ليست من شأن الخليفة في كثير ولا قليل ، وانما هي شيء يتعلق بين المرء وربه ، والله وحده عند المسلمين يغفر ويصفح ويمحق الذنوب » .

وكان الخليفة يقوم بوظائف سياسية واسعة ، أما وظائفه الدينية فكانت محدودة جداً ، وخاصة في نظر المسلمين السنيين . أما الشيعة الذين يطلقون على الخليفة اسم (امام) فيرون أن الامامة ليست من المصالح العامة التي تفوض الى نظر الأمة ويتعين القائم بها بتعيينهم ، بل هي ركن الدين وقاعدة الاسلام ، ولا يجوز لنبي اغفاله ولا تفويضه إلى الأمة ، بل يجب تعيين الامام لهم ويكون

معصوماً من الكبائر والصغائر[1] .

وهكذا ، فان نظرية الشيعة في الامامة أوسع وأبعد مدى من نظرية السنّة، فهي عند الشيعة مقصورة على البيت العلوي ، متوارثة فيه ، وهي أصل من أصول الدين ، والامام معصوم في نظرهم . أما الخليفة عند أهل السنّة، فرجل من عامة المسلمين صار اختياره لهذا المنصب لفضله وشرفه وأخلاقه ومقدرته على الاضطلاع بأعباء الحكم ، اذ لا نص من رسول الله على خليفة .

ومعظم واجبات الخليفة التي انعقد عليها الاجماع كالصلاة بالمسلمين اماماً في المسجد مثلاً ، وقيامه فيهم خطيباً يوم الجمعة ، لا يستقل فيها وحده ، بل يستطيع أي مسلم القيام بها ، اذا رضيت به الجماعة الاسلامية ، ذلك أن الاسلام لا يعرف نظام الكهنوت ولا يقره ، وليس هناك فئة من المسلمين تستطيع القيام بعمل معين من أعمال الدين لا يستطيعه غيرها من المسلمين . والعلماء في الاسلام جماعة انصرفوا الى دراسة الشئون الدينية ، والعلوم الفقهية ، وليس لهم وظائف خاصة بين الناس ، وليس هناك نص في القرآن ولا سند في الحديث يجعلهم فئة خاصة ، لها امتيازاتها وحقوقها ، وانما هم جماعة انصرفوا لهذا العمل بملء ارادتهم ، واحترمهم الناس لعلمهم وفضلهم كما احترموا غيرهم من العلماء الذين حذقوا الفنون والعلوم والآداب وتخصصوا فيها ، لا لأنهم يؤلفون هيئة دينية خاصة ، تستحق هذا الاحترام والتقدير .

وما يقال في العلماء يقال في الأئمة الذين يصلون بالناس ، ويلقون الخطب الدينية يوم الجمعة ، أو يدرّسون في المساجد المختلفة ، فهؤلاء صار تعيينهم لهذه الوظائف — التي قد يستطيع القيام بها كل مسلم صالح لها — بعدما رئي

---

١ — مقدمة ابن خلدون ص ١٣٨ .

من المناسب اختيار أمثالهم ، ليكون المختار المكلف بهذه الأعمال حاضراً في المسجد وقت الصلاة ، فلا تتأخر الصلاة ريثما يختار المصلون من يصلي بهم اماماً . وكذلك الحال في القائم بخطبة يوم الجمعة ، فانها لما تحتاجه من استعداد سابق ، رئي أن يكلف بها شخص معين ، ليكون مستعداً لالقائها في أوقاتها ، ولا يمكن ترك الأمر للمصلين ، فقد لا يكون بينهم من هو على استعداد للخطابة والوعظ والارشاد في الوقت المعين .

واذن فالخلافة في الواقع — مع صفتها الدينية الضيقة — ليست وظيفة دينية بحيث تعطي الخليفة سلطة دينية ترفعه عن غيره من المسلمين .

وكذلك تختلف الخلافة عن الامبراطورية الرومانية المقدسة من حيث أن الأخيرة قد انهارت واندثرت ، وتم اندثارها ولفظت أنفاسها قبل أن يعلن نابليون في سنة ١٨٠٦ أنه لا يعترف بوجودها ، وليس هناك اليوم أحد في الدول الأوروبية يفكر في بعثها ، أما الخلافة فانها اذا لم تكن قائمة مثلاً عند المسلمين ، بعد أن تم الغاؤها في تركيا سنة ١٩٢٤ ، الا أنها مقدسة محترمة عند المسلمين ، وظل المسلمون بعد الغائها عدة سنوات يطالبون باحيائها .

أخطأ كثير من المستشرقين حين نادوا بوجود تشابه بين الخلافة والأمبراطورية الرومانية المقدسة ، ويرجع هذا الخطأ إلى أن هؤلاء المستشرقين نظروا إلى الخلافة نظرتهم الى البابوية ، وفي ذلك يقول أرنولد[١] : «وان العقيدة الاسلامية المتعلقة بالله وصفاته تختلف اختلافاً عظيماً عن الصفات الالهية في الدين المسيحي . فالاسلام يعتبر صفات الله شيئاً خاصاً بالله دون غيره من المخلوقات لا يشاركه فيها أحد ، ولا يتعلق ببعضها أحد ، وهي إلى ذلك تربط العلاقات بين المسلم وربه ارتباطاً يختلف كل الاختلاف عن العلاقات المقررة بين المسيحي والله في الدين المسيحي . والسُنَّة في الاسلام — وهي ما

---

١ – الخلافة ص ٢ – ٣ .

وافق عليه غالبية المسلمين – تقرر أن أحداً من المسلمين لا يستطيع أن يقول إنه أقرب إلى الله من غيره ، وكل المسلمين سواء في طاعة الله والانقياد لأوامره ونواهيه وتقديم العبودية له على وجه يخالف كل المخالفة ما عند غيرهم من ذلك .

وليس يوجد في الاسلام الى ذلك انفصال بين الدولة والدين كما يوجد في المسيحية ، وهو أمر كان سبباً في حدوث اختلافات عظيمة في المسيحية في القرون الماضية .

ولكن هذا لا يمنع ما كان يقوم به العلماء في الاسلام من وقت إلى آخر من انتقاد أعمال الخليفة حين يحيد عن العدل والانصاف ، ومطالبتهم إياه بالعودة إلى أوامر الله ونواهيه، لأن هذه الانتقادات لم تكن موجهة إلى رئيس الدولة من جماعة من الكهنة ، وانما كانت تصدر من جماعة من الدنيويين الى آخر مثلهم . ولكي نفهم نظام الخلافة يجب أن نعلم أن الخليفة موظف سياسي قبل أن يكون موظفاً دينياً ، وأن الواجبات الدينية الملقاة على عاتقه لا تعطيه حقوقاً دينية أو روحية تجعله يمتاز بها عن غيره من المسلمين » .

قارن أحد الكتّاب المسلمين[1] بين نظام الدولة الاسلامية في ظل الخلافة ، ونظام الجمهورية في دول الغرب ، وهو النظام السائد المعروف اليوم في العالم ، فذكر أن نظرية الغرب السياسية تقول بحاكمية الجمهور ، والاسلام يقول بخلافة الجمهور ، اذ ان حقوق الحكم والأمر في الجمهورية الغربية يستبد بها الجمهور ، وهم الذين يمتلكون ناصيتها ، فيسنون وينفذون في الأرض ما يشاءون من القوانين والشرائع ، وان قصارى ما تهدف اليه حكومتهم انما هو ارضاء عامة السكان وجلب تأييدهم وقضاء مشيئتهم .

والاسلام ، بخلاف ذلك ، ليس الحكم والأمر فيه إلاّ لله وحده ،

---

١ – المودودي : نظام الحياة في الإسلام ص ٢٩ – ٣٠ .

فهو الذي يستأثر بحق وضع القانون والشريعة لعباده من غير مشارك ولا منازع ، أما الجمهور فليست منزلتهم في الاسلام الا كمنزلة الخلفاء الذين يضطرون بطبيعة منزلتهم أن يقتفوا آثار الشريعة الالهية التي جاء بها الرسول من عند ربهم ، ولا تكون غاية من شكلوها وألفوها من الجمهور الا ابتغاء وجه الله تعالى وتنفيذ أمره في أرضه .

شروط اختيار الخليفة :

اشترط الفقهاء في اختيار الخليفة أن يكون متصفاً بعدة صفات[1] :

ا) أن يكون عالماً علماً يكفيه في تحصيل الاجتهاد بنفسه في كل الأمور ، حتى ينفرد برأيه عن هدى وصواب واستدلال ، لأن التقليد والخضوع لرأي الغير نقص ، فالامارة تقتضي الكمال .

ب) العدل والنزاهة ، ويراد بالعدالة أن يكون الخليفة صاحب استقامة في السيرة والسلوك متجنباً للمعاصي ، فيقول ابن خلدون[2] : « ولا خلاف في انتفاء العدالة فيه بفسق الجوارح من ارتكاب المحظورات وأمثالها ، وفي انتفائها بالبدع الاعتقادية خلاف » .

ج) الكفاية ، أي أن يكون الخليفة جريئاً على اقامة الحدود واقتحام الحروب ، بصيراً بها ، كفيلاً بحمل الناس عليها ، عارفاً بالدهاء ، قوياً على معاناة

---

١ – قال الماوردي (الأحكام السلطانية ص ٤ – ٥) : « أما أهل الامامة فالشروط المعتبرة فيهم سبعة : احدها : العدالة على شروطها الجامعة ، والثاني : العلم المؤدي الى الاجتهاد في النوازل والأحكام ، والثالث : سلامة الحواس من السمع والبصر واللسان ليصح معها مباشرة ما يدرك بها ، والرابع : سلامة الأعضاء من نقص يمنع من استيفاء الحركة وسرعة النهوض ، والخامس : الرأي المفضي الى سياسة الرعية ، وتدبير المصالح ، والسادس : الشجاعة والنجدة المؤدية الى حماية البيضة وجهاد العدو ، والسابع : النسب وهو أن يكون من قريش ».

٢ – ابن خلدون ، المقدمة ص ١٥٢ .

السياسة ، ليصبح له بذلك ما جعل له من حماية الدين وجهاد العدو ، واقامة الأحكام وتدبير المصالح .

د) سلامة الحواس والأعضاء من النقص مما يؤثر في عمله[1] .

أضاف بعض الفقهاء شرطاً آخر ، فاشترطوا أن يكون الخليفة قرشي النسب ، ويدللون على رأيهم بما حدث يوم السقيفة ، حينما أراد الأنصار أن يبايعوا لسعد بن عبادة ، بينما تمسك المهاجرون باختيار أبي بكر مستندين الى أحاديث نبوية تذهب كلها إلى ضرورة كون الأئمة من قريش .

وان كان بعض الفقهاء يحتّمون كون الخليفة قرشي النسب ، فان بعضهم يضع لذلك شروطاً ، مستندين إلى أحاديث نبوية ، معظمها موضوعة وليست صحيحة ، منها : « الأئمة من قريش ما حكموا فعدلوا ، ووعدوا فوفوا ، واسترحموا فرحموا » .

ومما أيّد تلك الأحاديث الموضوعة عن ضرورة انتساب الخليفة إلى قريش ، أن هذا الشرط كان مرعياً كل الرعاية في سائر أحوال الدولة الاسلامية ، والخلافة لم يتطلبها غير القرشيين فقط ، ورغم ضعف الخلفاء العباسيين في أواخر العصر العباسي الثاني ، وضياع هيبتهم ، واستبداد الأمراء بالسلطة وتجريدهم للخلفاء من كل قوة دينية ، ورغم أن هؤلاء استقلوا ببعض أجزاء الدولة العباسية ، وكونوا فيها دولاً مستقلة ، الا أنهم لقبوا أنفسهم بالسلاطين ، ولم يخطر لأحد منهم أن يدعي الخلافة أو ينصب نفسه خليفة .

فسلاطين دول بني بويه والسلاجقة والغزنوية والطاهرية والأيوبية وغيرهم ، قد استقلوا بالدول التي أسسوها ، وفيهم من غلب على الخلفاء ، ولكنهم لم يسموا أنفسهم الا سلاطين ، بل كانوا يتزلفون الى الخلفاء ليثبتوهم في الحكم . وكذلك فعل صلاح الدين الأيوبي في مصر ، فرغم نجاحه في القضاء

---

١ — انظر كتاب الخلافة بالفرنسية للسنهوري ص ١٥٢ .

على الدولة الفاطمية وتوليه السلطة الفعلية ، الا أنه لم يسم نفسه خليفة مكتفياً بلقب سلطان ، ودعا على المنابر للخليفة العباسي . وكان أول من تولى الخلافة الاسلامية من غير قريش السلطان العثماني سليم الأول[1] .

ورأى فريق ثالث من الفقهاء أن الخلافة من حق كل مسلم ، على أن يكون ذا عصبية أي ذا قوة قديمة أو مستحدثة ، أدبية أو مادية ، يستمدها من نفسه أو من جنسه أو من عصبيته ، ويعتمدون في رأيهم على أنه ليس في الاسلام تفضيل لعربي على عجمي من المسلمين إلاّ بالتقوى والعمل الصالح ، فاذا كان الاسلام يمنع المفاضلة بين العربي والعجمي ، فمن المفروض أن يمنعها بين العربي والعربي .

وفي رأينا أن كل مسلم يستطيع أن يكون خليفة اذا توافرت فيه الشروط الأربعة التي ذكرناها آنفاً ، وهي العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والأعضاء ، وقرر المسلمون انتخابه . والاسلام الدين المتواضع ، أبعد الأديان عن التحيز ، وتفضيل جماعة على أخرى من المسلمين ، وخاصة أن الله سبحانه وتعالى لم يرسل رسوله الى قريش دون غيرها ، وانما أرسله هادياً ونذيراً الى البشر عامة .

والاسلام لا ينوط أمر الخلافة بفرد من الأفراد أو بيت من البيوتات أو طبقة من الطبقات ، بل يفوض أمرها إلى جميع أفراد المجتمع الذي يؤمن بالمبادىء الأساسية ويظهر كفاءته واستعداده للقيام بكل ما تنطوي عليه كلمة (الخلافة) وتقتضيه . فإذا وجد في الدنيا مجتمع متصف بهذه الصفات ، فلا ريب أنه جدير بالخلافة . فكل واحد من أفراد المجتمع الاسلامي له نصيب من الخلافة وحق التمتع بها ، وهذه الحقوق سواء فيها جميع أفراد المجتمع

---

١ – جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ج ١ ص ١٢٨ .

كأسنان المشط لا يحل لأحد أن يحرم هذه الحقوق من شاء الله من أفـــراد المجتمع[1] .

حقوق الخليفــة :

الخليفة هو الرئيس الأعلى للدين والدولة ، فيتولى شئون الامامة الكبرى ، وهي الصلاة والقضاء والجهاد والحسبة ، له الهيمنة على كل صغيرة وكبيرة ، وله الحق في عقد المعاهدات واعلان الحروب ، وله أن يولي من يشاء ويعزل من يشاء ، وله أن يتصرف في أقدار المسلمين حيث بايعوه على أن يسلموا اليه النظر في أمورهم وأمر المسلمين ، لا ينازعونه في شيء من ذلك ويطيعونه فيما يكلفهم به من الأمر ، الا أمراً ضد أحكام الدين ، « فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » .

وللخليفة الحق في الاستشارة ، وعلى من طلبت منه المشورة أن يشير ، وللخليفة ألا يأخذ بما يشار به عليه ، ولكن غالباً اذا كانت عن دليل أخذ بها .

ومن حق الخليفة أن ينفرد برأيه حتى ولو كان جميع المسلمين عامـــة وخاصة ضد رأيه ، أو كان أهل الحل والعقد من المسلمين يناقضونه فكرته ، وذلك كما حصل فعلاً مع أبي بكر حين أراد محاربة العرب جميعاً عندما منعت الزكاة ، وخالفه في ذلك كل الصحابة حتى عمر بن الخطاب ، وزيره ومستشاره ، فلم يعبأ برأيهم وأنفذ رأيه .

وليس هذا بظلم أو تعسف أو خيانة ، ولكن الخيانة الكبرى والجريمة التي لا تغتفر هي أن ينفذ الحاكم رأياً يختلف مع رأيه هو ، وألا ينفذ رأياً كونه هو لا كفرد من عامة المسلمين أو خاصتهم ، لكن كحاكم مسئول

---

١ – المودودي : نظام الحياة في الإسلام ص ٢٨ – ٢٩ .

عن حسن القيادة لأمته ، أمام ضميرها وأمام الله وأمام العالم أجمع وأمـام التاريخ الذي لا يرحم .

ولذا فان أبا بكر لم يخطىء في حق الأمة التي أسلمته قيادها ، اذ هي أعطته ثقتها مدى الحياة ، فهو الخبير المطلع كحاكم مسئول فلا يقبل منـــه الاسلام أن يلقي المسئولية على غيره ، اذ هو مجتهد فيجب ألا يقلد غيره – هذا اذا لم يقتنع برأي ذلك الغير – والا حكم على نفسه بأنه غير أهـل للامامة والقيادة ، اذ من شروطها الأساسية العلم الذي ينتج الاجتهاد ، وليؤسس عليه رأيه وفكره ، لأن الامام أعطي هذا المنصب ليقود لا ليقاد ، وفي الوقت الذي يشعر فيه بالعجز عن تكوين الرأي وتجميع الفكر ، يجب عليه أن يستقيل ، فيترك المسئولية لغيره ، ويلقي عبئها على سواه بدلاً من أن يحكم البلاد تحت ستار اسمه .

ومن حق الخليفة أن يحكم مدى الحياة ، حتى يأمن تملق الشعب ومداهنته لينتخب ثانية ، فلا يعمل العمل السريع الانتاج ليرضي الشعب ، ويترك العمل الأكثر نفعاً ودواماً وصلاحية ، لأنه قد يحتاج إلى عشرات السنين ، وقيادة الأمم تتطلب غير هذا ، اذ الحاكم يجب عليه أن ينظر إلى الشعب كمجموعة عامة ، يفعل ما يراه صالحاً للشعب طال أو قصر زمن الانتاج ، رضي بعض الأفراد أو غضبوا .

وللخليفة الحق في أن يختار للولاية من يشاء من العمال ، ويعزل من يشاء حتى في أحرج الأوقات . فقد عزل عمر بن الخطاب حين ولي الخلافة خالد ابن الوليد ، وولى أبا عبيدة مكانه ليتم فتح بلاد الشام .

هذا العامل الذي يختاره الخليفة هو صورة مصغرة من الحاكم العام في سلطته فليس له من دستور إلا القرآن والسنّة ، وفعل الصحابة ورأيه ووصية الخليفة .

فقد كان عمر اذا استعمل عاملاً كتب له عهداً وأشهد عليه رهطاً من

المهاجرين والأنصار ، واشترط عليه ألا يركب برذوناً ولا يأكل نقياً ولا يلبس رقيقاً ، ولا يتخذ باباً دون حاجات الناس .

ولهذا العامل أن يستشير الخليفة أو أهل الحل والعقد من مسلمي بلده أو اقليمه أو مجتهديهم . واذا أراد الخليفة شيئاً بناء على رغبة منه ، أو بناء على استشارة العامل له ، ولم يوافق عليه هذا العامل بعد بيان الأسباب من الحاكم العام ، فلا يجد مناصاً اذا احترم نفسه من الاستقالة لأنه لا يمكنه أن ينفذ شيئاً هو مقتنع بخطئه فيه ، فيحرم من الثواب المعنوي ، والأجر الديني الذي تطوع فقبل الحكم لأجله .

ذكر الماوردي في كتابه الأحكام السلطانية[1] ، أن الخليفة ما دام يؤدي واجبه ، فله على أمته حقان : الطاعة والنصرة .

واجبـــات الخليفـــة :

ذكر الماوردي[2] أن على الخليفة عشرة واجبات هي : « أحدها : حفظ الدين على أصوله المستقرة ، وما أجمع عليه سلف الأمة : فان نجم مبتدع أو زاغ ذو شبهة عنه ، أوضح له الحجة ، وبين له الصواب ، وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود ، ليكون الدين محروساً من خلل ، والأمة ممنوعة من زلل . والثاني : تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين وقطع الخصام بين المتنازعين ، حتى تعم النصفة ، فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم . والثالث : حماية البيضة ، والذب عن الحريم ليتصرف الناس في المعايش وينتشروا في الأسفار آمنين من تغرير بنفس أو مال . والرابع : اقامة الحدود لتصان محارم الله تعالى عن الانتهاك ، وتحفظ حقوق عباده من اتلاف واستهلاك . والخامس :

---

١ – ص ١٦ .
٢ – الأحكام السلطانية ص ١٥ .

تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة حتى لا تظهر الأعداء بغرة ينتهكون فيها محرماً ، أو يسفكون فيها لمسلم أو معاهد دماً . والسادس : جهاد من عاند الاسلام بعد الدعوة حتى يسلم أو يدخل في الذمة ليقام بحق الله تعالى في اظهاره على الدين كله . والسابع : جباية الفيء والصدقات على ما أوجبه الشرع نصاً واجتهاداً من غير خوف ولا عسف . والثامن : تقدير العطايا وما يستحق في بيت المال من غير سرف ولا تقتير ودفعه في وقته لا تقديم فيه ولا تأخير . والتاسع : استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء فيما يفوضه اليهم من الأعمال ويكله اليهم من الأموال ، لتكون الأعمال بالكفاءة مضبوطة ، والأموال بالأمناء محفوظة. والعاشر : أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور وتصفح الأحوال ، لينهض بسياسة الأمة ، وحراسة الملة ، ولا يعول على التفويض تشاغلاً بلذة أو عبادة ، فقد يخون الأمين ويغش الناصح » .

ألقاب الخليفـة :

أُطلق على الخليفة ثلاثة ألقاب : (الخليفة) و (أمير المؤمنين) و (الامام). أما لقب الخليفة فقد ورد في القرآن أكثر من مرة ، ولكنه لم يرد بالمعنى الذي صار استعماله في عهد الدولة الاسلامية ، وأول من استعمل هذا اللقب الخليفة الأول أبو بكر .

كان يطلق على أبي بكر لقب (خليفة رسول الله) باعتبار أنه خلف الرسول في منصبه الزمني والرياسة الروحية للمسلمين . فلما ولي عمر كانوا يخاطبونه أول الأمر قائلين : (يا خليفة خليفة رسول الله) ، وكان هذا اللقب ثقيلاً على الآذان ، فدعت الحاجة الى استعمال لقب آخر أسهل وأفضل فاستعملوا (أمير المؤمنين) وعمر بن الخطاب أول من لقب بذلك من الخلفاء ، وان كان عبد الله بن جحش ، أحد المسلمين الأولين ، والذي قتل في موقعة أُحد سنة ٣ هـ ، قد تلقب به .

وقد تردد عمر في قبول هذا اللقب أول الأمر، لما فيه من الزهو والخيلاء، ثم ارتضاه وقبله حين لم يجد أفضل منه.

كما أنه يدل على أن المؤمنين قد استفحل أمرهم، حتى أصبحوا قوة وولوا إمرتهم لأمير منهم، وكان العرب قبل الاسلام يطلقون لقب أمير على (قائد الجيش) وكان هذا اللقب ملائماً لظروف الدولة العربية الاسلامية السائدة في ذلك الحين، فقد كانت الجيوش العربية تغزو أملاك الأمبراطوريتين الفارسية والرومانية.

أما كلمة (امام) فقد وردت في القرآن الكريم، وكانت تعني في أول الأمر ما تعنيه كلمة (خليفة)، ولم تستعمل عند أهل السنّة الا قليلاً، بينما استعملها الشيعة أكثر منهم، فأطلقوها على أئمتهم من ولد علي بن أبي طالب وفاطمة بنت محمد.

جاء في سورة الأنبياء هذه الآية الكريمة: «وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات»، ويقصد بكلمة (امام) في هذه الآية (الزعيم) أو (الرئيس)، وكان الرسول يؤم المسلمين في صلاتهم باعتباره زعيماً لهم ورئيس دولتهم، وكانت إنابة الرسول لأبي بكر بالصلاة بالمسلمين خلال مرضه من الأسباب الرئيسية لاقبال المسلمين على بيعته، وكان معظم الخلفاء إلى عصر متأخر، يحرصون على الصلاة بالناس، وكانت هذه الوظيفة من أجلّ أعمال الخليفة.

ذكر السير توماس أرنولد أنه كان يمكن تسمية الخلفاء الأولين بأحد هذه الألقاب: خليفة أو أمير المؤمنين أو إمام، وكل منها كان لقباً لشخص واحد، لكن لقب الخليفة كان يؤكد اتصال الخليفة بالرسول، فتبرر هذه الخلافة حقه في طاعة المسلمين له. واللقب الثاني يدل على تقلده السلطات باعتباره القائد الأعلى في الحرب ورئيس الادارة المدنية. واللقب الثالث (الامام) يوضح الوظيفة الدينية.

امتيازات الخلافـــة :

كانت هناك عدة امتيازات امتاز بها الخلفاء وحرصوا على المحافظة عليها ، حتى في أوقات الضعف وضياع سلطة الخلافة ، بعضها امتيازات عملية مثل البيعة، والخطبة، والسكة ، وبعضها امتيازات شكلية مثل البردة، والخاتم ، والقضيب ، والطراز .

أولاً : البيعة : البيعة هي العهد على الطاعة . فاذا بايع الرجل أميراً كأنه عاهد وسلم اليه النظر في أمر نفسه لا ينازعه في شيء من ذلك ، وأنه يطيعه فيما كلفه به من الأمر على ما يحب وما يكره . وكان العرب اذا بايعوا أميراً جعلوا أيديهم في يده ، تأكيداً للعهد بما يشبه فعل البائع والمشتري ، فسمي « بيعة » مصدر « باع »[1] .

قال ابن خلدون[2] : « وصارت البيعة مصافحة بالأيدي . هذا مداولها في عرف اللغة ومعهود الشرع ، وهو المراد في الحديث في بيعة النبي صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة ، وعند الشجرة ، وحينما ورد هذا اللفظ ، ومنه بيعة الخلفاء ، ومنه أيمان البيعة ، كان الخلفاء يستحلفون على العهد ويستوعبون الأيمان كلها لذلك ، فسمي هذا الاستيعاب أيمان البيعة ، وكان الاكراه فيها أكثر وأغلب ، ولهذا لما أفتى مالك ، رضي الله عنه ، بسقوط يمين الاكراه أنكرها الولاة عليه ، ورأوها فادحة في أيمان البيعة ووقع ما وقع من محنة الامام رضي الله عنه » .

ثانياً : الخطبة : أبرز امتيازات الخليفة الدعاء له على جميع المنابر في أرجاء الدولة الاسلامية ، وأصل هذه العادة أن الخلفاء كانوا يؤمون المسلمين في الصلاة ، فكانوا يختمون صلاتهم بالدعاء للرسول وحمايته ، فلما اتسعت

---

١ — جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ١ ، ص ١٣١ .
٢ — المقدمة ج ٢ ص ٣٧٦ (طبعة لبنان) .

الدولة الاسلامية وقام الولاة بامامة المسلمين في الصلاة صاروا يدعون للخلفاء ، وأصبح هذا الدعاء للخلفاء عادة متبعة . وحرص الخلفاء — وخاصة في أوقات ضعف الخلافة — على الدعاء لهم ، إذ ان ذلك دليل على امتداد نفوذ الخليفة إلى هذه البلاد التي يدعى له على منابرها ، حتى ولو كانت سلطته شكلية .

ثالثاً : السكة : حرص كل خليفة على أن ينقش اسمه على السكة ، باعتبار أن ذلك من مظاهر قيامه بالحكم واحتفاظه بالسلطة . وهناك خلاف حول أول من قام بنقش اسمه من الخلفاء . وان كان المقريزي يذكر أن أول من ضرب النقود في الاسلام عمر بن الخطاب سنة ١٨ هـ . ونقش عليها « الحمد لله محمد رسول الله . ولا اله الا هو » . ونقش أيضاً اسمه « عمر »[1] .

رابعاً : البردة : كان للرسول بردة ظل يرتديها حتى منحها للشاعر كعب ابن زهير بن أبي سلمى مكافأة له على قصيدة عصماء مدح بها الرسول ، ومطلعها : « بانت سعاد فقلبي اليوم متبول » بعد أن تاب عن هجاء الرسول ، وظل أهل كعب يتوارثون البردة حتى اشتراها منهم الخليفة معاوية بن أبي سفيان بأربعين ألف درهم . واحتفظ بها الخلفاء الأمويون ، حتى اذا قامت الخلافة العباسية انتقلت البردة الى الخلفاء العباسيين إلى أن سقطت دولتهم . ويذهب بعض المؤرخين إلى أن المغول استولوا على البردة . بينما يرى البعض الآخر أن الأمراء العباسيين الذين فروا إلى القاهرة قد حملوا البردة معهم ، فاحتفظ بها الخلفاء العباسيون الذين قاموا في القاهرة في ظل المماليك حتى استولى عليها السلطان سليم الأول بعد فتحه مصر .

خامساً : الخاتم : كان للرسول خاتم من فضة نقش عليه : « محمد رسول الله » صاغه حينما كتب كتابه المشهور إلى كسرى فارس يدعوه الى اعتناق الاسلام ، فقد كان الفرس لا يقبلون كتباً رسمية الا وعليها الخاتم . ونقش

---

١ — الكرملي : النقود العربية ص ٩٢ .

الرسول به سائر كتبه الى ملوك الدول ورؤسائها . ثم توارث الخاتم خلفاء الرسول الثلاثة : أبو بكر وعمر وعثمان ، حتى وقع من عثمان في بئر أريس ، فصاغ عثمان خاتماً جديداً واستن سائر الخلفاء سنة عثمان .

ولم يكن الخلفاء ينقشون على خواتمهم اسماءهم ، ولكنهم كانوا ينقشون عليها بعض الحكم والمواعظ ، فقد كان نقش خاتم أبي بكر : « نعم القادر الله » ، وخاتم عمر : « كفى بالموت واعظاً يا عمر » ، وخاتم عثمان : « لتصبرن أو لتندمن » ، وخاتم علي : « الملك لله » ، وجرى على نحو ذلك خلفاء بني أمية وبني العباس ، ولكل منهم فقرة خاصة نقشها على خاتمه ، والغالب أن يكون بينها وبين اسمه مناسبة معنوية . فقد كان نقش خاتم المأمون : « عبد الله يؤمن بالله مخلصاً » ، وخاتم الواثق : « الله ثقة الواثق » ، وخاتم المتوكل : « على الله توكلت » ، والمعتمد : « اعتمادي على الله هو حسبي »[1] .

سادساً : القضيب : حرص كل خليفة على الاحتفاظ بالقضيب باعتباره علامة من علامات الخلافة ، وتوارثه الخلفاء الأمويون والعباسيون .

سابعاً : الطراز : اقتبس الخلفاء نظام الطراز عن الفرس والروم ، وكان أول من عرف هذا النظام الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ، فكان الخلفاء يطرزون ثيابهم بأسمائهم أو علامات مميزة لهم ، وكان الجنود وكبار رجال الدولة يطرزون على ثيابهم شارات الخليفة واسمه ، وأنشأ الخلفاء للطراز دوراً في قصورهم تسمى « دور الطراز » .

أعوان الخليفة :

لم يكن للخلفاء الراشدين أعوان معينون ، ولا وزراء مستشارون في أول الامر ، وكان الخليفة الأول أبو بكر يستشير أصحاب رسول الله في كل ما

١ — جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ١ ص ١٣٨ .

يعرض له من امور الدولة ، كما كان يفعل محمد قبله ، فقد ثبت أن رسول الله كان يشاور أصحابه في الأمور العامة والخاصة ، وكان يشاور أبا بكر في أمور أخرى ، حتى إن العرب الذين اختلطوا مع الفرس والروم قبل الاسلام ، وعرفوا اسم الوزير منهم ، كانوا يسمون أبا بكر وزير النبي صلى الله عليه وسلم .

ولكن لفظ الوزير لم يكن معروفاً عند العرب في ذلك العصر ، لبساطة الاسلام وبُعده عن أبهة الملك [1] .

وفعل عمر بن الخطاب مثل أبي بكر ، فقد كان يشاور أصحابه في مختلف الأمور التي تعرض له من شئون الدولة الجديدة ، وكذلك كان شأن عثمان وعلي بعدهما . ولما أفضت الخلافة الى بني امية اتخذوا المستشارين من رجالات دولتهم وانصارهم . ومع ان احداً في عهدهم لم يلقب بوزير الخليفة ، الا اننا نجد زياد بن ابيه والي العراق يطلق عليه لقب وزير معاوية . فعندما اراد معاوية ان يولي عهده ابنه يزيد كتب إلى زياد يستشيره ، فنصحه زياد بالعدول عن هذه الفكرة ، فسكت معاوية عن تنفيذ فكرته حتى توفي زياد .

أما نظام الوزارة ، فهو نظام فارسي الأصل ، عرفه بنو اسرائيل ، كما عرفه ملوك الدولة الساسانية الفارسية . و « الوزير » كلمة مشتقة من « الوِزْر » وهو الثقل ، لأن الوزير يحمل أعباء الحكومة . أو من الوَزَر (بفتح الواو والزاي) وهو الملجأ والمعتصم ، بمعنى انه يلجأ اليه ويرجع إلى رأيه وتدبيره [2] .

لم يظهر نظام الوزارة بمعناه المعروف الا في العصر العباسي ، فقد اقتبس الخلفاء العباسيون — ضمن ما اقتبسوه عن الفرس — نظام الوزارة . قال ابن خلدون [3] : « فلما جاءت دولة بني العباس ، واستفحل الملك

---

١ — مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٨ .

٢ — الفخري ص ١٣٧ .

٣ — المقدمة ص ٢٠٧ .

وعظمت مراتبه وارتفعت ، عظم شأن الوزير ، وصارت اليه النيابة في انفاذ الحل والعقد ، وتعينت مرتبته في الدولة ، وعنت لها الوجوه ، وخضعت لها الرقاب ، وجعل لها النظر في ديوان الحسبان ، لما تحتاج اليه خطته من قسم الاعطيات في الجند ، فاحتاج الى النظر في جمعه وتفريقه ، واضيف اليه النظر فيه ، ثم جعل له النظر في القلم والترسيل لصون اسرار السلطان ، ولحفظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور ، وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الذياع والشياع ، ودفع اليه . فصار اسم الوزير جامعاً لخطتي السيف والقلم ، وسائر معاني الوزارة والمعاونة ، حتى لقد دعي جعفر بن يحيي بالسلطان ايام الرشيد ، اشارة إلى عموم نظره وقيامه بالدولة ، ولم يخرج عنه من الرتب السلطانية كلها الا الحجابة ، التي هي القيام على الباب ، فلم تكن له لاستنكافه عن مثل ذلك » .

كانت الوزارة في العصر العباسي على ضربين : وزارة تنفيذ ، فتكون مهمة الوزير تنفيذ أوامر الخليفة دون الاستئثار بالرأي والسلطة ، بل كان يعرض أمور الدولة على الخليفة ويعمل بما يشير الخليفة به ، فكان الوزير واسطة بين الخليفة ورعيته . أما وزارة التفويض ، فهي أن يفوض الخليفة إلى أحد رجاله المخلصين جميع شئون الدولة فيأمر فيها وينهى دون تدخل الخليفة[1] .

والى جانب الوزير كان هناك اعوان آخرون للخليفة . ويرى ابن خلدون[2] ان ابرز اعوان الخليفة أربعة هم : الوزير ، والكاتب ، وصاحب الجباية ، والحاجب ، فيقول : ان احوال السلطان وتصرفاته لا تعدو اربعة ، لأنها اما أن تكون في امور حماية الكافة وأسبابها من النظر في الجند والسلاح والحروب ،

---

١ – الماوردي : الأحكام السلطانية ص ٢١ وما بعدها .
٢ – المقدمة ص ٢٠٥ .

وسائر امور الحماية والمطالبة ، وصاحب هذا هو الوزير المتعارف في الدول القديمة بالمشرق ، ولهذا العهد بالمغرب . واما ان تكون في امور مخاطباته لمن بعد عنه في المكان أو في الزمان ، وتنفيذه الأوامر فيمن هو محجوب عنه ، وصاحب هذا هو الكاتب . واما ان تكون في امور جباية المال وانفاقه ، وضبط ذلك من جميع وجوهه ان يكون بمضيعة ، وصاحب هذا هو صاحب المال والجباية . واما ان تكون في مدافعة الناس ذوي الحاجات عنه ، ان يزدحموا عليه فيشغلوه عن فهمه ، وهذا راجع لصاحب الباب الذي يحجبه .

٣ . الخلافة في ميزان الاحزاب الاسلامية

كيف يختار الخليفة :

الخليفة هو حاكم المسلمين . والحاكم الصالح هو من يتزعم الشعب لا لقوته وبطشه ، ولا لعنصره وماله فقط ، وانما الحاكم الصالح للحكم هو الذي يقود الشعب لصلاحيته للزعامة ، ولسهره على سعادة المحكومين ، ولو كان اضعفهم جسماً وأقلهم مالاً وعصبية .

ولكن كيف يختار هذا الحاكم ؟ هل يشترك في اختياره كل عامة الشعب ؟ أو هل تشترك في اختيار الحاكم الطبقة الممتازة ؟ أو هل تشترك في اختياره الطبقة الراشدة من الأمة لا غير ؟ او هل تشترك في اختياره الجماعة المستنيرة من اهل الحل والعقد ، المطلعة على اسرار الأحوال العامة ، داخلية ، وخارجية ، الخبيرة ببواطن السياسة وظواهرها ، الغيورة على مصالح الأمة ؟ فيختارون لزعامتهم شخصاً يؤمنون بصلاحيته . ويعتقدون بوجوب طاعته ، حيث انه أهل لقيادتهم ، فيوصلونه الى الحكم بانتخابهم ، ويحمونه بآرائهم وبأموالهم ، بل وبنفوسهم ، ما داموا مؤمنين بصلاحيته للحكم وبأحقيته للزعامة ، وذلك ما حصل في انتخاب الخلفاء الراشدين .

الخلافة نوع جديد من أنواع الحكم ، لم يعرف له مثيل بعد في العالم القديم والحديث ، وان كان قد نبت في قلب الصحراء العربية وفي القــرن

السابع الميلادي . هو نوع جديد استعد له المسلمون العرب بفطرتهم ، هداهم إليه الدين الجديد وتعاليم محمد صلى الله عليه وسلم .

من يختار الخليفة ؟ ينتخبه أهل الحل والعقد من المسلمين ، وهم الذين يركن اليهم الامام السابق في مهام اموره الشوريّة ، ويقطنون عاصمة الخلافة غالباً ، معروفون بالاسلام الصحيح ، وحسن الجهاد في سبيل الله بالعلم والعمل ، مهيمنون على شئون الدولة روحياً وفكرياً .

قد يكونون ثلاثة ، أو أربعة ، أو خمسة ، أو أكثر . وهؤلاء هم أهل الشورى الذين أرادهم القرآن الكريم بقوله : « وأمرهم شورى بينهم » ، « وشاورهم في الأمر » ، كما فسره بذلك كثير من المفسرين ، هذا فضلاً عن أن الصحابة وهم أعلم الناس بمرمى القرآن ومقصد الرسول ، لم يستشيروا الأمة الاسلامية فرداً فرداً ، بل استشار أبو بكر اثنين أو ثلاثة أو اكثر من الصحابة الذين يعيشون معه في المدينة حين عهد لعمر . ووضع عمر أمر الخلافة في ستة فقط . وقد عبر بذلك صراحة البصريون والكوفيون الذين اجتمعوا بعد مقتل عثمان حين جمعوا وجوه الصحابة بالمدينة وقالوا لهم : « أنتم أهل الشورى وحكمكم جائز على الأمة ، فاعقدوا الامامة ونحن لكم تبع »[1] .

يحصل هذا الانتخاب على درجتين :

١ ــ الانتخاب من تلك الجماعة ــ جماعة أولي الحل والعقد من المسلمين ــ جماعة أهل الشورى الصغيرة العدد ما استطيع الى ذلك سبيل .

٢ ــ التصديق والاعلان عن هذا الانتخاب بالبيعة العامة في المسجد الجامع مع تبيان السياسة الجديدة بكلمة من الخليفة الجديد ، وهي تشبه خطبة العرش .

ومن يخالف الأغلبية المطلقة من أهل الحل والعقد ، فضلاً عن أي شخص

١ــ الطبري ﺟ ٥ ص ١٥٦ .

من عامة المسلمين ، ولم يقبل نتيجة الانتخاب ، كان خطراً على الدولة الاسلامية ، أو على الحكم الجديد ، فليقتل بحد السيف ، كما أمر عمر بن الخطاب صهيباً الرومي بذلك حين وضع نظام الشورى.

الأنصار والخلافة :

لم يشر القرآن الى نظام الحكم الذي يتبعه المسلمون بعد وفاة الرسول ، وان كانت الآيات القرآنية تأمر المسلمين بطاعة أولياء أمورهم . كما ان الرسول لم يحدد شكل الحكم بعد وفاته ، بل ترك هذه المسألة دون أن يقرر نظاماً ثابتاً ، فقد آثر أن يترك الامر شورى للمسلمين .

ولما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى احتاج المسلمون الى أمير يلمّ شعثهم ويرعى أمورهم ، ويهيمن على وحدتهم ، ويرعى مصالحهم الدينية والدنيوية ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قائماً بهذه الوظيفة في حياته ، فلما اختاره الله لجواره نشأت الحاجة الى من يقوم مقامه في أداء هذه الواجبات .

وقد شعر المسلمون من لحظة وفاته بضرورة التفكير فيمن يخلفه ، وأسرع الأنصار قبل دفنه الى عقد اجتماع في سقيفة بني ساعدة ليبتّوا في الأمر ، وهذه السقيفة هي ظلة كانت بالقرب من دار سعد بن عبادة ، وكانت له الرياسة ، وتداولوا في أمر الخلافة ، وكانوا يرمون الى تولية سعد .

وكان رأي الأنصار أن يكون الخليفة منهم ، وحجتهم أن محمداً صلى الله عليه وسلم مكث في مكة بين قومه نحو ثلاث عشرة سنة يدعوهم إلى الاسلام فما آمن منهم الا قليل ، ولا منعوا رسول الله من الأذى ، ولا أعزوا الدين ، فلما هاجر من مكة الى المدينة نصره الأنصار وآمنوا به ، وأعزوا دينه ، ومنعوه وصحبه ممن أراد بهم سوءاً ، وكانوا معه على عدوه حتى خضعت له جزيرة العرب، وتوفي صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راضٍ ، وبهم قرير

العين ، فهم أولى الناس أن يخلفوه [1].

قام سعد بن عبادة فخطب في الأنصار ، فقال إن للانصار أكبر الفضل في حماية الدعوة الى الاسلام ، وفي المجاهدة بأموالهم وأنفسهم لنشرها ، وقال إنه لا ينبغي لأحد أن ينازعهم في الأمر ووافقه الأنصار على رأيه .

ثم تداولوا في الأمر ، فقال قائل منهم : ان احتج علينا المهاجرون فقالوا : نحن أهله وعشيرته ولنا الحق في وراثته ، فبماذا نجيبهم ؟ فأجابه رجل منهم قائلاً : نجيبهم بقولنا : منا أمير ومنكم أمير ولن نرضى بدون هذا [2] .

ناقشنا آنفاً ، تحت عنوان : (الخلافة في الأحاديث النبوية) ، حقيقة الحديث النبوي الذي يذهب إلى حصر الخلافة في قريش . ونقول هنا : انه لو كان هذا الحديث يعرفه سعد بن عبادة سيد الأنصار لما تجاسر على أن يخطب هذه الخطبة كما تدل موافقة قومه على كلامه على أن أحداً منهم لم يعرف الحديث ، ولو كان النبي صلى الله عليه وسلم قال وكان قصده أن تكون الخلافة في قريش لكان الاولى بالقائه اليهم هم هؤلاء الأنصار الذين لا يتطاول الى الخلافة مع قريش غيرهم .

المهاجرون والخلافة :

علم المهاجرون باجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة ، فهرع اليه أبو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح ، ودار بين الفريقين جدال طويل ، ووقف أبو بكر يخطب في الأنصار يشرح وجهة نظر المهاجرين ويثبت أنهم أجدر بالخلافة من الأنصار ، فكان مما قال : « ... فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والإيمان به والمؤاساة له بالصبر معه ،

---

١ – أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٢٥٢ .
٢ – الطبري ج ٣ ص ٢٠٧ – ٢١٠ .

على شدة أذى قومهم لهم وتكذيبهم اياهم ، وكل الناس مخالف عليهم ، زارٍ لهم ، فلم يستوحشوا قلة عددهم وازراء الناس لهم واجتماع قومهم عليهم ، فهم اول من عبد الله في الارض ، وأول من آمن بالله ورسوله ، وهم اولياؤه وعشيرته وأحق الناس بالأمر من بعده لا ينازعهم فيه إلا ظالم ، وأنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضلهم ولا النعمة العظيمة لهم في الاسلام . رضيكم الله أنصاراً لدينه ولرسوله . وجعل اليكم مهاجرته ، فليس بعد المهاجرين الأولين أحد عندنا بمنزلتكم ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء . لا نفتات دونكم بمشورة ، ولا نقضي دونكم الأمور »[1] .

يرى المتأمل في خطبة أبي بكر أنه لم يشر الى حديث الخلافة في قريش مع انه كان أمضى سلاح له في ذلك اليوم العصيب ، مما يجعلنا نشك في صحته . وكانت حجة أبي بكر في تقديم المهاجرين على الأنصار أنهم أول من آمن برسول الله واجابه ، ولكن هذا شيء والصلاحية للخلافة شيء آخر ، فربما سبق قوم الى خير ولم يوجد فيهم من يصلح للحكم . ثم ان مسألة الخلافة والحكم من حقوق الأمم لا من حقوق الطوائف .

ثم وقف احد الأنصار ، وهو الحباب بن المنذر ، فبيّن فضل الأنصار ، ثم ختم خطبته باقتراح جديد ، فكان مما قاله : « ... أنتم أهل الايواء ، واليكم كانت الهجرة ، ولكم في السابقين الأولين مثل ما لهم ، وأنتم أصحاب الدار والايمان من قبلهم ، والله ما عبدوا الله علانية الا في بلادكم ، ولا جمعت الصلاة الا في مساجدكم ، ولا دانت العرب الا بأسيافكم . فأنتم أعظم الناس نصيباً في هذا الأمر . وان أبى القوم فمنّا أمير ومنهم أمير » .

فقام عمر بن الخطاب يُسفّه هذا الاقتراح ، ويدعو لاختيار الخليفة من المهاجرين ، فقال : « هيهات أن يجمع سيفان في غمد واحد ، انه والله لا

---

١ – الطبري ج ٣ ص ٢٠٧ .

ترضى العرب أن تؤمركم ونبيها من غيركم . ولكن العرب لا ينبغي أن تولي هذا الامر الا من كانت النبوة فيهم وأولو الأمر منهم ... »[1] .

وفي الحقيقة يدل حديث عمر على لون من ألوان العصبية . وتتضح هذه العصبية في قوله للأنصار : « من غيركم » . ومن المعروف أن الأنصار والمهاجرين وجميع سكان الجزيرة العربية كلهم من العرب . ولكن عمر أباح لنفسه أن يقول للأنصار : « نبينا من غيركم » بينما حارب الاسلام العصبية القبلية ، بل عمل على القضاء على العصبية بين جميع أجناس المسلمين فقال : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم » . فلم يقل سبحانه وتعالى : « يا أيها العرب » . كما لم يقل : « ان اكرمكم عند الله من كان قرشياً » .

لم ترد الأوس ان تئول الخلافة إلى الخزرج وانضمت إلى المهاجرين . ثم قام عمر بن الخطاب فبايع أبا بكر بالخلافة ، وقال له : « ألم يأمر النبي أن تصلي أنت يا أبا بكر ؟ فأنت خليفته ونحن نبايعك فنبايع خير من أحب رسول الله منا جميعاً » . ثم قال له عمر : « ابسط يدك أبايعك » . فبسط يده فبايعه ، وبايعه المهاجرون والأنصار .

امتنع سعد بن عبادة ، زعيم الأنصار ومرشحهم للخلافة ، عن البيعة لأبي بكر ، وحاول أبو بكر أن يفوز ببيعة سعد بعد عدة أيام ، لكن سعداً قال : « لا والله حتى أرميكم بكل ما في كنانتي من نَبل ، وأخضب منكم سناني ورمحي ، وأضربكم بسيفي ما ملكته يدي ، وأقاتلكم بمن معي من أهلي وعشيرتي . أما والله لو أن الجن اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم حتى أعرض على ربي وأعلم حسابي »[2] .

---

١ – انظر ابن هشام ج ٤ ص ٣٣٦ – ٣٣٩ والطبري ج ٣ ص ٢٠٧ – ٢١٠ .
٢ – الطبري ج ٣ ص ٢١٠ .

كان سعد لا يصلي بصلاتهم ، ولا يجتمع معهم ، ولم يجد أعواناً لرفع راية العصيان ، وظل على موقفه حتى مات أبو بكر وتولى عمر بن الخطاب الخلافة ، فخرج سعد إلى الشام حيث مات بها .

لا شك أن سعداً جانبه التوفيق في موقفه من خلافة أبي بكر . فقد كان اجتماع سقيفة بني ساعدة للمشاورة ، بلا اكراه ولا إجبار ، وما زال الطرفان يتحاجان حتى خضع أحدهما لحجة الآخر ، وكان عليه أن يحترم الآية الكريمة : « وأمرهم شورى بينهم » ، وما أفضت اليه الشورى ، فعلى الاقلية أن تحترم رأي الأغلبية ، تفادياً للشقاق وانقسام الصفوف .

الشيعة والخلافة :

الشيعة في اللغة هم الأتباع والأنصار ، ويقع على الواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث بلفظ واحد ، وهو من المشايعة والمتابعة ، وهذا المعنى اللغوي مطابق لما اختص به هذا اللفظ ممن تولى علياً وبنيه وأقر بامامتهم . وأصبح هذا المعنى هو المتبادر للذهن من اسم الشيعة عند اطلاقه .

اختلف الكتّاب في بدء التشيع لعلي بن أبي طالب ، فمنهم من يرى أن التشيّع بدأ بعد وفاة الرسول ، وذهب البعض الآخر إلى أن الفكرة تكونت يوم مصرع عثمان بن عفان ، ورأى فريق ثالث ان التشيع قد ظهر زمن فتنة طلحة والزبير في البصرة بالعراق ، وهناك فريق رابع من الشيعة الامامية يؤكدون أن بذرة التشيع كانت في مكة حين أمر الله سبحانه وتعالى رسوله أن ينذر عشيرته الأقربين، فجمع بني هاشم وأنذرهم ، ثم قال : « أيكم يؤزرني ليكون أخي ووارثي ووزيري وخليفتي فيكم بعدي ؟ » فلم يجبه أحد غير علي بن أبي طالب ، فأعلن الرسول أنه أخوه ووارثه ووزيره

وخليفته[1] .

ونحن نرى ان التشيع بدأ بعد أن آلت الخلافة إلى أبي بكر دون علي بن أبي طالب[2] . ويرى جولد تسيهر[3] أن الحركة العلوية الشيعية نشأت في أرض عربية بحتة ، فقد مال لاعتناق التشيع قبائل عربيـــة تشبعت بالآراء الثيوقراطية وبشرعية حق علي بن أبي طالب في الخلافة ، فأقبلت على تعاليمه في لهفة وحماسة .

لم يكن عليّ حاضراً اجتماع سقيفة بني ساعدة ، فقد كان هو وأهـــل بيته مشغولين بالاعداد لدفن الرسول ، فلما علم بالبيعة لأبي بكر أبدى عدم موافقته ، فقد كان يرى أن تنحصر الخلافة في بيت الرسول ، وكان أقرب الناس إلى الرسول عمـــه العباس بن عبد المطلب وابن عمـــه علي بن أبي طالب ، ولكن علياً كان يفضل العباس في أنه كان من السابقين الى الاسلام الذائدين عنه ، فهو أول من آمن من الصبيان ، وهو ابن عم الرسول وزوج ابنته ووالد حفدته ، فضلاً عن جهاده في سبيل الاسلام وصفاته الشخصية المعروفة للجميع .

تتلخص آراء الشيعة في الخلافة في أن الخلافة يجب أن تكون في آل البيت وفي سلالة علي .. وبذلك حصروا الخلافة في أسرة معينة ، كما أنهم لا يحبذون فكرة الانتخاب في اختيار الخليفة ، ويرون أن تكون الخلافة لعلي ثم لأولاده من بعده عن طريق الوراثة .

فقد رأت الشيعة أن الامامة ليست من المصالح العامة التي تفوض الى نظرة الامة ، ويعين القائم بها تعييناً باختيار جماعة المسلمين وانتخابهم ، بل

---

١ – ابن هشام جـ ١ ص ٣٤٠ وما بعدها .
٢ – أنظر كتاب « تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي » للمؤلف ص ٤٠ .
٣ – العقيدة والشريعة في الاسلام ص ٢٠٥ .

هي ركن الدين وقاعدة الاسلام ، فيجب تعيين الامام لهم ، ويكون الامام معصوماً من الكبائر والصغائر ، وأن علياً رضي الله عنه هو الذي عينه الرسول [١] فلا عجب أن نظر بعض المسلمين إلى أبي بكر وعمر وعثمان نظرة الغاصبين لحق علي[٢] . وقد أيد الأنصار الهاشميون علياً ، وهم عدة الاسلام ، واذا كانت القبائل قد اعتادت ان تنتخب الخليفة من قريش ، فليس هناك في قريش من هو خير من علي ، فله فضل السبق في الاسلام ، فضلاً عن قرابته ومصاهرته للرسول ، واخلاقه الشخصية العظيمة .

بدأ التشيع فكرة بسيطة واضحة محدودة المبادىء ، فكان كل « من وافق الشيعة في أن علياً رضي الله عنه أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحقهم بالامامة وولده من بعده فهو شيعي ، وان خالفهم فيما عدا ذلك مما اختلف عليه المسلمون ، فان خالفهم فيما ذكرنا فليس شيعياً »[٣] . ولكن سرعان ما تطورت هذه المبادىء الشيعية بمرور الزمن ، وتغير الظروف السياسية ، وظهور الفرق الدينية والسياسية الأخرى ، حتى ظهرت أواخر الدولة الأموية في صورة تكاد تخالف تماماً ما كانت عليه في دولة الخلفاء الراشدين أو في صدر الدولة الأموية .

انقسمت الشيعة على نفسها إلى عدة فرق أشهرها السبئية ، والامامية ، والكيسانية ، والزيدية[٤] ، وقد اختلفت هذه الفرق في التفاصيل ولكنها اتفقت جميعها على أن علياً أحق المسلمين بالامامة ، والقيام بالأمر في أمته[٥] .

أما السبئية التي وردت تسميتها في بعض المراجع العربية « الغلاة » لأنهم

---

١ — ابن خلدون : المقدمة ص ١٣٨ .
٢ — رونلدسن : عقيدة الشيعة ص ٣٤ .
٣ — ابن حزم : الفصل في الملل ج ٢ ص ١١٣ .
٤ — الشهرستاني : الملل والنحل ، ج ٢ ص ٢٣٤ .
٥ — ابن نشوان : الحور العين ص ١٥٣ .

غالوا فيما خلعوه على علي بن أبي طالب من الصفات ، فزعموا أنه لم يمت[١] وأن البرق سيفه والرعد صوته .

أما الشيعة الامامية فقد اتفقت على أن الرسول نص على امامة علي « باسمه وعينه ونسبه للناس اماماً ، واستخلفه وأظهر الأمر في ذلك إلى غيره ، وأن الأمة ضلت وكفرت بصرفها الأمر إلى غيره »[٢] . والامامية تقول بعودة (امام منتظر) ولكنها تختلف فيمن هو ذلك الامام المنتظر. ففرقة تنتظر جعفراً الصادق ، وفرقة أخرى تنتظر محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، وفرقة ثالثة تنتظر محمد بن الحنفية وتزعم انه حي لم يمت وانه مقيم بجبل رضوى ينتظر إذن الله له بالخروج[٣] .

أما فرقة الكيسانية ، فقد أنشأها المختار بن أبي عبيد الثقفي ، الذي ذهب الى ان الدين طاعة رجل ، فحملهم ذلك على تأويل الأركان الشرعية من الصلاة والصيام والزكاة والحج وغيرها ، فحمل بعضهم على ترك القضايا الشرعية بعد الوصول إلى طاعة الرجل ، كما حمل البعض على ضعف الاعتقاد بالقيامة ، وحمل فريقاً آخر على القول بالتناسخ والحلول ، والرجعة بعد الموت[٤] .

ظهرت في أواخر الدولة الأموية فرق شيعية جديدة نتيجة تطور مبادىء الشيعة السياسية والدينية . أما التطور السياسي لمبادىء الشيعة فيبدو واضحاً في اتجاه الشيعة منذ مقتل المختار إلى الدعوة السرية ، أو ما يسمونه التقية والكتمان[٥]. فقد كانت الشيعة تحارب جهراً كلما أمكنها ذلك ، ولكن الظروف لم تساعدهم على ذلك ، فتحولوا الى المقاومة السرية ، ونادوا أن الحكمة العالية التي أفاضها

---

١ — ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٢ ص ٤٠٤ .
٢ — ابن نشوان : الحور العين ص ١٥٣ .
٣ — المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٣٤ .
٤ — الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٣٦ .
٥ — Lammens : L'Islam, P. 159 .

الله على محمد ورثها علي بعد موته ، وعنه ورثها أعقابه ، فكان البعض يعزو اليهم علماً لم يحصلوه على النحو الذي تحصل به العلوم البشرية وانما تلقوه من لدن الحكمة الالهية مباشرة [1] .

نتج عن هذا التطور في مبادىء الشيعة ظهور فرقتين في أواخر العصر الأموي ، هما الزيدية والهاشمية : أما الزيدية فهم أكثر فرق الشيعة اعتدالاً [2] . فزيد بن علي رأس هذه الفرقة ، يرى جواز امامة المفضول مع وجود الأفضل ، فعلى الرغم من أن علياً أفضل من أبي بكر وعمر إلا أن بيعتهما صحيحة [3] . كما ان نظرية الزيدية في الامامة معقولة مقبولة ، فهي بعد زيد « في ولد فاطمة كائناً من كان بعد ان يكون عنده شروط الامامة » [4] ، ويرون أن الامامة مسألة عملية لا سلبيّة ، فيجب أن يقود الامام شيعته في الكفاح دون اختفاء أو كتمان . والزيدية في ذلك تخالف الامامية . كذلك كانت الزيدية لا تؤمن بالخرافات التي أُلصقت في الامام فجعلت له جزءاً إلهياً [5] . ولكن هذه الآراء المعتدلة لم تجد قبولاً عند بعض غلاة الشيعة فرفضوا آراء زيد عن صحة خلافة أبي بكر وعمر ولذا سموا في التاريخ الاسلامي « الرافضة » [6] .

أما فرقة الهاشمية فقد تفرعت عن الكيسانية ، وأجمعت على أن محمد ابن الحنفية قد أوصى الى ابنه عبد الله بن محمد المعروف بأبي هاشم بالامامة من بعده [7] . وقد نظم أبو هاشم الدعوة وجاهد في ضم صفوف الشيعة سواء

---

١ — فان فلوتن : السيادة العربية ، ص ٧٦ — ٧٧ .
٢ — ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٢ ص ٤٦٦ .
٣ — الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٥٠ .
٤ — ابن النديم : الفهرست ج ٢ ص ٤٥٦ .
٥ — احمد أمين : فجر الاسلام ص ٣٢٤ .
٦ — الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٥١ .
٧ — انظر « تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي » للمؤلف ص ٢١٠ .

أكانوا غلاة ام معتدلين ما دام يجمعهم كراهية الأمويين، وحاول التوفيق بين الاسلام والعقائد غير الاسلامية .

الخوارج والخلافـة :

كان قبول علي التحكيم في موقعة صفين من أبرز عوامل ظهور حزب الخوارج . فقد برز جماعة من جند علي ينكرون أن يحكم احد في كتاب الله ، ورأوا أن قبول علي التحكيم يعتبر منه كفراً وضلالاً لأن التحكيم يتضمن شك كل من الفريقين المتحاربين في ايهما المحق ، ولا محل لهـذا الشك ، فقد حاربوا وهم مقتنعون بأن الحق في جانبهم . ولـذا رأوا من الواجب متابعة القتال حتى ينزل الله حكمه . فيحقق النصر لأحد الفريقين على الآخر .

للخوارج مبادىء دينية واخرى سياسية . وأبرز مبادئهم السياسية في الخلافة . فذهبوا الى صحة خلافة أبي بكر وعمر لصحة انتخابهما ، وقالوا بصحة خلافـة عثمان في سنيه الأولى ، كما أقروا بصحة خـلافة علي ، ولكنهم قالوا إنه أخطأ في التحكيم ، وحكموا عليه بالكفر ، كما كفروا طلحة والزبير وعائشة والحكمين . ثم وضعوا أسساً لاختيار الخليفة ، « فجوزوا أن تكون الامامة في غير قريش . وكل من ينصبونه برأيهم وعاشر الناس على ما مثلوا له من العدل واجتناب الجور كان اماماً ، ومن خرج عليه يجب نصب القتال معه ، وانه ان غير السيرة وعدل عن الحق وجب عزله او قتله ، وهم أشد الناس قولاً بالقياس . وجوزوا ألا يكون في العالم امام أصلاً وان احتيج اليه فيجوز أن يكون عبداً أو حراً أو نبطياً أو قرشياً »[1] .

تتجلى النزعة القبلية في مبادىء الخوارج السياسية ، فقد ملوا الخضوع

---

١ – الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١٧٤ .

للسلطان والحكم المركزي . ونرى منها معالم السخط على قريش والتذمر من استئثارها بالخلافة ، فتربصوا الفرص لعلي ، ووجدوها بعد قبوله التحكيم ومحوه لقب امرة المؤمنين من صيغة التحكيم ، فأعلنوا انتزاع الخلافة من قريش ، ورأوا أن تعقد الخلافة لأفضل أبناء الأمة الاسلامية عن طريق الاختيار المطلق من كل قيد ، بل ذهبوا إلى أن « عبداً حبشياً » لا يقل أهلية للخلافة واستعداداً عن سليل أعظم القبائل حسباً ونسباً [1]. فهم لم يعودوا ينظرون إلى قريش نظرة تقديس فرغبوا في رئيس من دمائهم حتى يستطيعوا طاعته [2] . واعتبروا حديث الرسول : « الامامة في قريش » حديثاً موضوعاً لا يعتد به ، وكان أول من عارض هذا الحديث سعد بن عبادة بعد وفاة الرسول ، ثم سكتت هذه المعارضة طوال عهود أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، حتى عادت بفضل الخوارج [3] . وجعل الخوارج هذه النظرية موضع التنفيذ ، فاختاروا عبد الله بن وهب الراسبي أميراً للمؤمنين ، ولم يكن قرشياً .

وهكذا كان الخوارج يدعون إلى أن تكون الخلافة شورى بين المسلمين ، وهذه الفكرة اسلامية عربية دعا اليها القرآن وأقرها عمر بن الخطاب لما جعل الشورى أساساً لاختيار خليفته ، وهكذا خالف الخوارج المذهب الشيعي الذي يجعل الخلافة في بيت الرسول ، والمذهب الذي يدعو إلى أن تكون الخلافة في قريش ، وأضاف الخوارج إلى مبدإ الاختيار مبادىء أخرى ، فيرون ان الخليفة مرغم على قبول الخلافة ولا يحق له النزول عنها ، واذا غير سيرته وحاد عن الحق وجب عزله أو قتله . ويرى خودابخش [4] أن هذ المبدأ حمل الثوار على قتل عثمان حين غير وبدل سياسته .

---

١ — جولد تسيهر : العقيدة والشريعة ص ٧٧ .

٢ — Nicholson : Lit. Hist. of the Arabs, P. 208.

٣ — Khuda Buksh : Hist. of Islamic Civil., V. II, P. 158.

٤ — Ipid, P. 159

ويذهب الخوارج في الخلافة مذهباً بعيداً ، فاذا لم تمكنهم الظروف من تحقيق الاسس التي وضعوها لاختيار الخليفة ، فلا مانع من الاستغناء عن الحكومة وعن الخلافة لأن الناس يتوازعون ويتكافون باحتياج بعضهم الى بعض واشتباك علاقاتهم ، ففي ذلك ما يكفي لردهم عن الظلم وصدهم عن الجور وعدم الانصاف[1] . ويعيب ابن عبد ربه[2] على الخوارج هذا الرأي فيقول : « انما مذهبهم ألا يكون أمير ، ولا بد من أمير براً كان أو فاجراً » .

كان الخوارج يمثلون النزعة البدوية بصراحتها وجرأتها ، فهم لا يعترفون بحق قريش في الخلافة ولا يقبلون مبدأ الوراثة الذي سار عليه الخلفاء الأمويون ، وهم يريدون انتخاباً عاماً يشمل جميع المسلمين ، وشاركت القبائل العربية الخوارج في سخطها على الأمويين ، فرأت ان انتصار الأمويين انتصار جديد لقريش على سائر العرب[3] .

المعتزلة والخلافة :

تقول فرقة المعتزلة ، أو القدرية ، بحرية ارادة الانسان ، كما يعتقدون بالقضاء والقدر . وقد ابتدأت المعتزلة منذ نشأتها طائفة دينية لا دخل لها في السياسة ، على عكس ما كان عليه الخوارج والشيعة والمرجئة ، الا أنها اقتحمت الميدان السياسي ، فكونت رأياً في الخلافة .

يرى المسعودي[4] أن آراء المعتزلة في الامامة تتفق مع مبدإ الزيدية ، فلا عجب في ذلك فقد كان زيد تلميذاً لواصل بن عطاء رأس المعتزلة ، فاقتبس

---

١ – العبادي : صور من التاريخ الاسلامي ، ص ١٧٧ .
٢ – العقد الفريد ج ٢ ص ٣٨٨ .
٣ – الدوري : مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ص ٧٥ .
٤ – مروج الذهب ج ٣ ص ١٥٤ .

منه الاعتزال وصارت أصحابه كلها معتزلة[1] . ويرى ديموبين أن المعتزلة كانوا شيعة معتدلين فشاركوا الشيعة في وقوفهم في وجه الأمويين الا أنهم لم يقدموا على ذلك لاحلال ذرية علي محلهم ولكن لاحلال العباسيين ، وقد اعتنق بعض خلفاء العصر العباسي الأول مذهبهم مثل المأمون والمعتصم والواثق ، وحاولوا جعله مذهباً رسمياً للدولة .

كذلك مالت فرقة المعتزلة الى الخوارج للتشابه بين آرائهم في الخلافة ، فقد نادى المعتزلة بأن اختيار الخليفة مفوض إلى المسلمين[2] . ويرى بعض الكتّاب[3] أن المعتزلة كانوا من ضمن حزب الخوارج ثم انشقوا عليه . فكان واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد شيخا المعتزلة الأولان يوافقان الخوارج في تخليد مرتكب الكبيرة مع قولهما انه ليس بكافر[4] . كما وافق الحسن البصري على معظم آراء الخوارج[5] .

المرجئة والخلافـة :

ظهر حزب المرجئة بعد ظهور حزبي الشيعة والخوارج واشتداد النزاع والجدل بينهما ، فالخوارج يكفرون علياً وعثمان والحكمين ، والشيعة تكفر ابا بكر وعمر وعثمان ، وكلاهما يكفر الأمويين ، والأمويون يرونهم خارجين عن الطاعة ، وكانت المرجئة ترى أن الخوارج والشيعة والأمويين مؤمنون ،

---

١ — الشهرستاني : الملل والنحل جـ ١ ص ٢٤٩ .
٢ — المسعودي : مروج الذهب جـ ٣ ص ١٥٤ .
٣ — الملطي : التنبيه والرد ص ٥٧ .
٤ — زهدي جار الله : المعتزلة ص ٩ .
٥ — ابن الأثير : الكامل جـ ٢ ص ١٣٦ .

وبعضهم مخطيء والبعض على الحق ، ولكن من الصعب تبيان ذلك ، يرجئون أمورهم إلى يوم القيامة[1] . وتتفق المرجئة مع فرقة الزيدية الشيعية في رأيهم في الامام ، فيحتمون أن يكون من قريش ، على أن هناك أموراً تختلف فيها هاتان الفرقتان ، فآراء المرجئة التي تدل على التسامح والتساهل تتعارض مع رغبة الشعب في قيام دولة ذات حكم الهي مؤسس على الشريعة الالهية ومحكومة بآل الرسول[2] . كما أن المرجئة كانوا يعترفون بشرعية حكومة الأمويين بينما يعمل الشيعة على مناهضة هذه الحكومة[3] .

استعان الأمويون بحزب المرجئـــة في مناهضة الخوارج ، فقد كانـوا يرجئون الأمويين إلى يوم القيامة ويرون شرعية الحكومة الأموية ، وينادون بأن الايمان هو المعرفة بالله وبرسله واداء الفروض والكف عن الكبائر ، فمن آمن بالله ورسله وترك الفرائض وارتكب شيئاً من الكبائر كان مؤمناً عند المرجئة كافراً في نظر الخوارج[4] .

---

١ – ابن العبري : مختصر تاريخ الدول ص ١٦٦ .
٢ – المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ١٥٤ .
٣ – جولد تسيهر : العقيدة والشريعة ص ٧٦ .
٤ – أحمد أمين : فجر الاسلام ص ٢٣٤ .

٤ . فجر الخـــلافة

خلافة أبي بكر :

رأينا كيف تمت بيعة أبي بكر في سقيفة بني ساعدة ، بعد الجدال والنقاش العنيف الذي ثار بين المهاجرين والأنصار ، وهذه البيعة تسمى « البيعة الخاصة » اذ لم يبايع فيها سوى عدد قليل من المسلمين من الذين سمحت ظروفهم لهم بحضور اجتماع السقيفة ، أما « البيعة العامة » التي بايع فيها جمهور المسلمين أبا بكر فكانت في اليوم التالي في المسجد .

فبعد البيعة الخاصة ، قصد أبو بكر المسجد فرأى بني أمية مجتمعة الى عثمان ، وبني زهرة مع عبدالرحمن بن عوف ، فقال لهم عمر : ما لي أراكم مجتمعين حلقاً شتّى ؟ قوموا فبايعوا أبا بكر فقد بايعته وبايعه الأنصار . فقام عثمان وبنو أمية فبايعوه ، وقام ابن عوف ومن معه فبايعوه أيضاً .

أما علي بن أبي طالب والعباس بن عبدالمطلب ومن معهما من بني هاشم فقد انصرفوا إلى بيوتهم ، ومعهم الزبير بن العوام . فخرج عمر في جماعة من المسلمين ، وصحبوا الزبير وبني هاشم إلى أبي بكر حيث بايعوه . أما علي ، فرغم أن عمر صحبه إلى أبي بكر إلا أنه أبى البيعة وقال : أنا أحق بهذا الأمر منكم ، لا أبايعكم ، وأنتم أولى بالبيعة لي ، أخذتم هذا الأمر من الأنصار

واحتججتم عليهم بالقرابة من النبي صلى الله عليه وسلم وتأخذونه منا أهل البيت غصباً؟ وحاول عمر أن يجبر علياً على البيعة، فاتهمه علي انه انما يريد أن يعهد أبو بكر لعمر بالخلافة من بعده. فقال أبو بكر: إن لم تبايع فلا أكرهك[1].

ونحن نعتقد أن تفوق أبي بكر في السن على الامام علي بن أبي طالب كان من العوامل الرئيسية التي جعلت المسلمين يفضلون أبا بكر على علي، وإن كنا بطبيعة الحال لا ننكر صفات أبي بكر الحميدة وفضله، فقد كان العرب لا يزالون متأثرين بما جرت عادتهم عليه في العصر الجاهلي في اختيار شيخ القبيلة، فهناك شرط تقدم السن إلى جانب شرط الفضل والحكمة والعدل وما إلى ذلك. وخير دليل على ذلك، ما قاله أبو عبيدة بن الجراح لعلي حين أبى البيعة لأبي بكر، إذ قال: «يا ابن عم أنك حديث السن وهؤلاء مشيخة قومك ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور، ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك، وأشد احتمالاً واستطلاعاً، فسلم لأبي بكر هذا الأمر فانك إن تعد ويطل بك بقاء فأنت لهذا الأمر خليق وحقيق في فضلك ودينك وعلمك وفهمك وسابقتك ونسبك وصهرك». ويقول السير توماس أرنولد[2] في هذا: «لوحظ في انتخاب أبي بكر ما يلاحظ في انتخاب شيخ القبيلة العربية لأنه انتخاب يتفق مع الروح العربية».

بعد تولية أبي بكر، خطب خطبة كانت بمثابة خطبة العرش، جاء فيها:

«أيها الناس إني قد وليت عليكم ولست بخيركم. فان أحسنت فأعينوني وان أسأت فقوموني. الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له ان شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق

---

١ – الطبري ج ٣ ص ٢٠١ – ٢٠٣.
٢ – The Caliphate, P. 20.

منه إن شاء الله . لا يدع قوم الجهـاد في سبيل لله إلاّ ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلاّ عمهم الله بالبلاء . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم . قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله »[1].

والمتأمل في هذه الخطبة ، وهي أول خطبة خطبها أول حاكم إسلامي بعد الرسول ، يرى فيها صورة ما كان عليه الصحابة من أمر الحكومة والدستور.

يرى فيها المتأمل أن الخليفة اعترف بوجود دستور تسير عليه الحكومة ، هو كتاب الله ، حيث قال : « أطيعوني ما أطعت الله ، فان عصيته فلا طاعة لي عليكم » . هذا يدل على أنه يعترف للأمة بسلطة المراقبة على الحكومة ، وهي من مزايا الحكومات الديمقراطية في الاصطلاح العصري . والحكومة الديمقراطية هي التي تكون فيها سلطة الشعب فوق كل سلطة ، وارادته فوق كل ارادة ، ولكنه من جهة أخرى لم يؤلف للأمة هيئة نيابية تنوب عن الأمة في مراقبة أعماله كما ود هو ذلك . نقول هيئة نيابية ، اذ لا يعقل امكان المراقبة على سير الحكومة إلا على هذه الصورة .

قلت : ان أبا بكر لم يؤلف تلك الهيئة النيابية ، وكان الأولى أن أقول : ان الأمة العربية لم تؤلف لنفسها هذه الهيئة لأنها هي التي وهبت أبا بكر سلطته ، فكان في يدها أن تقيم بإزائه سلطة تراقب أعماله ، وما كان لأبي بكر أن ينكر عليها شيئاً لأنه لن ينكر شيئاً إلاّ بسلطان ، والسلطان مستمد من الأمة ، فكيف يقوى بها عليها ؟

هذا الاغفال من الصحابة لأمر إقامة هيئة مراقبة على الحكومة كما يقضي به دستورنا وهو القرآن ، جر أسوأ النتائج في عهد الخليفة الثالث ، حيث تغلب مروان بن الحكم على ارادة عثمان بن عفان ، فاستبد بنو أمية بالناس ، وتفاقم الخطب حتى انتهى الامر بالفتنة المشهورة ومصرع عثمان كما سنرى

---

١ - ابن هشام ج ٤ ص ٣٤٠ - ٣٤١ .

بعد قليل . فلو كان المسلمون أقاموا لهم هيئة مراقبة على الحكومة — وقد كان في دينهم اكبر باعث على إقامتها — لاتقوا شر متسلط ، مثل مروان ، على الخليفة ، ولما حدثت هذه الفتنة التي خلفت وراءها آثاراً استمرت طويلاً .

هذا من جهة . ومن جهة أخرى ، فان خطبة أبي بكر جاءت خالية من ذكر الشورى التي فرضها الله على الحكومة الاسلامية في قوله تعالى: (وأمرهم شورى بينهم) لأن قوله : « وان أسأت فقوموني » لا يدل على الشورى تمام الدلالة ، فان معنى قوله تعالى : (وأمرهم شورى بينهم) أي أنهم لا يبرمون أمراً الا بعد التشاور فيه ، ولكن قول الخليفة يدل على أنه يحب منهم أن يقوموه متى أساء ، والانسان لا يسيء الا بعد ان يبرم العمل ويتصدى لتنفيذه .

ومما يدل على أن هذا الفهم صحيح ، ان المسلمين انتخبوا ابا بكر وتركوه ونفسه . فان حدث ان استشارهم في شيء ، ورأى غير رأيهم ، آثر رأيه على رأيهم ، ومضى حيث أراد . وكذلك سار عمر وعثمان وعلي ، وهذا في رأينا تنازل من الصحابة عن اكبر حق لهم في حكومة دولتهم . ذلك ان الله سبحانه وتعالى فرض عليهم ان يتشاوروا في أمورهم ، ولا تسمى الأمور شورية الا اذا كانت الشورى محترمة مرعية . اما لو كانت شورى غير مرعية ، بمعنى ان الحاكم اذا بدا له ان يستشير أمته في أمر استشارها فيه ، ثم كان حراً في ان يعمل برأيه ، وان صادم آراء الناس ، أو أكثرهم ، فلا تكون هذه الشورى مرعية بوجه ، ولا تسمى الأمة شورية ، ولا يقال ان أمر هذه الأمة شورى بينهم .

من هنا يتبين لنا جلياً ان الصحابة تنازلوا عن حق ، هو أكبر حقوقهم . انتخبوا رجلاً منهم ليحكمهم ، ثم تركوه يحكم بينهم بما يرى حكماً مطلقاً غير متقيد، مع أنهم هم الذين أعطوه تلك السلطة بانتخابه للحكومة ، فلو انهم كانوا عند انتخابه اوجبوا عليه احترام آرائهم ، ما وجدوا منه نزاعاً،

لأنه لا سلطة له الا بهم .

وسبب اغفال الصحابة لهذا الحق انهم حديثو عهد بالحكومة ، لم يذوقوا من ظلم الاستبداد ما ذاقت الأمم المستعبدة، فتركوا الأمر كما تهيأ لهم بادىء بدء ، فجاءت حكومتهم فذة في بابها غريبة في شكلها .

هذه الغرابة تبدو في انها لا تسمى حكومة مطلقة ، لأن الحكومة المطلقة هي التي يرئسها رجل مستبد لا دستور له الا رأيه وهواه . والحكومة الصحابية كان لها دستور هو القرآن ، فلا تسمى مطلقة ، ثم لا تسمى دستورية ، لأن الحكومة الدستورية ، التي يكون فيها مجلس نيابي او اكثر ، ولم تكن الحكومة العربية الاسلامية كذلك . ثم لم تكن حكومة جمهورية ، لأنها وان كانت تنتخب رئيسها ، كما هو الحال في الأمم الجمهورية ، الا ان ذلك الرئيس فيها ليس لرياسته حد محدود تنتهي اليه .

وخلاصة القول ، ان حكومة الصحابة كانت حكومة فريدة في بابها ، لا استبدادية ولا دستورية ، ولا ملكية ولا جمهورية . وسبب ذلك ان الله سبحانه وتعالى يعلم أن الأمم تتطور في أشكال حكوماتها على حسب استعدادها ، ولا تلبث امة منها على حال واحد ، ولذا اطلق لها أمر الحكومة ، ولم يقيدها إلا بأمر واحد هو الشوري الذي يُعد أساس كل حكومة صالحة ، سواء كانت ملكية او جمهورية ، ثم تركهم يكونون لأنفسهم الحكومة التي تناسبهم .

خلافة عمر :

مرض أبو بكر مرضه الأخير ، وشعر بقرب منيته ، وخشي ان يموت دون ان يحدد نظاماً للخلافة مما يؤدي الى انتشار الفوضى وزيادة الاضطرابات ، وخاصة ان ظروف الدولة حرجة ، فقد كانت الجيوش العربية تواجه الجيوش الفارسية والرومانية ، وكانت الانقسامات التي حدثت بعد وفاة الرسول

ماثلة في ذهنه .

رأى أبو بكر ان يعهد بالخلافة من بعده الى عمر بن الخطاب ، لكنه لم يشأ ان يستبد بالرأي . فآثر ان يستشير كبار الصحابة ، وبعض المهاجرين والأنصار ، فأجمعوا على الثناء عليه ، ثم دعا أبو بكر عثمان بن عفان ، فأملاه كتاب عهده لعمر : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما عهد أبو بكر خليفة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، في الحال التي يؤمن فيها الكافر ويتقي الفاجر . اني استعملت عليكم عمر بن الخطاب . فان بر وعدل فذلك علمي به ورأيي فيه . وان جار وبدل فلا أعلم بالغيب ، والخير أردت ، ولكل امرىء ما اكتسب (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) »[1] .

تحامل أبو بكر على نفسه ، رغم مرضه الشديد ، فخطب الناس قائلاً : « اترضون بمن أستخلف عليكم ؟ فاني والله ما ألوت في جهد الرأي ، ولا وليت ذا قرابة . واني قد استخلفت عمر بن الخطاب فاسمعوا له واطيعوا » ، فقالوا : « سمعنا وأطعنا »[2] ثم دعا ابو بكر عمر ، فأخذ ينصحه ويوصيه .

نلاحظ في اختيار عمر أمرين هامين : أولهما ان ابا بكر علق خلافة عمر على رضا الناس ، وثانيهما أن أبا بكر لم ينتخب أحداً من أبنائه أو أقربائه بل انتخب شخصاً أجمع الناس على احترامه .

كانت بيعة عمر صحيحة ، واذا قيل انه ليس فيها ضمان لاختيار من يحبه الناس ويكون قادراً على حمايتهم ، وإنها اشبه بولاية العهد او التعيين ، فان ابا بكر لم يستبد برأيه ولم يرغم جماعة المسلمين على قبول خلافة عمر ، بل انه استشار الصحابة فأثنوا على عمر ووافقوا على اختياره .

---

١ – الطبري : ج ٤ ص ٥٠ .
٢ – الطبري : ج ٤ ص ٥١ .

على أن هذه الطريقة لا تخلو من العيوب ، اذ قد يخطىء الخليفة أو يحسن الظن بمن هو غير جدير بثقته . فليس كل خليفة كأبي بكر ولا كل ولي عهد كعمر . ولا يستطيع أن يطمئن على حسن نتيجة اذا تكررت هذه الطريقة لما فيها من احتمال الخطإ في الاختيار على الأقل . وقد زعم الأمويون والعباسيون وغيرهم أن هذه السنّة التي سنها أبو بكر ، والتي كان قوامها الشورى وعدم التوريث ، تعطي الخليفة الحق في انتخاب من يخلفه بغير قيد ولا شرط[1] .

وللأب لامانس المستشرق اليسوعي المعروف بسعة اطلاعه على آداب العصر الجاهلي ، وتاريخ العصر الاسلامي الأول ، نظرية غريبة ، تتعلق بشكل الحكومة الاسلامية التي قامت يوم السقيفة واستمرت طوال عهد الشيخين : أبي بكر وعمر .

فهو يرى ان تلك الحكومة كانت حكومة ثلاثية من طراز النظام الثلاثي المعروف في التاريخ الروماني في طور الانتقال من الجمهورية الى الأمبراطورية ، وأن قوام هذه الحكومة ثلاثة من كبار الصحابة هم : أبو بكر ، وعمر ، وأبو عبيدة ، وأن هؤلاء اجتمعت كلمتهم في أواخر حياة الرسول على أن يحتكروا الحكم بعد وفاته عليه السلام ، ويتداولوه واحداً بعد واحد ، وأن اثنتين من أزواج النبي ، هما : عائشة بنت أبي بكر ، وحفصة بنت عمر ، مهدتا لهم السبيل الى ذلك . وأن هذه المؤامرة قد نجحت الى حد بعيد ، اذ أيد عمر وأبو عبيدة أبا بكر يوم السقيفة ، وفاز أبو بكر بالخلافة ، وقد عاونه صاحباه في الحكم ، فكان عمر على القضاء وأبو عبيدة على الفيء ، فلما حضرت الوفاة أبا بكر عهد الى عمر من بعده . ثم ان عمر رشح أبا عبيدة للخلافة من بعده ، بأن ولاه القيادة العليا لجيوش الشام . غير أن

---

١ — حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ، ج ١ ص ٤٣٥ .

أبا عبيدة توفي في حياة عمر ، فحبط مشروع الحكم الثلاثي وكان من نتيجة ذلك ان رجع المسلمون الى الشورى التي حرموا منها في استخلاف أبي بكر وعمر !!

هذه هي نظرية الأب لامانس ولكنهـا لا تقوم على أسس تاريخية ثابتة ، بل نرى خطأها تماماً للأسباب الآتية :

أولاً : لأن المصادر القديمة الموثوق بها لا تذكر شيئاً من هذا القبيل، فالطبري والبلاذري اللذان استوعبا كل ما أمكنهما استيعابه من الأخبار المتعلقة بقيام الخلافة العربية ، لا يأتيان بخبر واحد يؤيد من قريب أو بعيد نظرية لامانس .

ثانياً : ان الأحاديث التي يستشهد بها الأب لامانس أغلبها من الأحاديث المروية في مناقب الصحابة وخصائصهم . وهذه ينبغي أن تؤخذ بتحفظ تام ، وربما كان من واجب الباحث الا يستشهد بها في مقام البحث العلمي الصريح ، ذلك بأن معظمها لا شك موضوع ، وأن السبب في وضعه يرجع الى حالة الأحزاب السياسية ابان العصر الأموي وصدر العصر العباسي .

ثالثاً : ان الأب لامانس يهمل كل الاهمال الرواية التي تشير الى الذهول الذي أصاب عمر بن الخطاب عقب وفاة النبي . وكيف نوفق بين عمر المؤتمر ، على رأي لامانس ، وعمر الذاهل لموت الرسول ؟

والقول بائتمار أبي بكر وعمر قديم غير حديث ، فقد قال به روافض الشيعة منذ ظهرت الأحزاب السياسية بشكلها التاريخي في صدر الاسلام ، فزعموا أن أبا بكر وعمر وعثمان — لا أبا عبيدة كما يرى لامانس — قـد ائتمروا ببني هاشم وغصبوهم حقهم في الخلافة[1] .

---

١ — العبادي : صور من التاريخ الاسلامي ، ص ١٢٣ .

خلافة عثمان :

كان اختيار ابي بكر – كما مر بنا – بطريقة الانتخاب ، فان النبي لم يعين من يخلفه . وكادت هذه الطريقة أن توجد الانقسام بين صفوف المسلمين ، مما جعل أبا بكر يبعد تفكيره عن طريقة الانتخاب ، ويلجأ الى طريقة التعيين فرشح عمر بن الخطاب خليفة للمسلمين من بعده .

أما عمر بن الخطاب ، فقد لجأ الى طريقتي الانتخاب والتعيين معاً ، فهو يعين ستة من صحابة رسول الله الذين توفي وهو عنهم راض ، وفي الوقت نفسه يفسح المجال للمسلمين ليختاروا واحداً منهم . وهؤلاء الستة هم : علي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، وسعد بن أبي وقاص ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الرحمن بن عوف .

والطريقة التي لجأ اليها عمر ، تمثل الديمقراطية الحقة ، ولكنه في الوقت نفسه يقيدها ببعض القيود ، ضماناً لاتحاد كلمة المسلمين . وخير دليل على ديمقراطية عمر امتناعه عن الموافقة على ما اقترحه البعض عليه من ادخال ولده عبد الله بن عمر بين المرشحين للخلافة .

ورغم اجماع المصادر العربية على أن عمر اختار هؤلاء الصحابة الستة ليختار المسلمون من بينهم خليفته ، الا ان بعض المستشرقين ، وخصوصاً (كياني) يشك في هذا الأمر ، ويذهب الى أن عمر بن الخطاب لم يعين أحداً ، وأن الناس من بعده اجتمعوا على هؤلاء الستة الذين توفي رسول الله وهو راض عنهم فكلفوهم باختيار الخليفة .

وكما أن المصادر العربية تنفي هذا الرأي تماماً ، فانه يصعب علينا أن نصدق أن المسلمين بعد عمر اجتمعوا على ستة نفر فقط ، وفوضوا اليهم اختيار الخليفة ، مع ما نعلمه من حب العرب المسلمين للحرية واعتبار كل واحد منهم نفسه مثل غيره من المسلمين ، ومن المؤكد لدينا ان عمر

اختـــار الستة ، ولولا ذلك مـــا اجتمعوا ، ولا اتفقوا ، ولا اتبعهم المسلمون .

تتلخص قصة الشورى ، في أن يجتمع المرشحون الستة للخلافة ثلاثة أيام يتشاورون في أمرهم ، ويصلي بالناس في هذه الأثناء صهيب[1] ، ولا بد أن يختاروا خليفتهم في اليوم الرابع ، ويحضر عبد الله بن عمر مشيراً دون أن يشمله الاختيار ، واذا أجمع خمسة منهم أو أربعة على انتخاب أحدهم ، وخالفهم فيه رجل أو اثنان ، قتل المعارضون . أما اذا وقف ثلاثة في جانب شخص ، ووقف الثلاثة الآخرون في جانب آخر ، كان رأي عبد الله ابن عمر مرجحاً . فان لم يرضوا بحكـــم ابن عمر ، اختاروا رأي الفريق الذي فيه عبد الرحمن بن عوف .

وكان عمر يرى انه — وان حدد الاختيار في ستة — فان الذي سيلي الخلافة ليس الا واحداً من اثنين : علي بن أبي طالب أو عثمان بن عفان . ورغم تأكده من ذلك ، لم يشأ حصرها في هذا النطاق الضيق ، فقد كان هناك بعض صحابة النبي الذين لهم في نفوس الناس محبة واحترام ، كما كان يلتف حولهم كثير من المؤيدين ، فخاف أن يحصر الاختيار في علي وعثمان ، حتى لا يخرج عن طاعة الخليفة أحد الأربعة الآخرين ، لئـــلا يؤدي ذلك الى انقسام كلمة المسلمين ، ولذا رأى ان يشركهم في الشورى ، ليقطع عليهم خط الرجعة ، وليضمن وفاءهم للخليفة الجديد . وخير دليل على ذلك غضب الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله ، لاختيار عثمان دونهما ، فكيف كان حالهما لو لم يشركهما عمر في الشورى ؟[2] .

---

١ — صهيب : كان رقيقاً من أصل روماني افتداه الرسول من ماله .

٢ — انظر كتابنا عبد الله بن الزبير .

ذكر بعض المؤرخين ان اختيار عمر صهيباً دون الستة من أصحاب الشورى ليصلي بالناس في خلال الأيام الثلاثة التي يتشاورون فيها مظهر من مظاهر الديمقراطية العربية . ولكننا نرى أن عمر لم يكن يهدف الى تحقيق فكرة الديمقراطية ، بل خاف ان يعهد بالصلاة الى أحد هؤلاء الستة أصحاب الشورى أو غيرهم ، حتّى لا يتخذ من يختاره مبدأ انابته في الصلاة حجة في استحقاقه للخلافة ، أو تفضيلاً له على غيره . فقد كانت انابة الرسول أبا بكر في الصلاة أثناء المرض حجة توصل بها أبو بكر الى الخلافة .

مات عمر وهو مطمئن على مستقبل الخلافة بعد ان وضع هذا النظام المحكم للشورى . ولكن برغم غياب طلحة وانحصار الأمر بين هؤلاء الخمسة من رجال الشورى فقد اشتد تنافسهم . فقد كان كل منهم شديد الحرص على أن تكون الخلافة له ، أو على الأقل لأحد من أقربائه أو ذوي عصبيته ، أو للشخص الذي تتحقق مصالحه الشخصية لديه اذا تولاها .

فقد كان علي يعتقد منذ وفاة الرسول أنه أحق المسلمين بالخلافة لأسباب عدة ارتآها . أما عثمان ــ وكان أكبر المرشحين سناً ــ فقد كان يرى استحقاقه لها ، فقد ضحى بمعظم ماله في سبيل عزة الاسلام ، كما كان وراءه حزب كبير هو الحزب الأموي . وأما سعد والزبير فكانا يميلان الى عثمان . بقي عبد الرحمن بن عوف ، وكان صاحب رأي سديد ، قدره عمر حق قدره فجعل لرأيه في الشورى أهمية خاصة . ولذا كان عبد الرحمن هو رجل الشورى بحق ، فقد أدارها بطريقته الخاصة ، وكان هدفه مصلحة المسلمين .

اشتد الجدال ، فاقترح عبد الرحمن بن عوف أن يتنازل أحدهم عن حقه في الخلافة على أن يكون له أمر اختيار الخليفة من بين هؤلاء الستة ،

فلم يجبه أحد . فأعلن ابن عوف تنازله ، وبدأ يستشير أصحاب الشورى ، فلاحظ أن الاختيار يدور حول علي وعثمان ، وأن الأنظار اتجهت الى هذين الصحابيين دون غيرهما . ولكن الزبير وسعد بن أبي وقاص ومعظم الصحابة وأمراء الأجناد كانوا يميلون الى تقديم عثمان ، بل ان علياً قال انه لو لم يحضر الشورى لاختار عثمان .

انتهى أمر الشورى باختيار عثمان ، فقد قبل العمل بكتاب الله وسنّة رسوله وسيرة الخليفتين – أبي بكر وعمر – بلا قيد أو شرط ، على حين قال عليّ انه سيعمل بمبلغ علمه وطاقته (١) .

وهنا يحار المرء في بحث ناحية خطيرة في هذا الانتخاب، وهي تتعلق بموقف الأمويين من انتخاب عثمان ، وهل كانوا من الكثرة بالمدينة بحيث استطاعوا أن يجمعوا حولهم عدداً كبيراً من الناس بالمدينة استطاع مزاحمة أنصار علي وحمل عبد الرحمن بن عوف على تقديمه وترشيحه ؟

هل كانت الارستقراطية الملكية التي حاربت الرسول من القوة في المدينة ، بحيث استطاعت مزاحمة علي في الانتخاب ، وحمل الناس على تأييد عثمان ، والجهر بهذا التأييد ، حينما راح عبد الرحمن بن عوف يدور بين القوم هذه الأيام الثلاثة التي سبقت الانتخاب ليتعرف على رأي الناس ؟

لم تذكر المصادر العربية ما يؤيد هذا الرأي . ولكن يبدو انه لم تكن هناك أكثرية ساحقة تميز واحداً من المرشحين على الآخر في المدينة . ولو كانت هناك أكثرية ظاهرة قوية ، لأخذ ابن عوف بها ، ولما لجأ الى سؤال كل من عثمان وعلي ان كانا يعملان بكتاب الله وسنّة رسوله وسيرة الخليفتين .

---

١ – الطبري : ج ٥ ص ٣٤ – ٣٧ ، وابن الاثير : الكامل ج ٣ ص ٣٠ – ٣٢ .

ولكن علياً أبى أن يقيد نفسه ، وأراد ان يحكم باجتهاده ، وخشي ابن عوف من هذا التشدد . واضطر الى اختيار عثمان الذي كان « سهلاً ليناً » . ونحن لا نشك في اخلاص ابن عوف ، بعد أن أخرج نفسه من الخلافة ، وتخلى عن حقه في الانتخاب .

كانت بيعة عثمان أقرب الى الشورى من بيعة عمر ، اذ قد تعدد المرشحون للخلافة ، وكان للمجتمعين بمسجد المدينة ، من الصحابة وغيرهم ، أثر كبير في توجيه هذا الانتخاب وحصر الخلافة في واحد من اثنين هما عثمان وعلي . وقد تكون هذه الطريقة التي أشار بها عمر في اختيار خليفته صالحة لو أنها وجدت البيئة الصالحة لها . ويزعم بعض أنها ناقصة ، لأنها ضيقت دائرة الناخبين الى حد بعيد فجعلتهم ستة ، وأهملت جمهور المسلمين ، كما أدت الى ظهور التنافس بين عثمان وعلي ، أو بعبارة أخرى بين بني هاشم وبني أمية ، وانقسم المسلمون بسبب ذلك الى أمويين وهاشميين أو علويين ، لأن علي بن أبي طالب كان هو المقدم في بني هاشم[1] .

خلافة علي :

ظهرت مشكلة الخلافة من جديد بعد مقتل عثمان . ومن البديهي أن يتطلع المسلمون الى أهل الشورى ، وقد أصبحوا بعد موت عبد الرحمن ابن عوف ومقتل عثمان أربعة . ولكن سعد بن أبي وقاص اعتزل الأمر وتجنب الفتنة ، فلم يبق اذاً إلا عليّ وطلحة والزبير . وقد اختلف الثوار فيمن يختارون من بينهم : فرغب أهل مصر في على ، ورغب أهل الكوفة في الزبير ، بينما كان هوى أهل البصرة مع طلحة[2] . وكان كل فريق

---

١ – حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ١ ص ٤٣٦ .
٢ – أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج ١ ص ١٦٩ .

يختلف الى صاحبه يعرض عليه الخلافة فيمتنعون ويأبون . فرأى الثوار أنهم لن يستطيعوا وحدهم أن يقيموا للناس اماماً ، وأنه لابد من أن يعينهم المهاجرون والأنصار على ذلك بترشيح أحد هؤلاء الثلاثة[1] . ولما رأى الثوار أن الغالبية العظمى تميل الى تولية علي ، عملوا على تحقيق رغبتهم بأسرع وقت حتى يعودوا الى أمصارهم . ورأى ثوار البصرة والكوفة أن يبايعوا لعلي خضوعاً لرأي غالبية المهاجرين والأنصار والثوار من جهة ، ولشعورهم بأن علياً سوف يصل الى الخلافة حتماً من جهة أخرى . فقد كان علي ذا شخصية قوية وسبق في الاسلام وقرابة من رسول الله ، فضلاً عن أن اختيار الزبير يغضب البصرة ، وانتخاب طلحة لا يرضي الكوفة ، مما يؤدي الى انقسامهم ثم الى ضعفهم ، فرأوا ان في اختيارهم لعلي تجنباً لهذا الانقسام وتوحيداً لكلمتهم ، وارضاء لثوار مصر الراغبين في علي ، وارضاء لبعض أهل العراق الذين يتشيعون لعـلي ، وخاصة ان علياً يمثل بني هاشم أعـدى أعداء بني أميـة الذين قتلوا بالأمس زعيمهم عثمان ابن عفان [2] .

أقبل ثوار الكوفة والبصرة ومصر يعرضون على علي الخلافة ، وكلمه الأشتر زعيم الكوفة في ذلك ، فأبى وامتنع ، ولكنهم ألحوا عليه وأرغموه على قبول البيعة . ثم رأى الثوار أن تكون بيعته عامة كبيعة من سبقه من الخلفاء ، فتوجهوا الى المهاجرين والأنصار ، فقالوا لهم : دونكم يا أهل المدينة ، فقد أجلناكم يومين ، فوالله لئن لم تفرغوا لنقتلن غداً علياً وطلحة والزبير وأناساً كثيرين [3] . فأسرعوا الى البيعة لعلي بالخلافة . ولكن امتنع سعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، وطلحة والزبير ، عن البيعة . فلم يهتم ثوار

---

١ – طه حسين : علي وبنوه ص ٩ .
٢ – تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي ، للمؤلف ص ٣٣ .
٣ – الطبري : ج ٥ ص ١٥٦ .

الكوفة والبصرة بسعد وابن عمر فليس لهما من يشايعهما في الأمصار الاسلامية أو يرشحهما للخلافة ، أما طلحة والزبير فأرغموهما على البيعة . ثم قامت عامة الناس فبايعوا علياً بالخلافة (١) .

كان انتخاب علي شورياً ، وان لم يكن هذا الانتخاب عاماً لتفرق أكثر الصحابة في الأمصار ، وان لم يكن انتخابه بالطريقة التي انتخب بها من سبقه من الخلفاء ، فقد انتخب ابو بكر عن رضا من الصحابة الذين اجتمعوا في المدينة وان كانوا قد اختلفوا في بادىء الأمر ، وبعد وفاة أبي بكر لم يكن ثمة اختلاف في الأمر ، لأنه كان قد عهد الى عمر ، ورأى المسلمون وجوب طاعته . ثم بويع عثمان بمقتضى قانون الشورى الذي سنه عمر . أما من يقول ان علياً لم يبايعه الا أهل المدينة ، وانه لم يؤخذ في ذلك رأي غيرهم من المسلمين في الحواضر الاسلامية ، فيمكن الرد على ذلك بأن مذهب مالك برمته على رأي أهل المدينة (٢) .

وخلاصة القول ، ان اختيار الخلفاء الراشدين الأربعة ، كان انتخاباً ديمقراطياً حرّاً ، لأن الخلافة في عهد بني أمية أصبحت ملكاً وراثياً استبدادياً ، لا شأن للرعية فيه ، ولا رأي لها في اقراره . وان كان الانتخاب في عهد الخلفاء الراشدين ضيقاً لا يتعدى أهل المدينة – كما ذكرنا – ولا يؤخذ فيه رأي الأمصار البعيدة ، فقد كانت الظروف تحتم ذلك ، فالمواصلات صعبة بطيئة ، ولا بد من اختيار الخليفة في وقت قصير ، تلافياً للاضطرابات والانقسام .

---

١ – أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج ١ ص ١٧٢ .

٢ – حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ١ ص ٤٣٦ .

حكومة الخلفاء الراشدين :

كانت المدينة عاصمة الدولة العربية الاسلامية التي أنشأها محمد عليه الصلاة والسلام . وكانت ادارة هذه الدولة وادارة المناطق المجاورة لها خاضعتين لسلطة النبي مباشرة . أما بلاد العرب فقد قسمت الى مقاطعات هي : المدينة ، وتيماء ، والجند ، ومقاطعة بني كندة ، ومكة ، ونجران اليمن ، وحضرموت . وعمان ، والبحرين . ونصب الرسول على كل مقاطعة من هذه المقاطعات والياً عهد اليه بإقامة الحدود وانفاذ الأحكام وتوطيد النظام واعداد الترتيبات الخاصة بالقضاء .

وإلى جانب الولاة عين الرسول عمالاً على كل منطقة لجمع الزكاة والصدقات. وكان الرسول هو القاضي الأعلى للدولة ومقره المدينة ، وكان يتولى بنفسه تعيين قضاة الولايات ، أو يأمر الولاة بتعيين من يصلحون لهذا المنصب . وكان معظم القضاة من الفقهاء او الصالحين مثل علي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل .

كان الحكم في عهد الخلفاء الراشدين شيئاً أقرب الى الأمور الدينية منه الى سواها وغيرها ، وهو في الواقع حكم الفطرة والبساطة دون تعقيد .

انتظمت الحكومة في عهد الخليفة الأول أبي بكر في شخص واحد هو الخليفة نفسه ، فكان صاحب التشريع والتنفيذ ، وكان الحاكم والقاضي ، والمنفذ لما يصدره من أوامر ، وما يشرعه من حدود ، وهي ظاهرة تراها في حياة العائلة عند الرومان والعرب البدو .

ولكن كان ابو بكر يعهد الى بعض الصحابة ببعض واجباته ، فقد ولى عمر بن الخطاب القضاء في المدينة ، وعهد إلى أبي عبيدة بن الجراح بأمانة بيت المال . لم يتخذ أبو بكر كاتباً معيناً فكان يكتب لـــه زيد بن ثابت وعثمان ابن عفان وعلي بن أبي طالب ، وكان يكلفهم بالكتابة له حين تدعو الحاجة .

وكانوا جميعاً يؤدون ما يعهد به اليهم دون أجر ، ولذا لا نعتبرهم موظفين في الدولـــة .

كانت الدولة الاسلامية في عهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق مؤلفة من الجزيرة العربية نفسها ، لأن الأقطار الجديدة المفتوحة في العراق ومشارق الشام لم تكن لعهده قد تقررت وانتظمت شؤون الحكم فيها ، وكانت لا تزال تحت الحكم العسكري للقواد المختلفين الذين كانوا يفصلون في شؤونها ويشرفون على مصالحها وأمورها .

أما الجزيرة العربية فقد جزأها الخليفة الأول الى ولايات ، وجعل على كل ولاية أميراً ، وكان الأمير يقيم الصلاة . ويقضي في القضايا ويقيم الحدود . فكان كالخليفة حاكماً وقاضياً .

وكان أبو بكر يرتزق أول الأمر من استغلال أرضه ، وعمل يده . وقد ظل ستة أشهر من خلافته وهو على حاله هذا ، لا ينفق على نفسه من بيت المال شيئاً ، حتى اجتمع بعض كبار الصحابة وقرروا له شيئاً من بيت المال ، ففرضوا له قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا أقلهم شأناً ، وكسوة الشتاء والصيف ، وبلغ ما فرض له حوالي ستة آلاف درهم ، فلما حضرته الوفاة أمر برد ما أخذه من الأموال العامة .

كان يساعد الخليفة مجلس من الكبار المسنين هم أهل الشورى ، وكان يتألف من كبار الصحابة ، وكانت جلساته تعقد في مسجد النبي . وفي غالب الأحيان كان يساعد هذا المجلس أعيان المدينة وزعماء البدو الوافدون اليها ، فضلاً عن أنه كان في مقدور كل فرد ممن يحضر المسجد أن يدلي برأيه . وكان شيوخ المجلس من بين المهاجرين والأنصار .

يجمع المؤرخون على أن عمر بن الخطاب أول منظم اداري للدولة العربية الاسلامية الناشئة ، وعمر باجماع مؤرخي العرب والفرنجة يقف وحده في

الصف الأول بين حكام العالم من عرب وعجم ، والمؤرخون الافرنج يقدرون فيما يقدرونه فيه شخصيته النادرة وبراعته ، وبُعد نظره ، وهدوء أعصابه وحسن ادارته ، وقد تمكن بها جميعاً من تسيير دفة الفتوحات في طول الأرض وعرضها وهو في مكانه بالمدينة .

ويقول المؤرخ (نولدكه)[1] في عمر : انه كان وهو في مقره بالمدينة يدير حركات الجيوش العربية الفاتحة ، وكان يعيش حياة بسيطة متواضعة تثير الاعجاب حقاً ، بينما كانت الفتوح العربية تدر على بيت المال الغنائم الوفيرة ، والثروات الطائلة ، والأموال العظيمة فلا يأبه لها ، ولا يكاد يرمقها ، وهذه ظاهرة فريدة في تاريخ العباقرة في التاريخ ، تدل على أن عمر بن الخطاب كان فذاً بين الرجال الأبطال .

ظل النظام الاداري للحكومة الاسلامية في الجملة على ما كان عليه في بلاد الفرس والروم . فقد وجد العرب أن هذه الأمم التي بنوا حضارتهم على انقاضها ذات تاريخ مجيد عريق في الحضارة والمدنية والنظم السياسية . فلم يكن بد اذن من قبول هذا النظام وابقائه على ما كان عليه من قبل ، ثم احداث ما يتطلبه الاصلاح من التغيير الذي يتفق وعقائدهم الدينية ويتمشى مع مصلحة الشعوب التي دانت للمسلمين [2] .

حرص عمر بن الخطاب على تحقيق الديموقراطية ونظام الشورى . وعندما يقتضي الأمر الفصل في مسائل خطيرة ، كان عمر يدعو الى اجتماع عام للمسلمين في مسجد النبي . وكان كبار الصحابة يشهدون هذه الاجتماعات ، وكان الاجتماع يستغرق أحياناً عدة أيام . ومثال ذلك ، عندما أثيرت مسألة ما اذا كانت أراضي العراق والشام التي فتحها المسلمون تقسم بين

---

١ – Historians, Hist. of the World Vol., I

٢ – حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ١ ص ٤٣٣ .

الجند أم لا ، استدعي ممثلون عن كل قوم من أقوام العرب المقيمين في المدينة . وعقد اجتماع آخر هام عشية واقعة نهاوند ، اذ اراد الخليفة عمر أن يقود الجيش العربي بنفسه ، وعارض عثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن ابن عوف هذه الفكرة ، وحالت الأغلبية دون ذهاب الخليفة بنفسه . وقد فصلت الشورى في مسائل كثيرة تتعلق بالدولة ، مثل رواتب الجند ، وانشاء الوظائف والدواوين المختلفة ، وتعيين العمال وحق الأجانب في الاتجار في بلاد المسلمين وجباية الضرائب منهم ، الى غير ذلك .

كان لتلك المناقشات التي كانت تجري بين أعضاء هيئة الشورى صفة معترف بها ، فقد كانت الشورى دعامة أساسية في أداة الحكم في الدولة الاسلامية . وقد صرح الخليفة عمر بن الخطاب في جلاء أنه « لا خلافة بدون شورى » ومن ثم غدت الشورى من الوجهتين النظرية والعملية ركناً جوهرياً يرتكز عليه نظام الحكم[1] .

والى جانب الشورى كانت هناك طبقة أخرى من صفوة المهاجرين ، تتألف من علي وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير ونفر قليل غيرهم ، اعتاد الخليفة ان يستشيرهم في شئون الادارة اليومية .

بل كان في مقدور المواطن العادي اذا شاء ، أن يسهم في ادارة الدولة ، فقد كان عمر حريصاً على الديموقراطية ، فعندما أثيرت مسألة تعيين جباة للضرائب في الكوفة والبصرة والشام أمر مواطني تلك الأقاليم بأن يختاروا من بينهم الأشخاص الذين يرونهم أهلاً لهذه الثقة . وعين عمر من اختارهم أهالي الأقاليم .

---

١ — حسيني : الادارة العربية ص ٨٧ .

حكم الولايات في عهد الخلفاء الراشدين :

لم تكن حكومة الرسول حكومة دينية فحسب ، بل كانت حكومة سياسية ايضاً ، فقد كان يقود الجيوش ويفصل في الخصومات ويجبي الأموال ومن ثم جمع في يده السلطتين الدينية والسياسية معاً . ولما هاجر الرسول الى المدينة وضع نظام الدولة الاسلامية وكان ينيب عمالاً على القبائل وعلى المدن . وكان على كل مدينة كبيرة أو قبيلة في الحجاز واليمن عامل من قبله ، يقوم بامامة المسلمين في الصلاة وجمع الزكاة ، ومن ثم لم يكن لهؤلاء العمال صفة سياسية .

ولما تولى أبو بكر الخلافة أقر عمال الرسول على أعمالهم ، وقسمت بلاد العرب الى عدة ولايات هي : مكة ، والمدينة ، والطائف ، وصنعاء ، وحضرموت ، وخولان ، وزبيد ، ورمع ، والجند ، ونجران ، وجرش ، والبحرين .

وفي عهد عمر بن الخطاب اتسعت الدولة العربية الاسلامية نتيجة الفتوحات ، فقسم عمر الدولة الى ثماني ولايات وهي : مكة ، والمدينة ، والشام ،والجزيرة (وهي بلاد ما بين النهرين) ، والبصرة ، والكوفة ، ومصر ، وفلسطين ، وكانت فلسطين في عهد البيزنطيين ولاية مقسمة الى عشر مقاطعات ، غير أن عمر بن الخطاب قسمها الى مقاطعتين كبيرتين ، حاضرة الأولى أيلة ، وحاضرة الثانية الرملة ، وجعل لكل مقاطعة منها حاكمها الخاص . وقسمت مصر الى مصر العليا ومصر السفلى ، وعرف القسم الأول بالصعيد ، وكان يشتمل على ثمان وعشرين مقاطعة ، وعين حاكماً عليه ابن أبي السرح ، اما القسم الثاني فكان يشتمل على خمس عشرة مقاطعة ، كان يحكمها عمرو بن العاص ، الذي كان في نفس الوقت الوالي على مصر كلها . وأبقى الخليفة عمر على الأقسام الادارية التي كانت قائمة في عهد الدولة الفارسية ، وكانت تلك المقاطعات القديمة هي فارس وكرمان وخراسان ومكران وسجستان وآذربيجان .

كان كبار الموظفين في الولاية هم : الوالي ، والعامل ، والقاضي ، وكاتب الديوان ، وصاحب بيت المـال . وكـان لكل ولاية مقر دائم للحكومة يسمى بدار الامارة ، كما كان لها أمناء دائمون يسمون بالديوان . وعندما وجه عمر ، عمار بن ياسر ليكون والياً على الكوفة ، بعث معه هيئة مدربة يوثق بها تتألف من عشرة أشخاص، وكان لكل مقاطعة حاكمها ويسمى بالعامل ، وقاضيها الذي يفصل في أقضية المقاطعة . على حين يتبع جميع موظفي المقاطعة حاكم الولاية وهو الوالي ، وكان لكل قسم من الأقسام الفرعية للمقاطعة عامله والهيئة التابعة له[1] .

عين عمر بن الخطاب على الولايات عمالاً أو ولاة يستمدون سلطتهم من الخليفة الذي كان يجمع في يده السلطتين التنفيذية والقضائية . وكان أمراء الأقاليم يسمون عمالاً ؛ ومعنى عامل يفيد أن صاحبه ليس مطلق السلطة ، وقد استعملت كلمة وال فيما بعد، وهذا يشعر بأن العامل قد أصبح له النفوذ والسلطان كما كان الحال مع الحجاج بن يوسف الثقفي في عهد عبد الملك بن مروان ، كذلك أطلقت عليه كلمة أمير . وان تطور هذا اللفظ على هذا النحو يدل على السلطة الاستبدادية التي كان يتمتع بها الولاة[2] .

كان في كل اقليم عامل (أو وال أو أمير) يقوم بامامة الناس في الصلاة ، والفصل في النزاع وقيادة الجند وجمع المال وما الى ذلك . وكان عامل الخراج أهم هؤلاء العمال ، وكان يعمل مع الوالي جنباً الى جنب ، هذا يدير دفة السياسة وذاك يتولى شئون الدولة المالية . وكان بمثابة الرقيب على أعمال الوالي مما أدى الى تنازع السلطة وقيام المنافسة بينهما . الأمر الذي يعلل قصر عهد الولاة وعمال الخراج . فكان عامل الخراج يوليه الخليفة

---

١ – حسيني : الادارة العربية ص ٨١ .
٢ – حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ١ ص ٤٥٣ .

مباشرة ، ولكن الأمير كان يتمتع بالسلطة المطلقة .

اختار عمر الولاة من العرب ، وسار على هذه السياسة من جاء بعده من الخلفاء الراشدين والأمويين، وكان عمر حريصاً كل الحرص على أن يأخذ عماله بسيرته ، ويتحروا أساليبه ونزاهته ، وهذا سبب مراقبته لعماله واستطلاع أخبارهم ، وأخذ المذنب منهم بالقصاص الشديد والعقوبة البليغة . وكان عمر يسأل الرعية اذا وفدت عليه في موسم الحج ، وفي غير ذلك الموسم ، عن حال امرائهم وسيرتهم فيهم . وكان عمر قد أقام محمد ابن مسلمة مفتشاً عاماً يرسله الى كل بلد شكا أهله من أميرهم ، وكان عمر يثق به ثقة عظيمة . وكان عمر يحصي أموال عماله قبل توليتهم فاذا زاد لهم مال بعد ولايتهم صادره . وقد صادر عمر أموال عامله على مصر عمرو بن العاص ، وأموال عامله على البحرين أبي هريرة ، وقد ذهب كل منهما أنهما نميا ثروتهما من التجارة ، ولكن عمر بن الخطاب كان يرى أن يحصر العامل كده في خدمة أهل عمله ، أما الاتجار وتثمير الأموال فهذا ليس من شأن عمال الدولة .

وكان عمر لا يولي عاملاً الا اذا كتب له عهداً وأشهد عليه رهطاً من المهاجرين والأنصار ، واشترط عليه ألا يركب برذوناً (حماراً) ، ولا يأكل نقياً ، ولا يلبس رقيقاً ، ولا يتخذ باباً دون حاجات الناس [1] .

وضع عثمان بن عفان لولاته خطوطاً عريضة للسياسة التي يتبعونها ، فقد كتب الى عماله يقول : « أما بعد فان الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ، ولم يتقدم اليهم ان يكونوا جباة . وان صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة ، فاذا

---

١ — الطبري ج ٥ ص ٢١ .

عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء ، الا وان أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم، فتعطوهم ما لهم وتأخذوهم بما عليهم ، ثم تثنوا بالذمة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم ، ثم العدو الذي تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء »[1] .

وفي خلافة عثمان كثرت الولايات بتكاثر الفتوح ، وكان والي الشام حينئذ معاوية بن ابي سفيان ، وقد استغل ثقة عثمان فيه وتساهله فأخذ يعين الموظفين والعمال المختلفين في مدن الشام الواقعة ضمن ولايته مثل حمص وقنسرين والأردن وفلسطين ، كما عين القضاة أيضاً . والى جانب ولاية الشام كانت هناك ولايات الكوفة ، والبصرة ، وقرقيسيا ، وآذربيجان ، ونهاوند ، والري ، وهمذان ، وأصفهان ، وحلوان . وكانت افريقية تابعة لأمير مصر . وكان شرقي الجزيرة العربية — البحرين وعمان — يتبعان أمير البصرة، ولم يحدث تبديل كبير في عهد عثمان في دواوين القضاء ، وقد عين عثمان قاضياً خامساً في المدينة نيابة عنه بعد أن أصبح عاجزاً عن الجلوس للقضاء بين الناس . ولم يكن الخليفة يعين سوى قضاة المدن الكبرى أما المدن الصغيرة فكان العامل يقوم مقام القاضي فيها ، كما كان يقوم بالصلاة وغير ذلك .

أما علي بن أبي طالب فلم يغير كثيراً من النظم الادارية التي كانت سائدة في عهود عمر وعثمان ، فقد انشغل بالثورات والفتن الداخلية وقتاله معاوية ، ولكنه ألغى ما أقطعه عثمان لأسرته في العراق ، كما عزل بعض عمال عثمان واستبدلهم بغيرهم ، وأصلح بعض الأخطاء .

---

١ — الطبري ج ٥ ص ٤٤ .

القضاء في عهد الخلفاء الراشدين :

كان الرسول أول من تولى القضاء في الاسلام ، ثم تولاه خلفاؤه ، لأن القضاء من المناصب الداخلة تحت الخلافة . فكان الخلفاء في صدر الاسلام يباشرونه بأنفسهم ولا يجعلونه الى من سواهم ، حتى اذا اتسع سلطانهم وكثرت مهام مناصبهم اضطروا الى استنابة من يقوم عنهم بالقضاء . وأول من فعل ذلك منهم عمر بن الخطاب فولى أبا الدرداء معه في المدينة ، وولى شريحاً في البصرة ، وولى أبا موسى الأشعري في الكوفة ، وكتب اليه كتاباً هو قاعدة الفقه الاسلامي ، وعليه تدور أكثر أحكام القضاة الى اليوم . وهـــذا نصه :

« أما بعد : فان القضاء فريضة محكمة وسنّة متبعة ، فافهم اذا ادى اليك ، فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له . ساو بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى واليمين على من أنكر . والصلح جائز بين المسلمين ، الا صلحاً : أحل حراماً أو حرم حلالاً ، ولا يمنعك قضاء قضيته أمس فراجعت اليوم فيه عقلك ، وهديت فيه لرشدك ، أن ترجع الى الحق ، فان الحق قويم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل . الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنّة . ثم اعرف الأمثال والأشباه وقس الأمور بنظائرها . واجعل لمن ادعى حقاً غائباً او بينة أمداً ينتهي اليه ، فان أحضر بينة أخذت له بحقه والا استحللت القضية عليه ، فان ذلك أنفى للشك وأجلى للعماء . المسلمون عدول بعضهم على بعض . الا مجلوداً في حد . أو مجرباً عليه شهادة زور . أو ظنيناً في نسب أو ولاء . فان الله سبحانه عفا عن الأيمان ودرأ بالبينات . واياك والقلق والضجر

والتأفف بالخصوم . فان استقرار الحق في مواطن الحق يعظم به الله الأجر ويحسن به الذكر والسلام »[1] .

يجب ان يكون القاضي طبقاً للشريعة الاسلامية ذكراً بالغاً ، مكتمل القوى العقلية ومواطناً حراً مسلم العقيدة . غير متهم في دينه أو مروءته . سليم السمع والبصر . واسع الالمام بالفقه والشريعة . ولم يعين في مناصب القضاء غير كبار الفقهاء المعروفين بالسداد والاستقامة . وكان عمر بن الخطاب يختبر المرشحين للقضاء في فطنتهم وحذقهم في تفهم الأقضية ومقدرتهم على الفصل فيها وذلك قبل تعيينهم . وكان القضاة يمنحون مرتبات سخية حتى لا تدفعهم الحاجة الى أخذ الرشا . ولم تكن هناك شكوى واحدة طوال عهد الخلفاء الراشدين تدل على أن أحد القضاة قبل أية رشوة أو تصرف تصرفاً يدل على التحيز والهوى ، كما أن الميل الى التقاضي كان ضئيلاً في ذلك العهد الى درجة بالغة . وكانت المساجد تتخذ مكاناً تنعقد فيه هيئة المحكمة . ولم تفرض رسوم على المتقاضين لقاء الفصل في القضايا .

كان القضاء في عهد الخلفاء الراشدين مستقلاً محترم الجانب . وكان القاضي يحكم في بعض الأحيان بحسب ما يوحي اليه اجتهاده . بمعنى أنه اذا سئل في واقعة وقعت بالفعل أخذ من النصوص الواردة في الكتاب والسنّة الحكم المراد تطبيقه . فان لم يكن في الواقعة نص من الكتاب والسنّة اجتهد برأيه وقاضى الأمور بأشباهها .

لم يكن للقاضي كاتب أو سجل تدون فيه الأحكام . لأنها كانت تنفذ على أثر البت فيها . وكان القاضي يقوم بتنفيذها بنفسه . كما كان القاضي يجلس للحكم في منزله أولاً . ثم أصبح يجلس في المسجد ليفصل

---

١ – مقدمة ابن خلدون ص ٤ .

في الخصومات . ولم يكن السجن بمعناه المعروف موجوداً في زمن الرسول ولا في عهد أبي بكر وانما استحدث في عهد عمر بن الخطاب . اذ كان الحبس لا يتعدى في عهد الرسول منع المتهم من الاختلاط بغيره وذلك بوضعه في بيت أو مسجد . وملازمة الخصم أو من ينيبه عنه له . فلم يكن السجن اذن مكاناً يحبس فيه المجرم كما كانت عليه الحال في عهد عمر ومن جاء بعده من الخلفاء (١) .

كان القضاء في مصر موكولاً الى أمرائها ، وهم الذين كانوا يولون قضاتها ، وكان عمر بن الخطاب قد أراد أن يولي قاضي مصر ، كما ولى قضاة المدينة والبصرة والكوفة ، فكتب الى عمرو بن العاص أن يولي القضاء كعب بن يسار بن ضنة . وكان ممن قضى في الجاهلية . فأبى كعب أن يقبل ذلك وقال: « قضيت في الجاهلية ولا أعود إليه في الاسلام » . فولى عثمان بن قيس بن أبي العاص . وما زال أمير مصر هو الذي يولي القضاة حتى أفضت الخلافة الى بني العباس ، فأرادوا توطيد سلطانهم على مصر ، فجعلوا تولية القضاة اليهم . وأول قاض ولاه الخلفاء على مصر مباشرة عبد الله بن لهيعة الحضرمي . ولاه أبو جعفر المنصور سنة ١٥٥ هـ . ثم صارت تولية قضاة مصر الى الخلفاء (٢) .

---

١ – حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ١ ص ٤٨٥ .
٢ – جرجي زيدان : تاريخ التمدن جـ ١ ص ٢٤٥ .

٥ . الخلافـــة الأموية في دمشق

قيـــام الخلافة الأموية :

بدأ العداء بين بني هاشم وبني أمية في العصر الجاهلي ، فقد تنافسوا حول المناصب الكبرى ، وخاصة سدانة الكعبة ، وكان نزول الوحي على محمد الهاشمي مما زاد بني هاشم مجداً ورفعة ، وقاد أبو سفيان شيخ بني أمية لواء المعارضة ضد محمد ، حتى اذا اعتنق بنو أمية الاسلام حاولوا ان يكون لهم من النفوذ ما يجعلهم يقفون على قدم المساواة مع بني هاشم .

أتيحت لهم هذه الفرصة حينما أدخل عمر بن الخطاب ، قبيل وفاته ، عثمان بن عفان ضمن الستة أصحاب الشورى . وكان فوز عثمان دون علي ابن أبي طالب انتصاراً لبني أمية على بني هاشم ، وبدأ منذ ذلك الحين حكم بني أمية للدولة العربية الإسلامية ، فقد كان الخليفة أموياً واختار ولاته من بين الأمويين ، وكانت خلافة علي بن أبي طالب مرحلة انتقال بين الحكم الأموي المستتر وراء خلافة عثمان وبين الخلافة الأموية في دمشق التي أقامها معاوية بن أبي سفيان[1] .

كان مقتل عثمان والبيعة لعلي صدمة عنيفة للأمويين ، فقد خشوا أن

---

١ – تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي للمؤلف ص ٩ .

ينتقل الحكم الى الهاشميين الى الأبد ، فبدأ معاوية صراعه لعلي تحت ستار المطالبة بثأر عثمان ، واستطاع معاوية أن يسيطر على الشام ومصر ، وبدأ الصراع بين علي ومعاوية ، أو على الأصح بين الهاشميين والأمويين ، وانتهى بانتصار معاوية وقيام الخلافة الأموية في دمشق .

اختلف موقف المسلمين من قيام الدولة الأموية ، فمنهم المؤيدون ومنهم المعارضون . أما المؤيدون ، فمن بينهم من بايع بقلبه وايمانه بينما بايع البعض الآخر مكرهاً أو سعياً وراء منافع شخصية . أما هؤلاء الذين بايعوا عن ايمان وعقيدة فقد رأوا في حزب بني أمية حزب الدين والنظام [1] ورأوا أنه ما دام الحسن بن علي قد نزل عن الخلافة لمعاوية ، فقد أصبحت خلافته أمراً محتوماً ، فعليهم السمع والطاعة له ، واحترام اجماع الأمة [2] ، عملاً بالآية الكريمة : (يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) ، والحديث الشريف : « سيليكم بعدي ولاة ، فيليكم البر ببره ، ويليكم الفاجر بفجوره ، فاسمعوا لهم وأطيعوا في كل ما وافق الحق ، فان أحسنوا فلكم ولهم ، وان أساءوا فلكم وعليهم » . ورأت هذه الفئة ان الخلافة الأموية أمر مقرر قد تنبأ بها الرسول فقال : « الخلافة ثلاثون عاماً ثم يكون بعد ذلك الملك » [3] . بل ويعتبرون بيعة معاوية صحيحة وأن معاوية خليفة وليس ملكاً ، لأن تسليم الحسن بن علي له بالخلافة « عقد منه له » [4] ، ولو زعم البعض أنه ملك ، فلا مانع من ذلك ، فهنالك « مراتب في الولاية : خلافة ثم ملك . فتكون ولاية الخليفة للأربعة وتكون ولاية الملك لابتداء معاوية . وقد قال الله في داود (وآتاه الله الملك

---

١ — فان فلوتن : السيادة العربية ص ٧٠ .
٢ — الماوردي : الأحكام السلطانية ص ٣ .
٣ — السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٦ .
٤ — ابن العربي : العواصم من القواصم ص ١٩٩ .

والحكمة) ، فجعل النبوة ملكاً »[1] .

ورأت هذه الجماعة المؤيدة أن بيعة معاوية توافق تماماً ما جرت عليه القبائل العربية في الجاهلية ، فقد كانوا يختارون من يلي السابق في الأهمية في مجتمعهم ، واتبع هذا المبدأ في اختيار – او تعيين – الخلفاء الثلاثة الأول : أبي بكر وعمر وعثمان . ويمكن أن نعتبر أيضاً ان علياً وصل الى الخلافة في الزمن الذي قدمته الظروف الى الصف الأول ، دون ان يكون لذلك أي علاقة مع الارث أو التخصيص ، ولذا كان من الطبيعي أن تؤول الخلافة بعد علي الى معاوية ، فقد كان أبرز شخصية في ميدان السياسة[2] ، وكان معاوية جديراً بالخلافة ، فقد كان « مربي دول ، وسائس أمم ، وراعي ممالك »[3] . وكان له من الخبرة والتجربة ما يؤهله للخلافة ، فقد كان كاتب وحي الرسول ، ووالي عمر وعثمان على الشام لمدة عشرين سنة ، فتحنك في الادارة وأصبح اماماً في صناعته[4] .

وبجانب هذه الفئة المؤمنة بخلافة معاوية ، توجد فئة أخرى دفعتها الرغبة أو الرهبة الى البيعة لمعاوية . فقد اشترى بيعة بعض أهالي الأمصار الاسلامية بالأموال ، فأغدقها عليهم بلا حساب ، واشترى معاوية سكوت بني هاشم وبيعتهم ، وكان دائماً يمن عليهم بما أغدقه عليهم من أموال ، فيقول : « يا بني هاشم والله ان خيري لكم لممنوح ، وان بابي لكم لمفتوح ، فلا يقطع خيري عنكم علة ، ولا يوصد بابي دونكم مسألة ، ولما نظرت في أمري وأمركم رأيت أمراً مختلفاً ، فانكم لترون أنكم أحق بما في يدي مني ، واذا أعطيتكم عطية فيها قضاء حقكم »[5] فلا عجب أن خضع بنو

---

١ – ابن العربي : العواصم من القواصم ص ٢١ .
٢ – رونلدسن : عقيدة الشيعة ص ٨٢ .
٣ – الفخري ص ٨٧ .
٤ – كرد علي : الادارة الاسلامية ص ٦٥ .
٥ – ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ٩ .

هاشم للأمر الواقع ، وانصرفوا الى طلب الدنيا .

وهناك من دفعتهم الرهبة الى البيعة لمعاوية ، وان كرهوا ذلك ، فكان الرجل يحضر فيقول : والله يا معاوية اني لأبايعك واني لكاره لك . فيقول : بايع ، فان الله قد جعل في المكروه خيراً كثيراً [١] .

وبجانب هؤلاء الراغبين والراهبين توجد فئة من المسلمين أعلنت عداءها صراحة لمعاوية والدولة الأموية ، فقد اتحد الخوارج والشيعة على كراهية معاوية وبني أمية ، رغم عداء هذين الحزبين بالأمس ، أما الخوارج فقد كان بغضهم لمعاوية يفوق بغضهم لعلي ، فقد اعتبروه مغتصباً للخلافة لأن بيعته كانت تخالف تماماً نظريتهم في الخلافة .

أما الشيعة ، فقد كرهوا معاوية إلى أقصى حد يمكننا تصوره ، فقد اعتبروا عام الجماعة « عام فرقة وقهر وجبرية وغلبة ، والعام الذي تحولت فيه الامامة ملكاً كسروياً ، والخلافة غصباً قيصرية » [٢] . ويرى الشيعة ان معاوية لم ينتخب انتخاباً عاماً وان بيعته بعد صفين لم يشترك فيها جميع أهل الحل والعقد من المسلمين ، وانما انتخبه أهل الشام للخلافة بعد صدور حكم الحكمين [٣] ، وهم لا يعترفون بنزول الحسن لمعاوية ، فهو عمل فردي من جانبه لا يلتزمون به . بل هم لا يعترفون بحق بني أمية في الخلافة اطلاقاً « اذ ليس لبني أمية سبب الى الخلافة ولا بينهم نسب الا أن يقولوا : إنا من قريش ، فيساوون في هذا الاسم قريش الظواهر لأن قول النبي صلى الله عليه وسلم (الأئمة من قريش) واقع على كل قرشي ، ومع ذلك فأسباب الخلافة معروفة ... وان كانت لا تنال الا بالسابقة فليس لهم في السابقة

---

١ – اليعقوبي ج ٢ص ن ١٩٢ .

٢ – الجاحظ : رسالة برأيه في معاوية والأمويين ص ١٤ .

٣ – الخضري : تاريخ الأمم الاسلامية ج ٢ ص ١٥٣ .

قديم مذكور ولا يوم مشهور . فقد عرفنا كيف كان أبو سفيان في عداوته للنبي »[1] .

مميزات الخلافة الأموية :

بينما كانت خلافة الراشدين تقوم — الى حد كبير — على نظام الشورى والانتخاب ، أصبحت الخلافة الأموية ملكية وراثية تعتمد على السيف والسياسة .

وضع معاوية نظام ولاية العهد ، فتحول نظام الخلافة الراشدة الذي يعتمد على الشورى ويستند الى الدين ، الى النظام الملكي الذي يقوم على أساس التوريث ويستند الى السياسة أولاً والى الدين ثانياً ، وبذلك أصبحت الخلافة الأموية أقرب الى السياسة منها الى الدين ، واستحالت بذلك الى ملك .

ولكن علينا أن نقدر أثر البيئة في تطور نظام البيعة ، اذ انه لما كانت المدينة حاضرة الدولة العربية في عهد الخلفاء الراشدين ، كانت السيادة والنفوذ للعنصر العربي ، وقام ذلك النظام الذي يتفق وطبيعة العرب . فلما أصبحت دمشق حاضرة الدولة العربية ، تأثر العرب بالبيئة التي عاشوا فيها ، وغدا نظام الخلافة أشبه بالنظام الملكي أو القيصري ، ومن ثم زادت الصفة الزمنية في الخليفة . وكان معاوية متأثراً في ذلك بالنظام الذي كان سائداً في الدولتين البيزنطية والساسانية ، وسار في تحقيق هذه السياسة بمنتهى المهارة ، وأخذ لهذا الأمر الخطير أهبته في شيء كثير من الحيطة ، فأوحى الى ولاته في الأمصار ان يمهدوا السبيل لأخذ البيعة لابنه يزيد[2] .

استطاع معاوية توطيد دعائم ملكه ، باعتماده على دهاة العرب في ذلك

---

١ — المقريزي : النزاع والتخاصم ص ١٢ .
٢ — حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ١ ص ٤٧٣ .

الوقت من أمثال عمرو بن العاص والمغـيرة بن شعبة وزياد بن أبيه ، وكانوا ابعد الناس طمعاً في الخلافة كما كان معظمهم من صنائعه ، فاعتمد عليهم في القضاء على روح الفتنة . ومن وراء هؤلاء الدهاة ، يقف حزب بني أمية الذي كان يرى أن أمراء هذا البيت أحق بالخلافة بعد الخلفاء الراشدين — أبي بكر وعمر وعثمان — وأنهم أصحاب الحق في الأخذ بثأر عثمان والمطالبة بدمه لما كانت تربطهم به اواصر القربى[١] .

كانت طريقة اختيار معاوية ناقصة اذ لم ينتخب انتخاباً عاماً ، فلم يشترك في ذلك المسلمون جميعاً ، وانما انتخبه أهل الشام بعد صدور حكم الحكمين ، ثم نزل له الحسن بن علي عن الخلافة في ربيع الأول سنة ٤١ هـ . فخير ما توصف به بيعة معاوية أنها كانت « اختياراً من أهل الشام ، وبطريق الغلبة والقهر من أهل العراق »[٢] .

نقل معاوية حاضرة الدولة الى دمشق ، فقد رأى ان المدينة لم تعد تصلح لأن تكون حاضرة للدولة الاسلامية كما كانت في عهد الرسول وأبي بكر وعمر وعثمان . وقد أدرك علي بن أبي طالب هذا الأمر فنقل حاضرة خلافته الى الكوفة حيث شيعته وأنصاره . ثم نقل معاوية الحاضرة بدوره الى دمشق وقد كانت شيعته بالشام . ويرى السير توماس أرنولد[٣] أنه ما دامت الحكومة المركزية في المدينة فالنفوذ الاسلامي هو المسيطر ، اذ كان بامكان أصحاب النبي المخلصين أن يحاولوا تنظيم المجتمع الجديد حسب تعاليم الرسول . ولكن عندما جعل معاوية دمشق عاصمة الدولة ، تمكنت عاطفة العرب الجاهلية أن تأخذ مكانها من جديد ، فنجد العرب يعتبرون أنفسهم طبقة سامية مسيطرة تدير أمور الشعوب المحكومة .

---

١ — فان فلوتن : السيادة العربية ص ٦٨ .
٢ — الخضري : تاريخ الأمم الاسلامية جـ ٢ ص ١٥٢ .
٣ — الخلافة ص ١٠ .

ويعلق المؤرخ المقري[1] على نقل معاوية الحاضرة الى دمشق فيقول عن معاوية انه « لم يزل مستوطناً بالشام بمدينة دمشق الى أن تمكنت الخوارج في أقصى البلاد ، وتداخل الأمر بين العراقيين والحجازيين واليمانيين والشاميين ، وتفاقم بين كل منهم البغض والعداوة ، ولم يقدر لهم معاوية بشيء ليقضي الله أمراً كان مفعولاً » .

تميزت الخلافة الأموية بمظاهر الملك . يحدثنا ابن كثير[2] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ان هذا الأمر بدأ رحمة ونبوة ، ثم يكون رحمة وخلافة ، ثم كائن ملكاً عضوضاً ، ثم كائن عتواً وجبرياً وفساداً في الأرض ، يستحلون الحرير والفروج والخمور ، ويرزقون وينصرون حتى يلقوا الله عز وجل » . وروى ابن كثير أيضاً أن معاوية اعترف بذلك فقال : فما زلت أظن اني مبتلى بعمل لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (الخلافة بالمدينة والملك بالشام) . ويلخص اليعقوبي[3] مظاهر الملك في عهد معاوية فيقول : « وكان معاوية أول من أقام الحرس والشرطة والبوابين في الاسلام وأرخى الستور واستكتب النصارى ، ومشي بين يديه بالحراب ؛ وأخذ الزكاة من الأعطية ، وجلس على السرير والناس تحته ، وجعل ديوان الخاتم وبنى وشيد البناء وسخر الناس في بنائه ولم يسخر أحد قبله ، واستصفى أموال الناس فأخذها لنفسه ، وكان معاوية يقول : أنا أول الملوك » . ويرى مؤرخ الأدب العربي نيكلسون[4] « ان الأمويين كانوا ملوكاً بالفعل ، خلفاء بالاسم » .

---

١ ــ الجمان في أخبار الزمان (مخطوط) ورقة ١٤٠ .
٢ ــ البداية والنهاية جـ ٨ ص ٢٠ .
٣ ــ تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٢١٧ .
٤ ــ Lit. Hist. of the Arabs, P. 151.

معـاول الهـدم :

أولاً : الشيعة : كانت غاية حزب الشيعة في أول نشأته لا تعدو المطالبة بحق علي في الخلافة بعد الرسول ، ولما تولى علي الخلافة اعتبره الوصي والامام . ثم تطور حزب الشيعة تطوراً عظيماً بعد حرب صفين ومقتل علي ، فاقتصر نفوذ حزب الشيعة على بلاد العراق ، فكان بالحجاز أولاد الصحابة الذين لا يقرون الشيعة على مبادئهم[1] ، وصبغت مبادىء الشيعة السياسية بصبغة دينية[2] لأن الرسول كان حاكماً دينياً ودنيوياً .

وبعد مقتل علي تكون حزب ديموقراطي يتألف بصفة خاصة من العناصر العربية وانضم اليهم عدد كبير من الموالي . وكان قد ظهر في خلافة عثمان رجل يدعى عبد الله بن سبأ . وكان يهودياً اتخذ الاسلام ستاراً يستر به نياته السيئة للدين الجديد ، فبدأ ينشر فكرة أن علياً وأبناءه أنبياء في خلافة عثمان ثم نادى بها في خلافة علي ، ومن الانصاف ان نقول ان علياً لم يوافقه على الحاده ، فقد أمر باحراق بعض انصاره ونفى ابن سبأ الى المدائن . وكان قتل علي فرصة ذهبية لابن سبأ لنشر مبادئه ، فزعم ابن سبأ ان المقتول لم يكن علياً وانما كان شيطاناً تصور للناس في صورة علي ، وأن علياً صعد الى السماء كما صعد عيسى بن مريم[3] وزعموا ان علياً في السحاب ، واعتقد بعض الشيعة بالرجعة ، فعلي قد صعد الى السماء وانه سينزل الى الدنيا وينتقم من أعدائه[4] . ودفعهم هذا الاعتقاد الى التحمس لعلي وابنائه . فكانوا يقبلون على الموت معتقدين اعتقاداً راسخاً بأنهم سيعودون الى الحياة

---

١ – ديموميين : النظم الاسلامية ص ٤٩ .
٢ – جولد تسيهر : العقيدة والشريعة ص ١٧٥ .
٣ – البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٤٣ .
٤ – المرجع السابق .

بعد قليل[1] ، وعلى الرغم من مخالفة هذه المبادىء للاسلام ، فقد لاقت قبولاً من الموالي .

وكما تطورت عقائد الشيعة الدينية في العصر الأموي ، فقد تطورت مبادئهم السياسية أيضاً . وكانت تولية يزيد بن معاوية الخلافة هي نقطة التحول . فقد نظرت الشيعة الى طريقة توليه — وهي الطريقة التي اتبعها فيما بعد الخلفاء الأمويون — نظرة لا تنطوي على اقتناع أو رضى . أما الطريقة التي وصل بها يزيد الى الخلافة فهي تخالف رأي الشيعة في الخلافة ، وكان السائد في ذلك الوقت ثلاثة مبادىء للخلافة ، « فقالت فرقة : بالشورى وهم جميع الأمة الا الشاذ القليل . وقالت فرقة : بالقربى والوراثة . وقالت فرقة بالنص »[2] .

ورأت الشيعة أن الحسن ثم الحسين هم الخلفاء الشرعيون لعلي باعتبار أنهم أئمة ورثوا مرتبته في رئاسة الدولة وولاية الحكم فيها ، وفي العلوم والصفات الروحية التي اختص بها ، وكل إمام منهما وصي لسلفه الذي عينه باقراره الصريح . وتعد الشيعة كل دستور غير هذا للخلافة اغتصاباً وقهراً ، ولذلك فانها لم تعترف بحق يزيد في الخلافة ، ورأوا في خلافته أمراً مخالفاً للدين ومبادىء الشيعة السياسية ، مما يوجب عليهم مكافحة هذه الخلافة الأموية حتى يعود الحق لأهله .

خرج الحسين بن علي من الحجاز إلى العراق تلبية لدعوة أهل الكوفة ليقدم عليهم حيث يبايعونه خليفة ، وأمر الخليفة يزيد بن معاوية واليه بالعراق عبيد الله بن زياد بأن يخمد هذه الفتنة فبعث بجيوشه فالتقت بالحسين وصحبه في كربلاء ، ودارت معركة بين فريقين غير متكافئين انتهت بمصرع الحسين .

بعد مصرع الحسين ، اتجهت الشيعة اتجاهاً دينياً ، بل غلب الجانب الديني

---

١ — كريمر : الحضارة الاسلامية ص ٧٦ .

٢ — ابن نشوان : الحور العين ص ١٥٠ .

في التشيع الجانب السياسي[1] ، فأصبح الحسين في نظر المسلمين الأتقياء لا الشيعة فقط ، شهيداً[2] . وانضمت إلى الشيعة في غضبهم جميع العناصر المناوئة للعرب ، وخاصة الموالي ، فوضعوا بذلك الحجر الأساسي في حركة الشعوبية[3] . واتفق هؤلاء على صيحة جديدة تستتر وراءها أغراضهم المختلفة ، هي : يا لثارات الحسين ، وكانت هذه الصيحة من أهم العوامل التي قوضت بنيان الدولة الأموية .

لم تدرك الدولة الأموية أن قتل الحسين هو سلاح ذو حدين وضعته في يد أعدائها[4] ، وكان لهذا السلاح أثره العاجل في تمزق ملك يزيد ، فما كادت تمر أشهر معدودة حتى قضى يزيد نحبه ، واستمرت الشيعة تقاوم الأمويين حتى تعاونوا مع العباسيين والموالي على اسقاط دولتهم واقامة الدولة العباسية .

ثانياً : الخوارج : كان الخوارج لا يعترفون بحق قريش في الخلافة ولا يقبلون مبدأ الوراثة الذي سار عليه الخلفاء الأمويون ، وهم يريدون انتخاباً عاماً يشمل جميع المسلمين . وقد نادى الخوارج بتكفير مرتكب الكبيرة ، وكانوا يرمون من وراء ذلك إلى محاربة الأمويين ، مما جعل الدولة الأموية تحاربهم بسيف الدين وتقارعهم بحجج الاسلام[5] . ولم يرض الخوارج الذين عرفوا بالزهد والتقوى عن انصراف بعض الخلفاء الأمويين إلى اللهو وانغماسهم في الترف ، ولذلك استقر رأيهم على العمل للعودة إلى العهد الاسلامي الأول ، عهد المساواة والإخاء ، وأثاروا في وجه الخلافة الأموية الفتن والقلاقل في أطراف الدولة العربية الاسلامية .

---

١ — جولد تسيهر : العقيدة والشريعة ص ١٧٦ .

٢ — Noldke : Sketches from Eastern Hist., P. 82.

٣ — بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ج ١ ص ١٥٤ .

٤ — Muir : The Caliphate, P. 324.

٥ — فان فلوتن : السيادة العربية ص ٧٣ .

ومما زاد في خطورة الخوارج أنهم لم يجتمعوا على خلافة توحد كلمتهم وتجمع شملهم ، بل أخذت جموعهم المتفرقة في أنحاء الدولة يقلقون الولاة ويناوئونهم ، فاستغرق ذلك جهودهم وانصرفوا عن الاصلاحات وارضاء الرعايا الساخطين ، واضطر ولاة العراق أن يحاربوا في أكثر من ميدان فكان أمامهم ثورات الموالي والشيعة والطامعين في الحكم كالمختار ويزيد بن المهلب وغيرهما .

سارع الى الانضمام إلى الخوارج الطبقات المعدمة الرقيقة الحال في المجتمع الاسلامي ، التي راقتها ميول الخوارج الديمقراطية وثورتهم على مظالم الولاة الأمويين[1] . وفي مقدمة هذه الطبقات الثائرة الموالي الذين ما كادت تظهر الدولة الأموية حتى لمسوا تفريق ولاتهم بينهم وبين العرب في العطاء ، وحشد هؤلاء الولاة آلاف الموالي وبعثوا بهم لفتح الأطراف الشرقية للدولة وأبعدوهم عن بيوتهم ومواطنهم فأسرعوا في الانضمام إلى الخوارج الذين أُعجبوا بمبادئهم الديمقراطية في الخلافة ، لتمسك الخوارج بالدين واتصافهم بالتقوى والزهد والصلاح . ويرى خودا بخش[2] أن الدولة الأموية مسئولة عن انضمام الموالي إلى الخوارج ، فأدى تتبع الولاة الأمويين للخوارج بالعراق إلى مغادرتهم مواطنهم الأصلية والالتجاء إلى الأطراف الشرقية للدولة العربية حيث امتزجوا بالموالي الذين أقبلوا على معاونتهم وتأييد آرائهم ، وبذلك صارت طائفة الخوارج تضم عناصر غير عربية .

لعبت الخوارج دوراً كبيراً في سقوط الدولة الأموية في عهد مروان ابن محمد آخر الخلفاء الأمويين . فقد أخذت الدولة الأموية في الضعف ، وكان كلما أشرف الحكم الأموي على الزوال ازدادت الخوارج قوة وبأساً ،

---

١ — جولد تسيهر : العقيدة والشريعة ص ١٧٣ .

٢ — Cont. to the Hist. of Islamic Civilization, V. II, P. 197.

وظهر هذا جلياً في عهد مروان بن محمد[1] فقد حارب الأمويون أعداءهم قديماً ، يوم أن كانت لهم القوة والبأس بأسلحة تكاد تكون متكافئة ، ولكن في عهد مروان ظهر المناهضون لعرش بني أمية من جديد بقوة لا قبل للأمويين بها ، في نفس اللحظة التي اعتقد الأمويون فيها أنهم قضوا على هؤلاء الأعداء القضاء الأخير ، وكانت تعوز بني أمية القوة المعنوية الضرورية لقمع تلك الثورة النفسية ، وفي مقدمة هؤلاء المناوئين الخوارج ، وكان جواب الحكومة الأموية على شكايات الخوارج ومطالبهم الجديدة هو اعلان الحرب عليهم جهاراً[2] .

وبجانب خطر الخوارج ، كانت هناك مشاكل كبيرة ، فهناك العصبية القبلية ، وانقسام البيت الأموي ، وثورات الموالي ، والدعوة العباسية . وكانت هذه المشاكل عاملاً هاماً ساعد الخوارج ، فقد انشغل الأمويون بهذه المشاكل عن التفرغ للخوارج .

وان كان مروان قد انتصر على الخوارج رغم ما واجهه من صعوبات إلا أنه استنفد في ذلك الانتصار آخر جندي من جنوده ، مما أتاح لأبي مسلم الخراساني القضاء على الدولة الأموية في يسر وسهولة .

ثالثاً : الموالي : فتح العرب بعض الأمصار التي كانت خاضعة للأمبراطوريتين الفارسية والرومانية فأذعن للاسلام أهالي هذه البلاد ، وأصبح لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين ما داموا يدفعون الجزية . وكان هناك منهم من لم يقبل الجزية فاستمروا في القتال حتى تغلب المسلمون عليهم فوقعوا في أيديهم أسرى ومن ثم أصبحوا رقيقاً لهم . ولكن اعتبر عتق الرقيق تكفيراً عن الذنوب ، فشجع ذلك المسلمين على عتق أعداد كبيرة من هؤلاء الأسرى الأرقاء ، فأصبحوا موالي لمن أعتقوهم . وهناك نوع آخر من الموالي ، هم أهل الأمصار

---

١ – Ipid, P. 196.

٢ – فان فلوتن : السيادة العربية ص ٧٣ .

الذين أسلموا وانضموا إلى العرب ودخلوا في خدمتهم وتحالفوا معهم لكي يعتدُّوا بشوكتهم وقوتهم ، فأصبحوا موالي أيضاً بالحلف . وهذان النوعان هما أعظم أنواع الموالي عدداً وانتشاراً [١].

لعبت حالة الموالي الاجتماعية دوراً كبيراً في ثوراتهم السياسية ، فقد خابت آمال الموالي بعد اعتناقهم الاسلام فلم يصبح لهم في العهد الأموي من الحقوق ما للمسلمين العرب[٢] ، كما ترفع العرب واعتبروا أنفسهم فوقهم جبلة وخلقة وفضلاً . فكان العرب يسمون الموالي العجم ، وقد اشتقوا هذا الاسم من لفظ الاعجم وهو الأخرس[٢] ، واعتبر العرب الموالي دخلاء في الدين والقومية العربية[٣] ، كما اعتبروا تزاوج الموالي والعرب جريمة لا تغتفر ، وجعلوا مساجد خاصة بالموالي ، وحفل الشعر العربي بقصائد في هجاء الموالي[٤] ، وغير ذلك من مظاهر الاضطهاد الاجتماعي .

لقي الموالي من سادتهم الارستقراطيين معاملة كلها ذل وهوان[٥] ، ويقول سايكس[٦] ان هذه المعاملة تفوق ما تحمله النورمان من السكسون الفاتحين . ولم يكن كل هؤلاء الموالي من طبقات الفلاحين ، بل من الذين يعترف العرب أنفسهم بثقافتهم[٧] . وكان فريق كبير منهم من أصل رفيع معروف ، وبجانب هؤلاء كان هنالك آلاف من الموالي يمثلون الأيدي العاملة في الدولة ، فالكوفة مثلاً كان نصف سكانها من الفرس الذين احتكروا لأنفسهم الحرف والتجارة [٨] . وقد أبى العرب الاختلاط بالموالي وحافظوا

---

١ – ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٤ .
٢ – جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ج ٤ ص ١٤ .
٣ – من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام ص ٤٣ .
٤ – كريمر : الحضارة الإسلامية ص ٤١ .
٥ – Nicholson : Lit. Hist. of the Arabs, P. 247.
٦ – Hist. of Persia, V. I, P. 536
٧ – رونلدسن : عقيدة الشيعة ص ١٣٣ .
٨ – بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٦٣ .

على طابعهم العسكري لتكون مهنتهم الحرب والجهاد، واعتمدوا على الموالي في الصناعة والتجارة والحرف، ولا شك أن في ذلك كسباً للموالي، فقد سيطروا على الحياة الاقتصادية والاجتماعية ودواوين الحكومة، ويمكننا أن نعتبر ذلك امتداداً للحضارة الساسانية.

أغفلت الدولة الأموية وضع تنظيم للعلاقات بين الاسلام والشعوب المفتوحة، بل أدت سياستها إلى تعقيد الحياة القانونية والمسائل الدينية الداخلية، فكان على الأمويين أن يضعوا للمحاربين المسلمين المنتشرين في الأمصار الاسلامية، قواعد جازمة، تحل المشاكل الناشئة من الأمور الفقهية التي لم يكن يعرفها تماماً جزء كبير من هؤلاء العرب الفاتحين المجندين[1]، وزاد المشكلة تعقيداً أن هذه الأمصار عرفت الحركات الاجتماعية قبل الفتح الاسلامي، فكانت أقدر على فهم أسباب ظهورها من الأمة العربية التي لم تسمع بها أو لم تفكر فيها إلاّ في أوائل القرن السابع[2].

كان على الأمويين التوفيق بين مصالح الطبقات المتضادة، أي بين مصلحة الغني والفقير، وبين مصلحة الإقطاعيين والفلاحين، لكنهم فشلوا في ذلك تماماً، فترتب على ذلك حالة اجتماعية توترت فيها العلاقات بين طبقات المجتمع الاسلامي، وبلغ هذا التوتر درجة أدت إلى اصطدام عنيف مما أدى إلى سقوط الدولة الأموية[3].

وكانت هناك دوافع سياسية لثورات الموالي على الحكم الأموي. فقد ظهر بين الموالي الفرس نزعة قومية تدفعهم الى احياء المجد الفارسي القديم، وفي ذلك يقول ابن حزم[4]: «ان الفرس كانوا من سعة الملك وعلو اليد على

---

١ — جولد تسيهر: العقيدة والشريعة ص ٣٩.
٢ — جوزي: من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ص ٤٠.
٣ — جوزي: من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ص ٤٠.
٤ — الفصل في الملل جـ ٢ ص ١١٥.

جميع الأمم وجلالة الخطر في أنفسهم حتّى إنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأبناء وكانوا يعدون سائر الناس عبيداً لهم. فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب، وكانت العرب أقل الأمم عند الفرس خطراً، تعاظمهم الأمر وتضاعفت لديهم المصيبة وراموا كيد الاسلام بالمحاربة».

ولا عجب في ذلك فقد كانت المنافسة بين العرب والعجم قديمة.

نهاية الخلافة الأموية :

تكاتفت هذه المعاول الثلاثة، الشيعة والخوارج والموالي، مع معاول أخرى ثانوية، على هدم الدولة الأموية، مما أدى إلى غروب شمس هذه الدولة.

أما الخوارج، فقد شغلوا الخلفاء الأمويين المتأخرين عن أعدائهم من الدعاة العباسيين الذين انتهزوا كل فرصة لنشر دعوتهم، وكان الخوارج ستاراً كثيفاً حجب عن الولاة الأمويين بالعراق ما يجري في خراسان من الدعوة للعباسيين. وقد أتعب مروان بن محمد، آخر الخلفاء الأمويين، جيشه في قتال الخوارج، حتّى اذا تلاقت جيوشه بجيوش أبي مسلم الخراساني، دارت الدائرة على مروان، فغربت شمس الدولة الأموية[1].

أما الشيعة، فقد قامت في أواخر الدولة الأموية ثورتان شيعيتان عنيفتان: أولاهما ثورة زيد بن علي الذي أعلن الثورة في العراق في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، وقد أعلن سبب ثورته فقال: «خرجت على بني أمية الذين قتلوا جدي الحسين وأغاروا على المدينة يوم الحرة، ثم رموا بيت الله بحجر المنجنيق والنار»[2]. ووضع زيد لحركته ثلاثة مبادىء[3]: أولها أن

١ – تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي ص ٢٠٦.

٢ – الاصبهاني : مقاتل الطالبيين ص ١٣٥.

٣ – البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٥.

الامامة في أولاد فاطمة دون غيرهم ، وثانيها طاعة كل فاطمي زاهد شجاع يطلب الامامة سواء من أولاد الحسن أو الحسين ، وثالثها جواز خروج إمامين في قطرين يشتركان في الخصال الحسنة فتصبح طاعتهما واجبة ، ولكن كما تخلى أهل العراق عن علي والحسن والحسين فقد تخلوا عن زيد وتركوه يلقى مصيره على يد يوسف بن عمر والي هشام على العراق .

لم يكن زيد من أولئك الزعماء الضعفاء ، فلم يستسلم للفرس سياسياً ، ولم يرم بنفسه في أحضانهم ، بل سعى سعياً متواصلاً لأن يكون زعيماً حقاً يتمتع بكل نفوذ وسلطان ، وهذا ينافي الخطة التي درج عليها الفرس ، فتخلوا عنه في أحرج الأوقات وأشدها خطراً بعد أن باح برضائه عن أبي بكر وعمر اللذين كانا موضع كراهيتهم ، ولا شك أن كراهية الشيعة لأبي بكر وعمر جزء من مبادئهم الرئيسية ، ولذا كانت مفارقتهم له تالية لهذا التصريح مباشرة ، وأصبح اسمهم الجديد « الرافضة » لرفضهم ما نادى به زيد[١] .

خلفت ثورة زيد وراءها أحداثاً أدت إلى زوال الخلافة الأمويـــة . فالدعوة العباسية نالت بموت زيد أكبر تعضيد إذ زال من طريقها منافس قوي وخصم عنيد[٢] . كما أن حزب الشيعة فقد بمقتله قوته فأتاح الفرصة لانتصار هذه الدعوة[٣]. على أن ثورة زيد لم تنته بوفاته ، بل قام ابنه يحيى للأخذ بثأره ، غير أنه سلك طريقاً غير طريق أبيه ، فاتخذ خراسان قاعدة لحركته ، لكن الأمويين ما لبثوا أن قضوا عليه سنة ١٢٥ هـ[٤] .

ركنت شيعة العراق إلى الهدوء في عهد كل من الوليد بن يزيد بن عبد الملك ويزيد بن الوليد ، حتى اذا بدأت خلافة ابراهيم بن الوليد قامت حركة

---

١ – البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٥ .
٢ – سيد امير علي : مختصر تاريخ العرب ص ١٣٥ .
٣ – سيد امير علي : مختصر تاريخ العرب ص ١٣٥ .
٤ – Brown : Hist. of Persia, V. I, 535.

شيعية جديدة تزعمها عبد الله بن معاوية بن عبد الملك بن جعفر بن أبي طالب ، وقد حالف هذه الثورة الموالي الفرس . وقصدته بنو هاشم جميعاً وفي مقدمتهم أبو العباس والمنصور وعيسى بن علي[1] . بل قصدته وجوه قريش من بني أمية[2] . وشعر ابن معاوية بقوته ونفوذه فكتب إلى جميع الأمصار الاسلامية يدعوها الى نفسه لا الى الرضا من آل محمد كما كان يدعو من قبل[3] .

لكن سرعان ما تغيرت ظروف الدولة الأموية ، فانتصر مروان بن محمد على ابراهيم بن محمد وتولى الخلافة ، وأرسل جيشاً كثيفاً لقتال عبد الله ابن معاوية ، وتخلى أهل العراق عنه ، فخرج إلى خراسان ، ولكن كانت هناك حركة جديدة يتولى قيادتها أبو مسلم الخراساني – أحد دعاة العباسيين – فلما قصده ابن معاوية طالباً نصرته ، قبض عليه أبو مسلم وحبسه وقتله[4] . وكان العباسيون قد سبقوا إلى الدعوة لأنفسهم في خراسان . ولذلك لم يسمحوا لابن معاوية بأن يهدم ما بنوه طوال هذه السنين ، وأن يسلبهم خراسان التي أصبحت مركز دعوتهم . كما أن ابن معاوية أخطأ حين غير نص البيعة . فبعد أن كانت بيعته لارضا من آل محمد ، أصبح يدعو إلى نفسه ، وكانت البيعة الأولى توافق تماماً ما كان العباسيون يدعون إليه ، ولكن بعد دعوته لنفسه أصبح قيام العباسيين في وجهه أمراً محتوماً .

كان لحركات الشيعة في أواخر العصر الأموي أثر كبير في زوال الخلافة الأموية ، فالشيعة في العراق لم يغيروا رأيهم في الأمويين ، فظلوا يبغضونهم ويعملون على القضاء على دولتهم . وقد خابت آمالهم بمقتل الحسين . ثم فشلت حركة التوابين التي قامت للأخذ بثأره ، فتحولوا إلى محمد بن الحنفية ، واعتقد

---

١ – الطبري : ج ٨ ص ٣٠٠ .
٢ – الاصبهاني : مقاتل الطالبيين ص ١٦٧ .
٣ – الطبري : ج ٩ ص ٥٠ .
٤ – الأصبهاني : مقاتل الطالبيين ص ١٦٨ .

فيه الناس أنه صاحب الدولة بعد قتل الحسين[1] ، وبايعته الشيعة على طلب الخلافة ان أمكنه ذلك ، وعرضوا عليه قبض زكاتهم لينفقوها يوم الوثوب ، فقبلها منهم وولى على شيعة كل بلد واحداً منهم وأمره باستدعاء من قبله منهم سراً وحضهم على ألاّ يبوحوا بما في صدورهم .

وظل ابن الحنفية على هذا الحال حتّى حضرته الوفاة فولى ابنه عبد الله (المعروف بأبي هاشم) من بعده وأمره بطلب الخلافة كلما وجد إلى ذلك سبيلاً ، وأرسل إلى الشيعة في كل مكان بذلك[2] . ولما علم سليمان بن عبد الملك بأمر هذه الدعوة عمل على التخلص من أبي هاشم ، فأوعز إلى رجل بأن يعطيه لبناً مسموماً ، فلما شربه وأحس أن منيته قد قربت قصد إلى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس — وكان اذ ذاك بالحميمة — فقال له : « يا ابن عم ، أنا ميت وقد صرت اليك وهذه وصية أبي إليّ وفيها أن الأمر صائر اليك وإلى ولدك والوقت الذي يكون ذلك والعلامة وما ينبغي لكم العمل به على ما سمع » . ثم أوصاه بالشيعة خيراً ، وأن يتخذ منهم دعاته وأنصاره ، وأن يجعل ميسرة داعيته بالعراق ، كما أشار عليه بأن يتخذ خراسان مركزاً لدعوته والانصراف عن الدعوة في الشام ، ونصحه بأن يجعل دعاته اثني عشر نقيباً ، حتّى اذا دخلت السنة المائة بعث رسله ودعاته[3] .

عمل محمد بن علي بنصيحة أبي هاشم فبعث سنة ٩٧ هـ ميسرة النبال مولى الأسد إلى الكوفة ، فوضع بذلك الحجر الأساسي للدعوة العباسية . وفي سنة ١٠٠ هـ ، توافدت شيعة العراق على محمد بن علي وهو مقيم بالحميمة بالشام ، فأرادوه على البيعة ، فقال لهم : « هذا أوان ما نؤمل ونرجو من ذلك لانقضاء

---

١ — الفخري : ص ١٠٢ .
٢ — ابن قتيبة : الامامة والسياسة جـ ٢ ص ١٣٣ .
٣ — اليعقوبي جـ ٣ ص ٤٠ .

مائة سنة من التاريخ »[1] . فوجه دعاته إلى العراق وخراسان فأقبلت الشيعة على البيعة لمحمد بن علي ، وعاد الدعاة بكتب من استجاب لهم[2] ، فوجدوا إمامهم قد رزق مولوداً جديداً هو أبو العباس فأمر باخراجه إليهم فقال « هذا صاحبكم »[3] .

ومات محمد بن علي تاركاً أبناءه ابراهيم وأبا العباس والمنصور يكملون ما بدأه أبوهم ، وحمل ابراهيم لواء الدعوة العباسية فاستكثر من ارسال الدعاة إلى الأطراف وخاصة خراسان ، لوثوقه بأهلها . أما أهل الكوفة والبصرة ، فان أهل البيت كانوا لا يطمئنون إليهم لخذلانهم علياً وولديه الحسن والحسين[4] ، وكان أبو مسلم الخراساني آخر الدعاة الذين بعث بهم ابراهيم الامام إلى خراسان ، وقد استطاع أبو مسلم أن يمهد الأمور ، فسيطر على خراسان ، وخرج اليه مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين يقاتلهم ، فالتقى به عند نهر الزاب ، وحلت الهزيمة بمروان بن محمد . وظهر السواد شعار العباسيين في الكوفة في العاشر من محرم ١٣٢ هـ ، فزالت الدولة الأموية من الوجود ، وحل مكانها الدولة العباسية[5] .

لعب موالي العراق من الشيعة دوراً كبيراً في نجاح الدعوة العباسية فكانت رغبتهم في احياء القومية الفارسية وحبهم للشيعة من العوامل التي دفعتهم إلى تأييد العباسيين[6] . وقد خدع الموالي في الدعوة العباسية ، لأنها دعتهم إلى القضاء على الدولة الأموية ونقل الخلافة الى آل البيت ، فأقبلت الموالي

---

١ – الدينوري : الأخبار الطوال ص ٣٣٤ .
٢ – الطبري جـ ٨ ص ١٣٦ .
٣ – الدينوري : الأخبار الطوال ص ٣٣٤ .
٤ – الفخري ص ١٠٣ .
٥ – الدينوري : الأخبار الطوال ص ٣٦٥ .
٦ – بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٦٧ .

على تأييد هذه الدعوة دون أن يفكروا أنهم ينصرون آل العباس الذين سيضطهدون العلويين ويلاحقونهم في كل صقع كما فعل الأمويون بهم من قبل . واعتقد الموالي اعتقاداً راسخاً أنهم يدافعون عن حق مغصوب لآل البيت . وأنه لا بد من ارجاع هذا الحق إلى أصحابه ، ولا يكون ذلك إلاّ بقتال الأمويين ومناوأتهم وكفاحهم .

نادى العباسيون بعزمهم على تحسين أوضاع الموالي ومساواتهم بالعرب واشراكهم في الأمر . متخذين ذلك أساساً لبرنامجهم الاجتماعي ، ووعدوا بالعدل واتخاذ السنّة والكتاب دستوراً . وبذلوا الجهود في جمع كل العناصر المتذمرة . وبعثوا الوعي العام عند الفرس ، وقووا فيهم روح التوثب والسيادة ، بل روح إحياء المجد القديم المفقود . وعملوا على أن يخلقوا جواً من التعاون والتفاهم بين العرب والفرس على أساس اسلامي . وتحقيق التعاون بين الدين والسياسة ليضربوا التقاليد والعصبية القبلية . متعظين في ذلك بالمشكلات التي أضعفت الأمويين(١) .

وهكذا كان العباسيون أوسع أفقاً من أبناء عمومتهم العلويين ، فوضعوا برنامجاً دينياً وسياسياً واجتماعياً يسيرون بمقتضاه في حكمهم ، بينما اكتفى العلويون بالدعوة الى انفسهم اعتماداً على حب المسلمين للرسول وعليّ وأولاده ولذلك كتب الله للعباسيين النصر فيما أخفق فيه أبناء عمومتهم العلويون وشيعتهم .

أسباب سقوط الخلافة الأموية :

أولاً : تعصب الأمويين للعرب واضطهادهم الموالي : اعتمد الأمويون على العرب دون سواهم في جميع مناصب الدولة وعربوا الدواوين ، وسكوا

---

١ – الدوري : مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ص ٩ .

عملة عربية ، وصبغوا الدولة الأموية بالصبغة العربية ، حتى أصبحت جديرة بأن تسمى (الدولة العربية) ، وفقدت اللغات الأخرى أهميتها ، وتعلم الموالي والأجانب اللغة العربية : لغة الدين والأدب والحكمة ، ليكون لهم نصيب في الوظائف العامة . مما أدى إلى تعريب معظم سكان الدولة وخاصة بربر افريقية وأقباط مصر وموالي العراق وفارس . وعمل الأمويون على صهر مدنيات الأمم المفتوحة في بوتقة العروبة فنتجت مدنية عربية وثقافة عربية استساغها جميع سكان الدولة على اختلاف أجناسهم ونحلهم . ولكن لا يجب أن نظن أن العرب في صهرهم للشعوب كانوا مستعمرين قساة ، بل كان هدفهم نشر الدين ورفع لواء العروبة فتسابقت الشعوب المغلوبة إلى طاعتهم .

ولكن من جهة أخرى ، أدى التنافر بين العرب والموالي الفرس في العصر الأموي ، إلى ظهور الشعوبية التي بـدأت تنادي بمساواة العرب بالموالي ، ثم تطورت في العصر العباسي ، فصارت تنادي بأن الفرس أرفع درجة من العرب ، فزعم الشعوبيون أن أخطب الناس الفرس وأن الفرس أكثر معرفة من العرب بأمور الحرب[١] . وكان معظم العرب لا يحسنون الكتابة والحساب ، فاعتمدوا على الموالي في وظائف الدولة[٢] . ومن ثم شعر الموالي بأهميتهم وعلو شأنهم ، وأدركوا حاجة الدولة الأموية اليهم في الحرب ، كما شعروا بفضلهم على الأدب والعلم والدين ، وعلى تقدم الزراعة والصناعة والتجارة[٣] .

ولا شك أن الشعور الذي اختلج في نفوس الموالي أدى بهم إلى التفكير في الخروج على الخلافة الأموية ، فانضموا إلى كل حزب وإلى كل ثائر يعارض

---

١ – الجاحظ : البيان والتبيين ج ٣ ص ٦ .
٢ – ابن خلدون : المقدمة ص ١٢٦ .
٣ – Sykes : Hist. of Persia, V. I, P, 537

الأمويين ، ففي ذلك إضعاف لسلطة الدولة . انضم الموالي إلى الخوارج حينما جعلوا حق الخلافة شائعاً بين جميع المسلمين ، وانضم الموالي إلى حركات الشيعة ، فقد كان معظمهم يعتقدون أن علياً وأولاده من بعده أحق بالخلافة من بني أمية ، وزاد هذا الاعتقاد قوة بعد زواج الحسين بن علي من احدى بنات يزدجرد آخر الأكاسرة الساسانيين ، فرأى الموالي الفرس في أولاد الحسين منها وارثين لملوكهم الأقدمين ، كما رأوا فيهم ورثة لتقاليدهم القومية[1].

يصف نيكلسون[2] حرج الدولة الأموية نتيجة موقف الموالي فيقول : وهنا أصبح الموقف يتصف بالخطورة ، فهناك الخوارج والشيعة والموالي . وقد يجد الأمويون حجة في قتالهم الخوارج والشيعة فيحتجون بأنهم يحافظون على القانون والنظام ان لم يحتجوا بالمحافظة على الاسلام ، ولكن أمام صيحة الموالي المعارضة لن يجد الأمويون حجة أو سبيلاً يمنعهم من استخدام السيف .

ثانياً : العصبية القبلية : كان العصر الجاهلي مسرحاً لكثير من الحروب بين القبائل ، وشغل العرب بالعصبية القبلية في جميع نواحي حياتهم ، ثم جاء الاسلام فدعاهم إلى محو التعصب للقبيلة أو للجنس ، وأعلن مساواته بين جميع الناس ، فقال الله تعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم) وقال الرسول « ان الله تعالى أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، ليس لعربي على عجمي فضل الا بالتقوى » ، واختفت العصبية طوال حياة الرسول وأبي بكر وعمر من شبه الجزيرة العربية ، ولكن عادت إلى الظهور ، واستفحلت في العصر الأموي .

تجلت العصبية على عدة صور فكانت بين اليمنية والمضرية ، وهمـــا

---

١ – أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ١٨١ .

٢ – Lit. Hist. of the Arabs, P. 147

الحزبان الكبيران اللذان عاشا في بلاد العرب منذ الجاهلية . وكان بين هذين الفريقين عداء مستحكم رغم تشابه العادات والأخلاق ، فبلغ اليمنيون درجة عظيمة من الحضارة قبل الاسلام ، فلما انتقلوا إلى الأمصار المفتوحة جنوا ثمار حضارتهم ، فأسسوا لهم حكومات منظمة . أما المضريون فكان معظمهم - باستثناء قريش - قبائل بدوية رحالة ، وكان كل بطن من بطونها في عزلة عن الآخر . فتباينت نزعاتها وتباعدت مصالحها مما أدى إلى ضعفها وخضوعها الى سلطان اليمنيين[1] .

كانت القبائل العربية ترى أنها دخلت الاسلام كما دخلت قريش ، وهاجرت كما هاجرت ، ولكن قريشاً استأثرت بالخلافة والزعامة رغم أن أعباء الفتوح وقعت على عاتق القبائل الأخرى[2] . وقت تغلب العنصر الأموي القرشي في عضد هذه القبائل ، وأنفت من طاعة قريش واتهموها بالظلم وطالبوا بالمساواة بين جميع القبائل[3] ، وكانت هذه القبائل (مثل قيس ، تميم ، شيبان ، كندة ، وغيرها) ذات فضل في الجاهلية ثم ضاع فضلها بظهور الاسلام ، كما أسهمت في اعلان شأن الدين الجديد والفتوحات ، ثم لم يفوزوا بثمار جهودهم .

والى جانب هذين اللونين من العصبية ، هناك لون ثالث يتجلى في العصبية بين فرعي قريش الكبيرين ، بني هاشم وبني أمية ، وانقسمت القبائل بين مؤيد ومعارض لأحد هذين الفرعين .

أثار الخلفاء الأمويون كوامن العصبية واتخذوها وسيلة لتوطيد دعائم دولتهم . أقام معاوية عرشه على سيوف اليمنيين وتزوج منهم، وسار ابنه

---

١ - سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب ص ٦٣.
٢ - الدوري : مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ص ٦٣ .
٣ - ابن خلدون : المقدمة ص ١٥١ .

يزيد على سنته ، ولذا غضب القيسيون على الأمويين فانضموا إلى عبد الله ابن الزبير . وأقحم الخلفاء الأمويون أنفسهم في الصراع القبلي ، فانتصر الوليد بن عبد الملك للمضريين ، ومال سليمان لليمنيين ، وآزر يزيد بن عبد الملك بتأثير أمه المضرية ، وحذا الوليد الثاني حذوه . أما يزيد الثالث فقد اعتمد على اليمنيين في تخليص العرش من الوليد الثاني ، وكان مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين يناصر القيسيين مما دعا اليمنيين في خراسان إلى الانضمام الى العباسيين ولولاهم لما استطاع ابو مسلم التغلب على خراسان[1] .

ثالثاً : نظام ولاية العهد : لم يكن هناك نظام معين لوراثة الخلافة الأموية ، وارتكب كثير من الخلفاء الأمويين خطأ فادحاً حينما عهدوا بالخلافة الى أكثر من واحد ، مما أدى الى انقسام البيت الأموي ، فقد كان ولي العهد الأول عندما يصبح خليفة يحاول بدوره تعيين ابنه بعده وخلع ولي عهده . وأول من ارتكب هذا الخطأ مروان بن الحكم ، فقد عهد بالخلافة لولديه عبد الملك ثم عبد العزيز ، وقد حاول عبد الملك خلع أخيه . وارتكب عبد الملك نفس الخطإ إذ ولى عهده ولديه الوليد ثم سليمان ، وقد فكر الوليد في خلع أخيه سليمان لكن ظروفه لم تساعده مما أدى إلى نقمة سليمان على قواد أخيه وولاته الذين وافقوا أخاه على خلعه . وعاود سليمان الخطأ فولى عهده عمر بن عبد العزيز ، ثم يزيد بن عبد الملك . وأخطأ يزيد الثاني اذ ولى عهده هشاماً ثم ابنه الوليد ، وكاد هشام يخلع الوليد لولا أن وافته منيته ، فأخذ الوليد في اضطهاد أسرة هشام وولاته ، مما أدى الى انقسام البيت الأموي .

رابعاً : ضعف الخلفاء المتأخرين من بني أمية : يتجلى هذا الضعف حينما نرى ثلاثة من خلفاء بني أمية يتولون العرش في عامين ، وهم الوليد الثاني ويزيد الثالث وابراهيم بن الوليد . وعدم الاستقرار هذا يولد الاضطراب

---

١ — العراق في ظل الحكم الأموي للمؤلف ص ٢٤٨ — ٢٥٢ .

ويشجع الخصوم. وقد ساعد على تقوية الخلاف بين القيسيين والأمويين تعصب يزيد الثالث لليمنيين، إلى جانب انغماس الخلفاء في الملذات، واهمالهم شئون الدولة، مما شجع خصومهم كالخوارج والشيعة والموالي والعباسيين على الثورة واسقاط الدولة الأموية.

خامساً: اتساع الدولة الأموية: اتسعت الدولة فامتدت من حدود الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، مما جعل سيطرة العاصمة (دمشق) على الأطراف ضئيلة، في وقت كانت المواصلات صعبة وشاقة، فاغتنم اعداء الأمويين هذه الفرصة فأشعلوا نيران الفتنة والثورات في الأقطار النائية كخراسان وشمال افريقية.

سادساً: المعارضة الدينية والسياسية: وتتمثل في معارضة الخوارج والشيعة والموالي، فالخوارج أقضوا مضاجع الأمويين وأضعفوهم عسكرياً وشغلوهم في مواقف حاسمة، كثورتهم في عهد مروان بن محمد التي مكنت أبا مسلم من السيطرة على خراسان[1]. أما الشيعة فقد ظلوا يعملون باستمرار، سراً وجهراً، ضد الأمويين، حتى اسقطوهم. أما الموالي فقد انضموا الى كل حزب معارض والى كل ثائر واستغلوا كل فرصة للإيقاع بالدولة.

سابعاً: المعارضة الاقليمية: نقم أهل الحجاز على الأمويين لنقلهم حاضرة الخلافة إلى دمشق، وكان في الحجاز حزب قوي يتألف من أبناء الصحابة الساخطين على سياسة الملكية الوراثية التي اتبعها الأمويون، وتمنوا عودة الحاضرة إلى المدينة، ولذا ناصروا عبدالله بن الزبير خليفة الحجاز. أما العراق فكان مركز خلافة علي وابنه الحسن، وكان انتصار معاوية هو انتصار الشام على العراق، وانضم العراقيون إلى كل

---

١ – الطبري: ج ٩ ص ٨٠.

يزيد على سنته ، ولذا غضب القيسيون على الأمويين فانضموا إلى عبد الله ابن الزبير . وأقحم الخلفاء الأمويون أنفسهم في الصراع القبلي ، فانتصر الوليد بن عبد الملك للمضريين ، ومال سليمان لليمنيين ، وآزر يزيد بن عبد الملك بتأثير أمه المضرية ، وحذا الوليد الثاني حذوه . أما يزيد الثالث فقد اعتمد على اليمنيين في تخليص العرش من الوليد الثاني ، وكان مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين يناصر القيسيين مما دعا اليمنيين في خراسان إلى الانضمام الى العباسيين ولولاهم لما استطاع ابو مسلم التغلب على خراسان[1] .

ثالثاً : نظام ولاية العهد : لم يكن هناك نظام معين لوراثة الخلافة الأموية ، وارتكب كثير من الخلفاء الأمويين خطأ فادحاً حينما عهدوا بالخلافة الى أكثر من واحد ، مما أدى الى انقسام البيت الأموي ، فقد كان ولي العهد الأول عندما يصبح خليفة يحاول بدوره تعيين ابنه بعده وخلع ولي عهده . وأول من ارتكب هذا الخطأ مروان بن الحكم ، فقد عهد بالخلافة لولديه عبد الملك ثم عبد العزيز ، وقد حاول عبد الملك خلع أخيه . وارتكب عبد الملك نفس الخطإ إذ ولى عهده ولديه الوليد ثم سليمان ، وقد فكر الوليد في خلع أخيه سليمان لكن ظروفه لم تساعده مما أدى إلى نقمة سليمان على قواد أخيه وولاته الذين وافقوا أخاه على خلعه . وعاود سليمان الخطأ فولى عهده عمر بن عبد العزيز ، ثم يزيد بن عبد الملك . وأخطأ يزيد الثاني اذ ولى عهده هشاماً ثم ابنه الوليد ، وكاد هشام يخلع الوليد لولا أن وافته منيته ، فأخذ الوليد في اضطهاد أسرة هشام وولاته ، مما أدى الى انقسام البيت الأموي .

رابعاً : ضعف الخلفاء المتأخرين من بني أمية : يتجلى هذا الضعف حينما نرى ثلاثة من خلفاء بني أمية يتولون العرش في عامين ، وهم الوليد الثاني ويزيد الثالث وابراهيم بن الوليد . وعدم الاستقرار هذا يولد الاضطراب

---

١ – العراق في ظل الحكم الأموي للمؤلف ص ٢٤٨ – ٢٥٢ .

ويشجع الخصوم . وقد ساعد على تقوية الخلاف بين القيسيين والأمويين تعصب يزيـد الثالث لليمنيين ، إلى جانب انغماس الخلفاء في الملذات ، واهمالهم شئون الدولة ، مما شجع خصومهم كالخوارج والشيعة والمـوالي والعباسيين على الثورة واسقاط الدولة الأموية .

خامساً : اتساع الدولة الأموية : اتسعت الدولة فامتدت من حدود الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً ، مما جعل سيطرة العاصمة (دمشق) على الأطراف ضئيلة ، في وقت كانت المواصلات صعبة وشاقة ، فاغتنم اعداء الأمويين هذه الفرصة فأشعلوا نيران الفتنة والثورات في الأقطار النائية كخراسان وشمال افريقية .

سادساً : المعارضة الدينية والسياسية : وتتمثل في معارضة الخوارج والشيعة والموالي ، فالخوارج أقضوا مضاجع الأمويين وأضعفوهم عسكرياً وشغلوهم في مواقف حاسمة ، كثورتهم في عهد مروان بن محمد التي مكنت أبا مسلم من السيطرة على خراسان[1] . أما الشيعة فقد ظلوا يعملون باستمرار ، سراً وجهراً ، ضد الأمويين ، حتى اسقطوهم . أما الموالي فقد انضموا الى كل حزب معارض والى كـل ثائر واستغلوا كـل فرصة للإيقاع بالدولة .

سابعاً : المعارضة الاقليمية : نقم أهل الحجاز على الأمويين لنقلهم حاضرة الخلافة إلى دمشق ، وكان في الحجاز حزب قوي يتألف من أبناء الصحابة الساخطين على سياسة الملكية الوراثية التي اتبعها الأمويون ، وتمنوا عودة الحاضرة إلى المدينـة ، ولذا ناصروا عبد الله بن الزبـير خليفة الحجاز . أما العراق فكان مركز خلافة علي وابنـه الحسن ، وكـان انتصار معاوية هو انتصار الشام عـلى العراق ، وانضم العراقيون إلى كل

---

١ – الطبري : ج ٩ ص ٨٠ .

ثائر على الأمويين ليسقطوا دولتهم وتعود الحاضرة إلى مقرهم، ونجحوا فجنوا ثمار جهودهم اذ قامت الخلافة العباسية في العراق .

حكومة الخلافــة الأموية :

انقضت دولة الخلفاء الراشدين (سنة ٤٠ هـ) وأصحاب المناصب فيها :

١ ـ الخليفة .
٢ ـ عماله في الأمصار .
٣ ـ كاتب يكتب له الكتب ويتولى أمر الديوان .
٤ ـ خادم خاص كانوا يسمونه الحاجب .
٥ ـ خازن يتولى بيت المال .
٦ ـ قاض يقضي في الخصومات[١] .

فلما أفضت الخلافة إلى بني أمية وأصبح الأمر ملكاً سياسياً وكثرت مخالطة المسلمين للأعاجم ، تفرعت تلك الادارات وتوسعت ، وأضاف بنو أمية إليها مناصب اقتبسوها من الروم والفرس . وقضى عليهم الترف وابهة الملك أن يتخذوا الخدم والحشم والحجاب والحراس . فظهر في عهد بني أمية الحرس وديوان الخاتم والبريد وديوان الخراج .

كان الخليفة في عصر الراشدين هو الذي يراقب الدواوين بنفسه ، وكان عماله لا يزالون من أهل الزهد والتقوى لا يحتاجون إلى من يراقب أعمالهم ، أو يستطلع خفاياهم . ولم يكن للخليفة أموال خاصة ، ولا ضياع تحتاج إلى كتاب أو حساب ، وكان اذا كتب الى احد عماله كتاباً ختمه بخاتمه بيده ، وربما كتب الكتاب بيده . فلما اتسع سلطانهم ، وتبدلت وجهة الخلافة من

---

١ ـ جرجي زيدان : تاريخ التمدن ج ١ ص ١٢٤ .

الدين الى السياسة ، ومال الخلفاء الى التقاعد ، وتقليد القياصرة والأكاسرة ، استخدموا من يقوم بتلك الأعمال ، فأقاموا من يباشر أمور الدولة عنهم ، وهم الوزراء ، ومن يراقب تصرف العمال في الأمصار ، وهو صاحب ديوان البريد ، ومن يتولى ختم الرسائل وتقييدها ، وهم أصحاب ديوان التوقيع أو الخاتم ، ومن يتولى النظر في ضياعهم وأملاكهم ، وهم عمال ديوان الضياع ، ومن ينظر في حسابات حاشيتهم وخدامهم ، وهم عمال ديوانه الخاص . واقتضت حضارتهم ان يضربوا النقود ، ويتخذوا الطراز ، فأنشأوا دار الضرب ، وديوان الطراز ، ودواوين اخرى بعضها لعرض الرسائل وبعضها لغير ذلك .

وكان الكاتب في عهد الخلفاء الراشدين هو الذي يتولى الديوان على ما وضعه عمر ، فيدون ما يرد من أموال الخراج والجزية وغيرهما ، وما ينفق على الجند ، والعمال ، والقضاة ، وغيرهم ، ويتولى مكاتبة العمال . فلما اتسعت أعمال الدولة تشعب ذلك الديوان الى مـــا يختص بحسابات الخراج والجزية ، وهو ديوان الخراج ، والى ما يختص بالنفقة على الجند وغيرهم ، وهو ديوان الزمام والنفقة ، وإلى ما يتعلق بغير ذلك مثل ديوان الاقطاع ، وديوان المعادن ، وإلى ما يختص بتدوين أسماء الجند وطبقاتهم ورواتبهم ، وهو ديوان الجند ، وتفرع من ديوان الجند ديوان الأساطيل ، وديوان الثغور وغيرهما . وأفردوا لمراسلات العمال وغيرهم ديواناً خاصاً هو ديوان الرسائل أو الانشاء .

وكان بيت المال مخزناً عاماً لكل أموال المسلمين ، فتفرع في أيـــام الأمويين إلى عدة فروع ، بعضها لأموال الصدقات ، وبعضها لأموال المظالم ، وبعضها لأموال الورثة ، وبعضها لغير ذلك . وعلى هذا النمط تشعبت المناصب الأخرى ، فتفرع من القضاء ديوان المظالم ، والحسبة ، والشرطة ، ونحو ذلك .

قسم الأمويون الدولة العربية الاسلامية إلى خمس ولايات كبرى ، هي :

١ ــ الحجاز ، واليمن ، وأواسط بلاد العرب .

٢ ــ مصر بقسميها : السفلي ، والعلوي .

٣ ــ العراقان : العربي (بلاد بابل، وآشور القديمة) ، والعجمي (بلاد الفرس نفسها) ، وعمان ، والبحرين ، وكرمان ، وسجستان ، وكابل ، وخراسان ، وبلاد ما وراء النهر ، والسند ، وبعض أجزاء بلاد البنجاب . وكانت كل هذه الاقطار تكون ولاية كبيرة يتولى أمرها والي العراق وحاضرته الكوفة . ويلي خراسان وبلاد ما وراء النهر عامل من قبل والي العراق ، ومركزه مدينة مرو عادة . وكانت بلاد البحرين وعمان تحت اشراف عامل البصرة من قبل والي العراق . ويلي بلاد السند والبنجاب عامل آخر من قبل والي العراق .

٤ ــ بلاد الجزيرة ، وتتبعها أرمينية ، وأذربيجان ، وبعض بلاد آسيا الصغرى .

٥ ــ تشمل الولاية الخامسة ، وهي أهم الولايات ، كل افريقية الشمالية ، حتى غربي مصر ، وبلاد الأندلس ، وجزر صقلية ، وسردينية ، والبليار ، ومركزها القيروان . وقد أناب والي افريقية ولاة من قبله لحكم طنجة ، وجزر البحر المتوسط ، وبلاد الأندلس[1] .

حكم الولايــات في العصر الأموي :

كان العمال في عهد الخلفاء الراشدين هم قواد الجند الذين فتحوا الولايات ثم حكموها ، وكانت واجباتهم الرئيسية مراقبة سير الأحكام في البلاد التي

---

١ ــ حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ١ ص ٤٩٥ .

فتحوها ، واقامة الصلاة ، وجباية الخراج . وظلت أعمال الحكومة في البلاد المفتوحة في مصر ، والشام ، والعراق سائرة على ما كانت عليه قبل الفتح ، الى أواسط عصر بني أُمية . وبدأت ولايات الأعمال تتحول إلى حكومات محلية منذ أواخر عهد الخلفاء الراشدين ، حتى كانت أيام عبد الملك بن مروان ، الذي أحكم الرقابة الحكومية بتعريبه دواوين الحكومة ، ولذا تعلم الموظفون الأجانب اللغة العربية ليستمروا في وظائفهم .

اختلفت أنواع الإمارات ، وتركزت في شكلين : امارة عامة ، وامارة خاصة ، أما الامارة العامة فانقسمت بدورها إلى نوعين : امارة استكفاء ، وامارة استيلاء . أما امارة الاستكفاء ، أو امارة التفويض ، فهي التي كان يعقدها الخليفة لمن يختاره من رجاله الأكفاء فيفوض اليه امارة اقليم ، وتصبح واجباته هي :

١ ــ تدبير الجيوش ، وترتيب فرقها ، وتقدير ارزاق الجند .

٢ ــ النظر في الأحكام ، وتقليد القضاة والحكام .

٣ ــ جباية الخراج ، وقبض الصدقات ، وتقليد العمال فيهما ، وتفريق ما استحق منهما .

٤ ــ حماية الدين ، والدفاع عن الحريم .

٥ ــ اقامة حدود الشرع .

٦ ــ الامامة في الصلوات .

٧ ــ تيسير الحج ، واذا كان الاقليم المشار اليه متاخماً لعدو ، ترتب على العامل أمر ثامن هو جهاد ذلك العدو ، وقسمة الغنائم في المقاتلة ، وأخذ خمسها لأهل الخمس .

من عمال الاستكفاء في العصر الأموي زياد بن أبيه والي العراق ، ثم ابنه عبيد الله ، وبشر بن مروان ، والحجاج بن يوسف ، ويزيد بن المهلب ، ومسلمة بن عبد الملك ، وعمر بن هبيرة ، وخالد بن عبيد الله القسري ،

ويوسف بن عمر الثقفي ، وعبد الله بن عمر بن عبد العزيز ، ويزيد بن عمر ابن هبيرة ، وكانت امارة كل منهم تسمى « امارة العراقين » لاشتمالها على الكوفة والبصرة .

وكان كل أمير من هؤلاء يتصرف في امارته تصرف الحاكم المستقل ، فيعين العمال على البلاد الخاضعة لحكمه ، ويعين سائر الموظفين ، ويجبي الأموال فينفق منها على الاصلاحات العامة والجنود ، ويرسل ما يبقى عنده إلى بيت المال العام في دمشق .

كان عمرو بن العاص والي مصر يمثل امارة الاستكفاء ، فقد كان مستقلاً استقلالاً داخلياً تاماً ، فقد أعطاه معاوية مصر طَعمة له مكافأة له على مناصرته له في صراعه مع علي بن أبي طالب .

أما امارة الاستيلاء : فهي أن يعقد الخليفة لأمير على اقليم اضطراراً ، بعد أن يستولي الأمير على هذا الاقليم بالقوة ، فكان الخليفة يثبته في امارته ، ويفوض اليه تدبير سياسته ، فيكون الأمير باستيلائه مستبداً بالسياسة والتدبير ، ويكون الخليفة باذنه منفذاً لأحكام الدين .

أما الامارة الخاصة : فهي أن يكون الأمير مقصوراً على تدبير الجيش وسياسة الرعية ، وحماية البيضة ، والدفاع عن الحريم ضمن حدود معينة . وليس له أن يتعرض للقضاء ، أو الأحكام ، أو لجباية الخراج ، أو الصدقات في شيء ، حتى الامامة في الصلاة ، فربما كان القاضي أولى بها منه ، والخليفة يعين لهذه الامارة قضاة وجباة من عنده ، فالجباة يجمعون الخراج لحساب بيت المال المركزي وهم يؤدون أعطيات الجند ، وغيرها مما يجمعونه .

واذا كان بنو أمية في أول عهدهم ، وخاصة في عهد معاوية ، وعبد الملك بن مروان ، قد أحسنوا اختيار الولاة ، فان من جاء بعدهم لم يحسنوا الاختيار ، وكانوا كثيراً ما يطلقون يد عمالهم في أعمال العسف وابتزاز الأموال ، ثم يحاولون حسابهم على ما نالوا من أموال الدولة ، وقد يتطرفون

في محاسبة عمالهم حتى الموت ، بحيث يطلبون منهم أكثر مما عندهم ، أو أكثر مما استثمروه أثناء ولايتهم، مما كان سبباً في كثير من الاضطرابات الداخلية التي وقعت أواخر الدولة الأموية . لأن قبيلة العامل كانت تغضب لنكبته وتعذيبه ، وقد تثور أحياناً على الخليفة انتقاماً للعامل ، وأخذاً بثأره ، وقد تكرر حدوث ذلك في أواخر العصر الأموي .

يذكر السيد أمير علي[1] عيوب الحكم الأموي فيقول : ان هناك نقصاً تطرق الى النظام الاداري في عهد بني أمية وجر الى أسوإ العواقب فيما بعد ، وذلك أنه كان يفرض على ولاة الأقاليم الاقامة في حواضر ولاياتهم . أما في عهد الأمويين فقد أصبحت الولايات تسند إلى بعض أفراد البيت المالك وإلى كبار رجال البلاط ، فكانوا يبقون في دمشق ويعينون من قبلهم رجالاً يقومون بحكم الولاية نيابة عنهم . وكان من أهم أغراض هؤلاء الاثراء على حساب بيت المال وارضاء هؤلاء الولاة بما كانوا يدرون عليهم من الأموال .

الديوان في العصر الأموي :

الديوان كلمة فارسية معناها سجل أو دفتر[2] ، واطلق اسم الديوان من باب المجاز على المكان الذي يحفظ فيه الديوان . يعرّف الماوردي[3] الديوان يقول : « والديوان موضوع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال » .

كان عمر بن الخطاب أول من دون الدواوين في الاسلام حينما كثرت أموال المسلمين ، وكان من رأي علي بن أبي طالب أن يقسم عمر كل ما اجتمع

---

١ – [A Short Hist. of the Saracens, P. 190

٢ – مقدمة ابن خلدون ص ٢١١ .

٣ – الأحكام السلطانية ص ١٩١ .

اليه من مال ، أما عثمان بن عفان فقد رأى انشاء الديوان، وأخيراً تم تدوين الدواوين في شهر المحرم من سنة ٢٠ هـ[١] .

في العصر الأموي ، كانت هناك أربعة دواوين رئيسية هي :

(١) ديوان الخراج . (٢) ديوان الرسائل وكان لصاحبه الاشراف على الولايات والرسائل التي ترد من الولاة . (٣) ديوان الايرادات المنوعة . (٤) ديوان الخاتم ، وقد أنشأه معاوية ، وكان أكبر دواوين الدولة ، وفيه نواب مهنتهم نسخ أوامر الخليفة وايداعها هذا الديوان بعد أن تحزم بخيط وتختم بالشمع ثم تختم بخاتم صاحب الديوان ، كما هو الحال اليوم في قلم « الارشيف » أو السجلات .

والى جانب هذه الدواوين الأربعة ، كان هناك في العصر الأموي مصالح أخرى أقل اهمية ، منها ما هو خاص بصرف نفقات الشرطة ، وما هو خاص بنفقات الجند .

لم يكن النظام الاداري والسياسي للولايات الاسلامية في عهد الدولة الأموية من عمل معاوية ، بل ان عبد الملك هو الذي وضع هذا النظام ، فقد صبغ الادارة المالية بالصبغة العربية ، وبتحويله الدواوين الى العربية تقلص نفوذ أهل الذمة والمسلمين من غير العرب بعد ان انتقلت مناصب هؤلاء إلى أيدي المسلمين من العرب ، وقام الحجاج بن يوسف بتنفيذ سياسة عبد الملك[٢] .

ينسب بعض المؤرخين تعريب الدواوين الى أسباب تافهة . فيعلل البلاذري[٣] التعريب بموت كاتب الحجاج الفارسي زادان فروخ ، فعهد الحجاج بالكتابة الى عربي فقام بتعريب الدواوين . أما الجهشياري[٣] فيعلله باختلاف زادان

---

١ — البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٥٤

٢ — الوزراء والكتاب ص ٣٨ .

٣ — انظر كتابنا (تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي) ص ٣٨٤ .

فروخ الكاتب الفارسي مع صالح بن عبد الرحمن الكاتب العربي وقيام صالح بتعريب الدواوين نكاية في زميله الفارسي . والحقيقة أن هذا التعريب كان نتيجة سياسة مرسومة ، فقد كانت حسابات الدولة في يد صغار الموظفين الذين كثيراً ما زوروا وتلاعبوا فيها ، كما أن العرب في عهد عبد الملك قد انتقلوا من غضاضة البداوة إلى رونق الحضارة ، ومن سذاجة الامية الى حذق الكتابة ، وظهر بين العرب ومواليهم كتّاب مهرة استطاعوا أن يحلوا محل الكتّاب الأجانب[1] ، وكان الفرس أكثر الموظفين حنقاً وغضباً فقد كانوا أكثر الأجانب اعتزازاً بقوميتهم ، فيذكر الماوردي[2] ان الفرس حاولوا أن يرشوا صالح ابن عبد الرحمن ليظهر عجزه عن التعريب ولكنه أبى عليهم ذلك . ولما أمر هشام بن عبد الملك عامله خالداً القسري بتغيير النظام الفارسي القديم الذي يقضي بجباية الخراج في النيروز ، وهو أول السنة الفارسية ، حاول الفرس أن يرشوا خالداً بمائة ألف دينار ليثني هشاماً عن عزمه ولكن هشاماً أصر على رأيه[3] .

كبـــار الموظفين في العصر الأموي :

١ – الأمير أو الوالي : كانت واجبات الخليفة امامة الصلاة اليومية وقيادة جيوش المسلمين ، وجمع الضرائب والصدقات ، وانفاقها كما ينبغي ان تنفق عليه ، وادارة العدالة المدنية والجنائية . وفي الولاية آلت هـــذه الواجبات جميعاً إلى الوالي ، اذ خول مطلق السلطات ، فكان يؤم بنفسه الصلاة في المسجد الجامع بحاضرة الولاية ، ويعد الترتيبات لامامة الصلاة في سائر أنحاء الولاية . ويقود جيوش الولاية بنفسه أو يعين لها قادة مناسبين . ويعين جميع

---

١ – انظر كتابنا (تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي) ص ٣٨٤ .
٢ – الأحكام السلطانية ص ١٩٣ .
٣ – الألوسي : بلوغ الأرب ج ١ ص ٣٥١ .

عمال الولاية ، مثـــل صاحب الخراج وعامل الصدقات وكتّاب الدواوين وغيرهم . وأحياناً كان الخليفة نفسه يعـــين في المناصب الهامة للولاية كبار الموظفين . وكان الوالي يقوم بالتعيين عادة ويخبر الخليفة [1] .

٢ ـ عامل الصلاة : كان احياناً يتولى الوالي وظيفة عامل الصلاة ، ولكن كثيراً ما كان الخليفة يعين عاملاً يقتصر عمله على الصلاة .

٣ ـ عامل الخراج : حرص الخلفاء الراشدون والأمويون من بعدهم على جعل عمال الخراج مستقلين عن الولاة ، وكانوا يرمون من وراء ذلك الى اضعاف نفوذ الأمير أو العامل ، فعينوا جباة للأموال يقومون بجباية ايرادات الولاية وانفاق المصروفات اللازمة لها ، ثم ارسال الباقي إلى بيت المال في دمشق[2] . وكان عامل الخراج من أهم العمال ، وكان يعمل مـــع الأمير أو العامل ، في ادارة شئون الولاية ، الامير للشئون السياسية والادارية ، وعامل الخراج للشئون المالية ، وكان أحياناً بمثابة الرقيب على أعمال الأمير ، وقد أرسل كثير من هؤلاء الموظفين الماليين التقارير السياسية الى دار الخلافة في دمشق يشكون فيها الأمير وينتقدون سياسته ، وكانت السلطات في دمشق تسمع لهم ، وتأخذ برأيهم ، وهذا ما أدى الى تنازع السلطة والمنافسة بين الأمير وعامل الخراج ، وهو ما يعلل قصر عهد الولاة وعمال الخراج في عهد بني أمية .

٤ ـ عامل الصدقة : كان عثمان بن عفان أول من عين عاملاً للصدقات[3] . وكان الخلفاء الأمويون يعينون عمالاً للصدقات غير عمال الخراج ، اذ ان مال الصدقة لا ينبغي ان يدخل في مال الخراج ، فان مال الخراج فيء لجميع المسلمين بينما الصدقات لمن سماهم الله في كتابه العزيز : إنما الصدقاتُ للفقراء

---

١ ـ حسيني : الادارة العربية ص ٢٠٦ .
٢ ـ تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي للمؤلف ص ٣٨٤ .
٣ ـ اليعقوبي ج ٢ ص ١٤٢ .

والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهـــم وفي الرقاب والغارمين[1] .

٥ ــ الكاتب : من أكبر أعوان الخليفة « الكاتب » فكان عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وزيد بن ثابت ومعاوية بن أبي سفيان والمغيرة بن شعبة يكتبون القرآن والكتب التي كان النبي يرسلها إلى الملوك والأمراء . ولما ولي أبو بكر الخلافة اتخذ عثمان بن عفان كاتباً له ثم اتخذ عمر زيد بن ثابت وعبد الله ابن الأرقم ، واتخذ عثمان مروان بن الحكم .

ولما قامت الدولة الأموية تعدد الكتّاب بتعدد مصالح الدولة ، فأصبحوا خمسة : كاتب الرسائل ، وكاتب الخراج ، وكاتب الجند ، وكاتب الشرطة ، وكاتب القاضي ، وأهم هؤلاء الكتبة كاتب الرسائل ، ولذا كان الخلفاء لا يولون هذا المنصب الا أقرباءهم وخاصتهم لخطورته وأهميته . ومن أبـــرز الكتّـــاب في العصر الأموي زياد بن أبيه كـــاتب أبي موسى الأشعري ، وسالم كاتب هشام بن عبد الملك ، وعبد الحميد الكاتب كاتب مروان ابن محمد .

٦ ــ الحاجب : أول من اتخذ الحجاب من الخلفاء معاوية بعد أن حاول الخوارج اغتياله ، كما أراد أن يتلافى ازدحام الناس على أبوابه مما يشغله عن تصريف شئون الدولة . والحاجب موظف كبير يشبه منصب كبير الأمناء أو رئيس التشريفات . ومن واجباته ادخال الناس على الخليفة حسب مركزهم الاجتماعي وأهمية عملهم . ولكن الخلفاء كانوا يبيحون الدخول لثلاثة في أي وقت شاءوا دون استئـــذان أو تأخير ، وهم صاحب البريد لخطورة مـــا يحمله من رسائل ، وصاحب الطعام مخافة لفساده ، والداعي للصلاة فانه داعي الله .

---

١ ــ أبو يوسف : الخراج ص ٤٥ .

القضاء في العصر الأموي :

قامت الخلافة الأموية سنة ٤٠ هـ وانتقلت حاضرة الخلافة إلى دمشق ، وفي العصر الأموي ظهر أثر الامتزاج بين العرب الفاتحين والأمم المفتوحة ، ولكن هذا الامتزاج وما يتبعه من تأثر الفقه الاسلامي بالقانون الروماني لم يكن خطيراً في حال من الأحوال ، ولكننا لا ننكر ان القانون الروماني أفاد من ناحية عرض المسائل على الفقهاء ليبدوا فيها رأيهم حسب القواعد الكلية للشريعة الاسلامية . ومن المحقق ان مصر والشام كانت تحكمهما محاكم رومانية بالقانون الروماني ، فلما جاء الاسلام ودخلت مصر والشام في النظام الجديد ، كان من المفروض ان يعرض المحكومون تقاضيهم القديم ، وآراء محاكمهم القديمة على الاسلام لينظروا ما يقر منها ، وما يرفض . ولما كان قضاة الاسلام في الصدر الأول ينعمون بشيء كثير من المرونة والتسامح فيما لم يخرج عن قواعد الاسلام، فليس بغريب أن يستمعوا للمتخاصمين، وأن يعرض هؤلاء عليهم النصوص القانونية القديمة، وأن يستمع لها القاضي بشيء كثير من رحابة الصدر .

لم يهتم الخلفاء الأمويون بشيء من شئون التشريع الا ما كان في عهد عمر بن عبد العزيز ، ولذا لم يرقَ التشريع في العصر الأموي ، كما كان الحال في عهد العباسيين ، واقتصر الرقي على المدارس وحلقات الدروس فيها ، ولم يبذل الأمويون محاولة في صبغ تشريعهم صبغة رسمية ، فلا نرى في الدولة الأموية مثل أبي يوسف في الدولة العباسية يحميه الخلفاء ويشجعونه . ولكن من الانصاف أن نقول إن القضاء في العصر الأموي لم يكن متأثراً بالسياسة، اذ كان القضاة مستقلين في أحكامهم ولا يتأثرون بميول الدولة الحاكمة . وكانوا مطلقي التصرف وكلمتهم نافذة حتى على الولاة وعمال الخراج .

في العصر الأموي لم تكن المذاهب الأربعة قد تكونت بعد ، وانما كان

هناك أئمة كثيرون مجتهدون كالأوزاعي وغيره ممن اندثرت مذاهبهم . وكان القاضي يحكم بما يوحيه اليه اجتهاده . فكان يستنبط الحكم بنفسه من الكتاب والسنّة أو الاجماع ، أو يجتهد في الحكم اجتهاداً .

في أواخر العصر الأموي ، ظهر امامان من الأئمة الأربعة ، الامام أبو حنيفة في العراق ، والامام مالك بن أنس في المدينة ، والأول ولد سنة ٨٠ هـ في خلافة عبد الملك بن مروان ، وعاش نحو ١٨ سنة في ظل الدولة العباسية ، واشتهر بقدرته التشريعية ، وقوة حجته ، وحسن منطقه ودقته في الاستنتاج ، أما الامام مالك فقد ولد سنة ٩٦ هـ بالمدينة من أصل عربي ، واشتهر انه حجة في الحديث ، ويمتاز مذهبه باعتماده على الحديث أكثر من أبي حنيفة ، وتوفي سنة ١٧٩ هـ ، وخلف لنا كتاب (الموطإ) وهو كتاب فقه وان ملىء حديثاً ، ولم يكن غرضه فيه ان يجمع الأحاديث المعروفة في عهده ، أو التي صحت عنده ، وانما كان غرضه الاتيان بالتشريع مستدلاً عليه بالحديث، ولذلك تجد فيه فتاواه الشخصية وآراءه في بعض المسائل .

لم تكن الأحكام القضائية في العصر الأموي على منوال واحد ، لأن المجتهدين لم يكونوا على رأي واحد ، ولم تفطن الدولة الأموية إلى ضرورة جمع كلمة المجتهدين على قضاء واحد واحكام واحدة ، فكان القاضي في مصر يحكم في أمر واحد بما يختلف مع قاضي العراق في الأمر نفسه .

وكان بعض القضاة أسرع من غيرهم في المحافظة على حقوق الناس والضعفاء من الشعب ، فقد تولى القضاة مراقبة أموال اليتامى ، وأول قاض نظر فيها عبد الرحمن بن معاوية بن حديج قاضي مصر من قبل عبد العزيز ابن مروان ، فانه ضمن عريف كل قوم أموال يتامى تلك القبيلة[1] . وقد رأينا أن قاضي مصر فعل ذلك دون أمر الخليفة والأمير ، وانما أداه اجتهاده

---

١ — الكندي : الولاة والقضاة .

إلى ذلك ، وكذلك فعلوا في مسألة الأحباس ، فان توبة بن نمر في خلافة هشام ابن عبد الملك أول من وضع يده عليها ، وكانت الأحباس هذه في أيدي أهلها أو اوصيائهم ، فلما كان توبة قال : ما أرى مرجع هذه الصدقات الا الى الفقراء والمساكين فأرى أن أضع يدي عليها حفظاً لها من الضياع والتوارث ، فلم يمت توبة حتى صار الأحباس ديواناً عظيماً ، وكان ذلك سنة ١١٨ هـ . فذلك أول انشاء ديوان الأوقاف بمصر .

وكان اختيار القضاة يرجع غالباً الى امراء الأمصار ، فهم الذين يعينون من يقوم بالقضاء بين الناس ، واحياناً كان الخلفاء يولون القضاة . أما قاضي الحاضرة فيختاره الخليفة وليس له امتياز على غيره من القضاة ، ولا رأي له في اختيار احد منهم ، ومعنى ذلك انه لم يكن في عهد الأمويين قاض للقضاة ، بل كان كل قاض مستقلاً عن القاضي الآخر في الولاية الاخرى .

الحسبة :

كانت سلطة القاضي موزعة بينه وبين المحتسب وقاضي المظالم : فوظيفة القاضي فض المنازعات المرتبطة بالدين بوجه عام ، ووظيفة المحتسب النظر فيما يتعلق بالنظام العام وفي الجنايات احياناً مما يحتاج الفصل فيها إلى السرعة ، ووظيفة قاضي المظالم الفصل فيما استعصى من الأحكام على القاضي والمحتسب[1] .

كان القضاء والحسبة يسندان في بعض الأحيان إلى رجل واحد ، مع ما بين العملين من التباين : فعمل القاضي مبني على التحقيق والاناة في الحكم ، وعمل المحتسب مبني على الشدة والسرعة في الفصل .

وضع عمر بن الخطاب نظام الحسبة ، وتولى هو وظيفة المحتسب . ويمكننا

---

١ – حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ١ ص ٤٨٩ .

ان نلخص واجبات المحتسب في أنها « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » ، فكان المحتسب ينظر في مراعاة احكام الشرع ، والاشراف على نظام الأسواق والحيلولة دون بروز الحوانيت مما يعوق نظام المرور ، ومنع مضايقات الجمهور . والاشراف على الموازين والمكاييل ، وعلى استيفاء الديون ، ومراقبة تسعيرة المواد الضرورية ومراقبة المباني المتداعية ومنع الحمالين والملاحين من الاسراف في الحمل ، ومنع المعلمين من ضرب تلاميذهم ضرباً مبرحاً ؛ « وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة ولا انفاذ حكم . وكأنها أحكام ينزه القاضي عنها لعمومها وسهولة أغراضها فتدفع إلى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها ؛ فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء »[1] .

فكأن المحتسب كان يقوم ببعض مهام شرطة الآداب ، وموظفي البلدية . ومفتشي التموين ، وشيوخ الحارة ، وغيرهم من موظفي الحكومات الحديثة .

قضـــاء المظـــالم :

كان قاضي المظالم ينعم بسلطة قضائية أعلى من سلطة القاضي ، والمحتسب تعرض عليه القضايا التي يعجز فيها القاضي عن تنفيذ حكمه في رجل من الأعيان أو الأشراف . وقد دعت الحاجة الى انشاء هذه المحكمة لوقف تعدي ذوي الجاه والحسب ولهذا كان يسند الأمر في المظالم إلى رجل عظيم القدر كثير الورع ، ويمكننا أن نشبه هذا النوع من القضاء بمحاكم النقض أو الاستئناف في تاريخنا الحديث .

كان العرب في العصر الجاهلي يهتمون بقضاء المظالم ، فقد تحالفوا على المظالم ، كما فعلت قريش قبل الاسلام . وذلك أنهم لما تعدد فيهم الزعماء وكثر التنافس واشتد الصراع ، اجتمعت بطونهم وعقدوا حلفاً على رد المظالم

---

١ – مقدمة ابن خلدون .

وانصاف المظلوم من الظالم ، وهو حلف الفضول المشهور الذي عقد في مكة .

لم يجلس للمظالم أحد من الخلفاء الراشدين ، لأن الناس كانوا في صدر الاسلام أقرب إلى عهد النبوة بما فيه من ورع وتقوى ، وأبعد عن المظالم . ثم احتاج الأمر إلى أن يجلس الامام للمظالم ، ولكنه لم يفرد يوماً خاصاً للنظر فيها وانما كان اذا جاء متظلم أنصفه ، ثم صار تخصيص يوم معين للنظر في المظالم ، وأول من فعل ذلك عبد الملك بن مروان ، لكنه كان اذا وقف منها على مشكل احتاج فيه الى حكم رده الى قاضيه ابن ادريس الأزدي ، فكان ابن ادريس المباشر وعبد الملك الآمر ، وكانت محكمة المظالم تنعقد تحت رئاسة الخليفة أو الوالي أو من ينوب عنهما .

وكان صاحب المظالم يعين يوماً يقصده فيه المتظلمون ، اذا كان من الموظفين لينصرف بقية أيام الأسبوع إلى عمله الآخر ، وأما إذا كان خاصاً بالمظالم ، فانه كان ينظر في المظالم كل أيام الأسبوع . وكانت محكمة المظالم تنعقد في أحد المساجد كغيرها من المحاكم التي يعقدها القضاة ، وكان صاحب المظالم يحاط بخمس جماعات مختلفة لا ينتظم عقد جلساته الا بحضورهم :

١ ـ الحماة والأعوان : وقد اختيروا بحيث يستطيعون التغلب على كل من يلجأ إلى القوة والعنف ، أو الفرار من وجه القضاء .

٢ ـ القضاة والحكام : ومهنتهم الاشارة على قاضي المظالم بأقوم الطرق لرد الحقوق الى أصحابها وإعلامه بما يجري بين الخصوم لمعرفتهم بشتات الأمور الخاصة بالمتقاضين .

٣ ـ الفقهاء : وإليهم يرجع قاضي المظالم فيما أشكل عليه من المسائل الشرعية .

٤ ـ الكتّاب : ويقومون بتدوين ما يجري بين الخصوم واثبات ما لهم وما عليهم من الحقوق .

٥ – الشهود : ومهنتهم الشهادة على أن ما أصدره القاضي من الاحكام لا ينافي الحق والعدل(١) .

وكان من اختصاص قاضي المظالم النظر في القضايا التي يقيمها الأفراد والجماعات على الولاة اذا حادوا عن طريق العدل والانصاف ، وعلى عمال الخراج اذا اشتطوا في جمع الضرائب ، وعلى كتّاب الدواوين اذا حادوا عن اثبات أموال المسلمين بنقص أو زيادة ، والنظر في تظلم المرتزقة اذا أُنقصت ارزاقهم ، أو تأخر ميعاد دفعها اليهم . وكان يستعان بشخصية صاحب المظالم ونفوذه وهيبته في التأثير على الخصم حتى يعترف بالحق ، فاذا اعترف حكم عليه باعترافه . وتنفيذ ما يعجز القاضي والمحتسب عن تنفيذه من الأحكام ، ومراعاة اقامة العبادات كالجمع والأعياد والحج والجهاد .

الشرطة :

الشرطة هي الجند الذين يعتمد عليهم الخليفة أو الوالي في استتباب الأمن وحفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين ، وما إلى ذلك من الأعمال الادارية التي تكفل سلامة الجمهور وطمأنينتهم . وقد سموا بذلك لأنهم أشرطوا لأنفسهم بعلامات خاصة يُعرفون بها .

كان عمر بن الخطاب أول من أدخل نظام العسس في الليل . وفي عهد علي ابن أبي طالب نظمت الشرطة ، وأُطلق على رئيسها صاحب الشرطة . وكان يختار من علية القوم ومن أهل العصبية والقوة ، وهو أشبه بالمحافظ في هذا العصر ، لأنه يتولى رئاسة الجند الذين يساعدون الوالي على استتباب الأمن(٢) .

كانت الشرطة في أول الأمر تتبع القضاء ، فكان من مهامها تنفيذ أحكام

---

١ – حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ١ ص ٤٩٢ .
٢ – حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ١ ص ٤٦٠ .

القضاة أو فرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم ، فكانت الشرطة خادمة القضاء تساعد القاضي في اثبات الذنب على مرتكبه وتساعد الحكومة على تنفيذ الحكم . ويتولى صاحبها أيضاً اقامة الحدود ، كما يتولى كثيراً من الامور الشرعية التي يجلون مقام القاضي عنها . ولكن الشرطة لم تلبث ان انفصلت عن القضاء . وأصبح لصاحب الشرطة الاستقلال بالنظر في الجرائم التي تعرض عليه . وقد ادخل هشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥ هـ) نظام الأحداث ، وكان صاحبه يشرف على الأعمال العسكرية التي تعتبر وسطاً بين أعمال صاحب الشرطة والقائد .

في مصر ، كان مقر الشرطة في مصر ، حتى اذا انشئت مدينة العسكر عام ١٣٢ هـ انشئت فيها دار اخرى للشرطة اطلق عليها دار الشرطة العليا ، كما اطلق على دار الشرطة في الفسطاط دار الشرطة السفلى ، ويرجع سبب هذه التسمية الى ان الفسطاط كانت في جنوب العسكر فسميت شرطتها الشرطة السفلى .

٦ . الخلافة العباسية في بغداد

الخلافة العباسية بين عصرين :

جرت عادة المؤرخين على تقسيم الخلافة العباسية الى عصرين : أولهما العصر العباسي الأول ، ويبدأ منذ قيام الخلافة العباسية في العراق بعد سقوط الخلافة الأموية سنة ١٣٢ هـ ، وقد استمر هذا العصر مائة عام تميز بصبغة فارسية في جميع النواحي ، سواء سياسية أو ادارية أو اجتماعية أو ثقافية . ثم بدأ العصر العباسي الثاني سنة ٢٢٢ هـ بتولي (المتوكل على الله) الخلافة ، وانتهى هذا العصر بسقوط الدولة العباسية على أيدي المغول سنة ٦٥٦ هـ ، وتميز هذا العصر بسيطرة العناصر الأجنبية وخاصة الأتراك والفرس ، واستبدادهم بالمناصب الدينية والعسكرية وحرمان العرب منها رغم أنهم كانوا مادة الاسلام وقوام الدولة ، مما أدى إلى ضعف عصبيتهم وانصراف قلوبهم عن تأييد الدولة .

ورغم مظاهر الضعف هذه ، كان للعصر العباسي الثاني ميزاته ومظاهر حضارته ، فقد اشتهر فيه كثير من الخلفاء الذين حاولوا اعادة الدولة العباسية الى ماكانت عليه من قوة ومجد ، كما ظهر فيه بعض الدويلات الصغيرة المتنافسة ،

مثل السامانية والبويهية والحمدانية والغزنوية والسلجوقية ، فكان لتلك الدويلات أثر محمود في تقدم الحضارة الاسلامية وتشجيع العلوم والآداب والفنون وغيرها ، مع أنها كانت من عوامل ضعف الدولة العباسية [1] .

جرت العادة على تقسيم العصر العباسي الثاني إلى أربعة عصور : عصر نفوذ الأتراك (٢٣٢ – ٣٢٤ هـ) ، وعصر امرة الأمراء (٣٢٤ – ٣٣٤ هـ) ، وعصر بني بويه (٣٣٤ – ٤٤٧ هـ) ، والعصر السلجوقي (٤٤٧ – ٦٥٦ هـ) .

أولاً : عصر نفوذ الأتراك :

كان الخليفة المأمون ، في العصر العباسي الأول ، أول من استعان بالأتراك . وكان انتصاره على أخيه الأمين هو انتصار الفرس على العرب ، لكن المأمون رأى كبح جماح الفريقين وتسكين روح العصبية بينهما ، فاستعان بالأتراك في جيشه ، لكنهم لم يصبحوا خطراً على الدولة فقد كانت في أوج عظمتها .

أما الخليفة العباسي المعتصم (٢١٨ هـ) فكان أول من أتاح الفرصة للأتراك ليستحوذوا على السلطة ، مدفوعاً بعاملين ، أولهما حقده على الفرس لأنهم حاولوا الثورة عليه وتنصيب العباس بن المأمون خليفة ، وثانيهما أن أم المعتصم كانت تركية .

زاد الأتراك في بغداد حتى ضاق بهم أهلها ، وبدأ دور جديد من العصبية ، فقد كان النزاع قبلاً بين الفرس والعرب ، فأصبح بين العرب والفرس والأتراك . وكان نفوذ العرب قد ضعف كثيراً ، فاتجه الأتراك إلى إضعاف الفرس ، وعانى أهل بغداد من الأتراك ، فنقل المعتصم الأتراك إلى القاطول ثم إلى سامراء . واستمر الواثق ، الذي خلف المعتصم ، في الاعتماد

---

١ – حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ٣ ص ٢ .

على الأتراك ، بل نصب اشنـــاس التركي (٢٢٨ هـ) سلطاناً ، فكان أول خليفة يستخلف سلطاناً .

يبدأ عصر نفوذ الأتراك سنة ٢٣٢هـ ببداية خلافة (المتوكل على الله)، وشهد عشرة خلفاء عباسيين ضعفاء أصبحوا ألاعيب في أيدي الأتراك ، وانتهى مصير الغالبية العظمى منهم بالقتـــل أو سمل العيون أو السجن أو الخلع . وقد وصف ستانلي لين بول[1] الانقلاب من الحكم العربي إلى الحكم التركي بأنه مظهر من مظاهر الثورة التي شعر بها جميع أقطار الخلافة وأدت إلى اضعاف سلطة الخليفة ثم زوالها في النهاية .

أصبحت شئون الخلافة في يد الأتراك ، وأصبحوا مصدراً دائماً للقلق والاضطراب ، فهم يكرهون الفرس والعرب ، وهم أنفسهم ليسوا في وفاق بعضهم مع بعض ، وهم لا ينقطعون عن المؤامرات والدسائس ، وتعصب كل فريق لقائد منهم ، وأصبحت بغداد (دار السلام) ليست بدار سلام .

في عهد المتوكل (٢٣٢ هـ) كانت السلطة الحقيقية في يد ايتاخ التركي، وكان في مبدإ حياته غلاماً تركياً اشتراه المعتصم ليعمل في مطبخه ، وشعر المتوكل بتضييق الأتراك عليه فأراد نقل حاضرته إلى دمشق عاصمة الأمويين (٢٤٣ هـ) واعتقد أن العنصر العربي يغنيه عن العنصر التركي ، ولكنه لم يطل مقامه فيها فعاد إلى سامراء بعد ثلاثة أشهر ، فقد ثار عليه جنود الشام يطالبونه بالأعطيات ، وفي سامراء حاول المتوكل التخلص من الأتراك ، لكنهم تحالفوا مع ابنـــه المنتصر وقتلوه (٢٤٧ هـ)[2] .

ضاق (المنتصر) بالأتراك فأصبح يسبهم ويسميهم (قتلة الخلفاء)، فدبروا مؤامرة لقتله سنة (٢٤٨هـ)، واجتمع القواد الأتراك وتشاوروا فيمن يتولى

---

١ – Hist. of Egypt in the Middle Ages, P. 23

٢ – المسعودي : مروج الذهب جـ ٣ ص ٣٩٠ .

الخلافة ، فاتفقوا على تولية احمد بن محمد المعتصم الذي تلقب بالمستعين بالله ، وأراد المستعين البقاء في بغداد بينما أصر الأتراك أن يقيم بينهم في سامراء ، وحرضوا عليه ابن عمه (المعتز) فقتله سنة ٢٥٢ هـ وخلفه ، وفي عهده زاد نفوذ الأتراك ، ويروي الفخري أن المعتز سأل أحد المنجمين عن مدى عمره وخلافته فقال : « مهما أراد الأتراك » . وما لبث أن أرغمه الأتراك على التنازل عن الخلافة ، ثم سجنوه في سرداب دون طعام وشراب حتى مات[١] .

تولى المهتدي (٢٥٥ هـ) فأصبح العوبة في يد الجند الأتراك ، وحاول المهتدي الخلاص من نفوذهم ، فقتلوه وولوا المعتمد على الله بن المتوكل ، الذي ما لبث أن مات مسموماً (٢٧٩ هـ) فخلفه المعتضد بالله ، وفي عهده بدأ انحلال الدولة العباسية ، فقد استولى الصفارية على معظم بلاد فارس ، واستولى القرامطة على الكوفة ، وظهرت الدعوة الفاطمية في اليمن والمغرب ، وظهرت الدولة السامانية في بلاد ما وراء النهر ، إلى جانب انتزاع الطولونيين مصر وبرقة .

تولى المكتفي بالله (٢٨٩ هـ) وفي عهده سيطر السامانيون على فارس ، والقرامطة على الشام والمناطق المحيطة ببغداد والبصرة ، وقامت الدولة الفاطمية في المغرب والدولة الإخشيدية في مصر . ثم تولى المقتدر (٢٩٥ هـ) وفي عهده أعلن عبدالرحمن الناصر الخلافة الأموية في الأندلس . وقد اشتهر المقتدر بالاسراف واللهو وتدخل النساء في شئون الحكم ، وخاصة أمه (السيدة) التي عينت قهرمانتها (ثومال) صاحبة للمظالم[٢] .

وصف وليم مور[٣] الدولة العباسية في عهد المقتدر فقال : هوى المقتدر بالدولة إلى الهاوية ، فضاعت افريقية ، واوشكت مصر على الضياع ، واستقل

---

١ – ابن الأثير : الكامل جـ ٧ ص ٦٩ .

٢ – ابن الأثير : جـ ٨ ص ٧٠ .

٣ – The Caliphate, P. 567

الحمدانيون بالموصل ، واستمرت غارات البيزنطيين ، وثورات القرامطة ، وأصبح المقتدر ألعوبة في أيدي قواد الأتراك .

خلع الأتراك المقتدر مرتين ثم ذبحوه في النهاية سنة ٣٢٠ هـ ، فتولى أخوه القاهر ، وكان ميالاً لسفك الدماء ، مدمناً للخمر سيء السيرة ، فثار عليه وزيره ابن مقلة وخلعه وسمل عينيه وأصبح يتسول أمام المسجد[1] ، وخلفه الراضي سنة ٣٢٤ هـ وبدأ في عهده (عصر امرة الأمراء) .

ثانياً : عصر امرة الأمراء (٣٢٤ – ٣٣٤ هـ) :

ازداد ضعف الخليفة العباسي نتيجة استبداد الأتراك بشئون الدولة واتساع نفوذ الدول المستقلة ، فقد سيطر علي بن بويه على فارس ، وسيطر أخوه حسن بن بويه على الري وأصبهان وبلاد الجبل ، واستقل بنو حمدان بالموصل وديار بكر وربيعة ومضر . واستقل محمد بن طغج الإخشيد بمصر ، واستقل نصر بن أحمد الساماني بخراسان ، وأعلن عبد الرحمن الناصر بالأندلس نفسه خليفة ، وأصبح في العالم الاسلامي ثلاث خلافات : العباسية في بغداد ، والفاطمية في المغرب ، والأموية في الأندلس .

أما الأتراك فقد دب بينهم الانشقاق نتيجة تنافسهم حول السلطة ، إلى جانب ثورات الجند المستمرة عليهم لزيادة الاعطيات ، وانشغل القواد الأتراك بمشاكلهم الداخلية واخماد الثورات وطلب المال عن الخلافة والوزارة بما اطلق يد الخليفة الى حد ما في اختيار وزرائه ، وطمع الكثير في الوزارة وسعوا اليها بطريق الرشوة ، وكان الخليفة يقبلها لافلاس خزائنه ، ويكثر من استبدال الوزراء ما دام الثمن مغرياً . وبمرور الزمن شعر الأتراك بقرب زوال نفوذهم فبدأوا يرحلون إلى ولاياتهم ، وشعرت الخلافة بضعف الوزراء وعجز الأتراك ، فتطلعت إلى بعض حكام الامارات القريبة من العراق تستعين

---

١ – الفخري : ص ٢٤٩ .

بهم علهم ينقذون الموقف[1] .

لمس الراضي عجز الوزراء فرأى أن يستعين بشخصية قوية ، فبعث إلى محمد بن رائق والي البصرة وواسط يعرض عليه أن يتولى الحكم في بغداد، فقدم اليها مسرعاً ، فسلمه الراضي مقاليد الأمور ، وولاه الخراج والدواوين وأمر أن يخطب له على جميع المنابر ، ولقبه (أمير الأمراء) وأصبح في يده تولية الولاة والوزراء وعزلهم[2] .

وأصبحت حالة الخلفاء العباسيين في عهد امرة الأمراء تشبه حالة ملوك الميروفنجيين الذين كانوا أشبه بألاعيب في أيدي نظار السراي والذين لم يعد لهم من الأمر شيء إلاّ الظهور في الحفلات الرسمية[3] .

لم تستفد الخلافة العباسية من هذا النظام الذي ادخله الراضي بانشاء منصب أمير الأمراء لاقالة الخلافة من عثرتها ، بل ازدادت الحالة سوءاً . وان من يتتبع عهد الراضي «٣٢٢ — ٣٢٩هـ»، والمتقي «٣٢٩ — ٣٣٣هـ»، والمستكفي «٣٣٣ — ٣٣٤ هـ» ذلك العهد الذي انتهى بدخول بني بويه بغداد واستبدادهم بالأمر دون الخليفة وأمير الأمراء يجده عبارة عن سلسلة منازعات لا تنقطع بين رجالات الدولة العباسية الذين عمل كل منهم على الاستئثار بالسلطة وتولي امرة الأمراء .

ثالثاً : عصر بني بويه :

ظهر بنو بويه في مطلع القرن الرابع الهجري ، وتاريخهم يحيط به الغموض ، فيرى بعض المؤرخين انهم ينتسبون إلى بهرام جور أحد ملوك ساسان ، أو إلى كبير وزرائه ، مهرنرسي ، وينسبهم البعض إلى بني ضبة

١ — محمد حلمي : الخلافة والدولة ص ٩٥ .
٢ — مسكوية : تجارب الأمم ج ١ ص ٣٥١ .
٣ — حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٣ ص ٢٨ .

من العرب [1].

مكنت الفوضى التي سادت عصر امرة الأمراء البويهيين من السيطرة على بغداد في سهولة ويسر، ولكنهم أخفقوا في أن يحققوا الهدوء والأمن، بل حذوا حذو اسلافهم في الحجر على الخلفاء، وزاد الطين بلة أن البويهيين اعتنقوا المذهب الشيعي بينما الخلفاء على المذهب السني.

أصبحت الخلافة العباسية في عهد بني بويه تستند إلى قوة أسرة أجنبية ولم يعد للخليفة من الأمر شيء سوى سلطته الدينية ممثلة في ذكر اسمه في الخطبة والسكة. ولم يكن ذلك الا لأغراض سياسية، غايتها احتفاظ هؤلاء الحكام بمراكزهم امام الجمهور. وعلى الرغم من أن الخليفة قد أصبح مسلوب السلطة، فقد كان بنو بويه يراعون مظاهر احترامه في الحفلات، كما كانوا ينظرون اليه باعتباره الرئيس الأعلى للجماعة الاسلامية، فكان الخليفة يستقبل السفراء ويلبس بردة النبي صلى الله عليه وسلم، ويضع أمامه مصحف عثمان توكيداً لسلطته الدينية [2].

رابعاً: العصر السلجوقي:

ينتسب السلاجقة إلى سلجوق بن تفاق أحد رؤساء التركمان وموطنه الأصلي بلاد ما وراء النهر. وقد غزا طغرلبك السلجوقي بلاد خراسان، واستولى على الولايات الغربية للدولة الغزنوية، كما أدخل تحت سلطانه أملاك بني بويه، ودخل بغداد في سنة ٤٤٧ هـ، وبقي فيها هو وأولاده من بعده إلى أن استولى عليها المغول سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م).

لم تكن حالة الخلفاء العباسيين أيام السلاجقة أحسن مما كانت عليه زمن البويهيين، فانه بينما كان أمراء بني بويه يقيمون في بغداد أو يجمعون

---

١ – الدوري: العصور العباسية المتأخرة ص ٢٤٤.
٢ – حسن وعلي ابراهيم: النظم الاسلامية ص ٩٠.

كل السلطة في أيديهم ، كان نواب السلاجقة العسكريون يحكمون العراق ويستأثرون بالسلطة ، وكان الخلفاء العباسيون يعيشون في أيام السلاجقة من اقطاعات مقررة ، يديرها عمال على رأسهم الوزير وكاتب الانشاء كما كانت في أيام بني بويه ولم يكن لهم من الأمر شيء سوى ذكر اسمهم في الخطبة .

على أن معاملة السلاجقة للخلفاء العباسيين كانت أفضل بكثير من معاملة بني بويه لهم . ويعزو المؤرخون ذلك الى اشتراك العباسيين مع السلاجقة في المذهب السني أو ارتباطهم بالمصاهرة ، ولكن أرنولد[1] يرى أن السلاجقة كانوا يحترمون الخليفة العباسي لاعادة ما كان للخلافة العباسية من نفوذ وسلطان ، حتى انهم استطاعوا في أواخر عهد السلاجقة ان يظفروا ببعض السلطة وخاصة عندما قام النزاع بين أفراد البيت السلجوقي .

وعلى الرغم من أن الخليفة العباسي قد أصبح طوال عصر انحلال الدولة العباسية ألعوبة في أيدي أمراء من الأتراك أولاً ، ثم في أيدي بني بويه والسلاجقة ، فقد ظل الخليفة محتفظاً بسلطته الدينية في عهد السلاجقة ، كما ظل محتفظاً بهذه السلطة عند غيرهم من الامراء الذين كونوا اماراتهم بقوة السيف اذ ثبت في اذهان الناس ان الخلافة نظام لا بد منه لصالح العالم واستقامة شئونه ، وان الخليفة هو مصدر السلطات[2] .

مميزات الخلافة العباسية :

أولاً : العصر العباسي الأول .

كان الخليفة العباسي يقوم على رأس الحكومة باعتباره مصدر كل السلطات ، وقد كان من حقه أن يعهد بممارسة سلطته المدنية إلى وزير ، وسلطته القضائية

---

١ – الخلافة ص ٤٣ .
٢ – حسن وعلي ابراهيم : النظم الاسلامية ص ١٠٠ .

إلى قاض ، ووظيفته الحربية إلى قائد أو أمير . ولكن الخليفة نفسه رغم كل هذا العهد ، كان يظل أبداً الملجأ الأخير في كل شئون الحكومة . وقد اقتفى خلفاء بغداد الأول في وظيفتهم وسلوكهم اثر الفرس القدماء[1] .

وضع أبو جعفر المنصور أساس النظام السياسي الذي سارت عليه الدولة العباسية في العصر العباسي الأول ، وهو النظام الذي كان منتشراً في الشرق ، وكان مألوفاً عند الفرس منذ أيـــام (اكزركيس) ، وبذلك تمكن العباسيون من أن يحكموا البلاد على النحو الذي كان يحكم به آل ساسان من قبل .

وبقيام الدولة العباسية تطور نظام الخلافة ، فان تلك الدولة قامت على كواهل الفرس الذين سخطوا على الأمويين لعدم تسويتهم بالعرب في الحقوق السياسية والاجتماعية ، مع منافاة ذلك لحق المساواة الذي أقره القرآن والسنّة بين البشر . وقد حذا العباسيون حذو الأمويين في تولية العهد لأبنائهم .

وكان الفرس يقولون بنظرية الحق الملكي المقدس[2] ، بمعنى أن كل رجل لا ينتسب إلى البيت المالك ويتولى الملك يعتبر مغتصباً لحق غيره . لذلك أصبح الخليفة العباسي في نظرهم يحكم بتفويض من الله لا من الشعب ، ويتجلى هذا واضحاً في قول أبي جعفر المنصور : « انما أنا سلطان الله في أرضه » . وذلك ما يخالف ما كان عليه الخلفاء الراشدون الذين استمدوا سلطانهم من الشعب . يدل على ذلك قول أبي بكر عقب توليته الخلافة : « ان أحسنت فأعينوني وان أسأت فقوموني » . وقول الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز : « لست بخير من أحدكم ولكني أثقلكم حملاً »[3] .

تحدث سيد أمير علي عن نظام الخلافة في العصر العباسي الأول الى

---

١ — حتى : تاريخ العرب ص ٣٩٥ .

٢ — The Divine Rights of Kings

٣ — حسن ابراهيم : النظم الاسلامية ص ٢٠٥ .

عهد الرشيد ، فقال : لقد ظل نظام الحكم في الدولة العباسية استبدادياً الى عهد الرشيد ، على الرغم من ان أصحاب الدواوين أو البارزين من أفراد البيت العباسي كانوا بمثابة مستشارين غير رسميين . أما الخليفة فكان مصدر كل قوة ، كما كان مرجعاً لكل الأوامر المتعلقة بادارة الدولة (١) .

استفاد العباسيون من حركة الرجعية التي قامت ضد بعض الخلفاء الأمويين غير الأتقياء ، فطبع الخلفاء العباسيون من أول خلافتهم أنفسهم بالطابع الديني ، وأحاطوها بالوقار الذي تستلزمه مظاهرهم باعتبارهم أئمة (٢) .

صبغ الخلفاء العباسيون خلافتهم بصبغة دينية . ورأينا النزعة الدينية عند الخلفاء العباسيين الأولين واضحة جلية ، ورأينا اتصال الخلفاء بالعلماء ورجال الدين أقوى وأوضح . فأبو جعفر المنصور يقرب العلماء والفقهاء ويصلهم ، والمهدي يشتد على الزنادقة وينشىء ديواناً للتنكيل بهم وعقابهم ويهتم بالأماكن المقدسة في الحجاز ، ويروي الأحاديث النبويـــة ، وكان الرشيد يحج سنة ويغزو سنة ويصلي كل يوم مائة ركعة .

وحرص الخلفاء العباسيون على ارتداء بردة الرسول صلى الله عليه وسلم عند تولي الخلافة ، أو في الحفلات الدينية ، باعتبار الخليفة نائباً عن الرسول في حكم المسلمين . كما تلقب الخليفة العباسي بلقب (امام) توكيداً للمعنى الديني في خلافة العباسيين ، بعد أن كان هذا اللقب يطلق في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين على من يؤم الناس في الصلاة ، على حين كان الشيعيون يطلقونه على أفراد البيت العلوي الذين كانوا يعتقدون أنهم أحق بالخلافة من سواهم . وبعد أن صارت الخلافة العباسية تستند إلى نظرية الحق

---

١ – سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب .
٢ – حتي : تاريخ العرب ص ٣٩٤ .

الالهي ، قرب الخلفاء اليهم العلماء ورجال الدين لينشروا بين الناس هذه النظرية التي أصبح لها شأن في الحياة السياسية في الدولة العباسية [1] .

نظام ولاية العهد في العصر العباسي الأول :

تحولت الخلافة في عهد الأمويين من نظام الشورى والانتخاب إلى النظام الملكي الوراثي ، فقد بايع معاوية بن أبي سفيان لابنه يزيد بولاية العهد دون أبناء الصحابة مثل الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الله ابن العباس ، وغيرهم . وكان الخلفاء الأمويون يولون العهد أحياناً لأكثر من واحد .

واتبع العباسيون هذا النظام وغالوا فيه ، فقد عهد أبو العباس السفاح (١٣٢ — ١٣٦ هـ) بالخلافة إلى أخيه أبي جعفر المنصور (١٣٦ — ١٥٨ هـ) . ثم الى ابن أخيه عيسى بن موسى بن علي بن عبد الله بن عباس . فلما تولى المنصور خلع عيسى بن موسى ، وبايع لابنه المهدي ، ثم لعيسى من بعده ، ولما تولى المهدي الخلافة (١٥٨ — ١٦٩ هـ) خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد ، وولى ولديه الهادي ثم هارون الرشيد . كذلك أراد الهادي (١٦٩ — ١٨٠ هـ) خلع أخيه هارون والبيعة لابنه جعفر ، مثلما فعل المهدي مع عيسى ابن موسى ، لولا أن مات الهادي قبل أن يضع مشروعه قيد التنفيذ . كما حاول الأمين خلع أخيه المأمون والبيعة لابنه مما أدى إلى صراع الأخوين .

ويعلق الدكتور حتي [2] على نظام ولاية العهد في العصر العباسي فيقول : ولقد حذا العباسيون حذو الأمويين في نظام الوراثة غير الواضحة المعالم ، وكانت نتيجته سيئة عليهم ، كما كانت سيئة على أسلافهم الأمويين ، وكان

---

١ — حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٢ ص ١٩٥ .
٢ — حتي : تاريخ العرب ص ٣٩٤ .

الخليفة المتولي الحكم يعين أحد أبنائه، ممن كان يحبهم أو يرى فيهم الكفاية، ولياً للعهد من بعده ، كما كان في بعض الأحيان يعين أحد أقربائه ولياً للعهد اذا كان يرى ان صفاته تؤهله لذلك .

نظام الوزارة في العصر العباسي الأول :

كانت كلمة (وزير) معروفة للعرب قبل الفتوحات الاسلامية ، ففي القرآن الكريم على لسان موسى : (واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي). وفي حديث السقيفة : « نحن الأمراء وأنتم الوزراء » . وفي طبقات ابن سعد : « أن أبا بكر كان وزيراً للنبي صلى الله عليه وسلم » . وفي الدولة الأموية كان اللفظ مستعملاً ، يقول الطبري : « ان زياداً كان يسميه معاوية وزيراً » .

ولكن الكلمة في كل المواضع لم تستعمل في المعنى الاصطلاحي الذي نعرفه الآن من كلمة الوزير ، وانما هي بمعنى المؤازر المناصر . قال ابن خلكان : « وقد اختلف أرباب اللغة في اشتقاق الوزارة على قولين : أحدهما أنها من الوِزر وهو الحمل ، فكأن الوزير قد حمل عن السلطان الثقل ، وهذا قول ابن قتيبة . والثاني أنها الوَزَر وهو الجبل يعتصم به لينجى به من الهلاك ، وكذلك للوزير معناه : الذي يعتمد عليه الخليفة أو السلطان ، ويلتجىء إلى رأيه ، وهو قول ابن اسحاق الزجاج » .

ويرجح المرحوم الاستاذ أحمد امين[1] ان أصل الكلمة عربي ، ولا يوافق على ما ذهب اليه بعض المستشرقين من أن أصل الكلمة فهلوي مأخوذ من فيشيرا ومعناها الأمر او التقرير .

لم تكن كلمة وزير بدعاً في العصر العباسي ، انما المبتدع هو انشاء هذا

---

١ — ضحى الاسلام جـ ١ ص ١٧٢ .

المنصب واعطاء صاحبه السلطة الرسمية ، وتلقيبه بهذا الاسم ، وهذا المنصب فارسي ولم يكن معروفاً قبل العباسيين .

قال ابن خلكان في ترجمة أبي سلمة الخلال : إن أبا سلمة أول من وقع عليه اسم الوزير ، وشهر بالوزارة في دولة بني العباس ، ولم يكن قبله من يعرف بهذا الاسم ، لا في دولة بني أمية ولا في غيرها من الدول .

اقتبس الخلفاء العباسيون نظم الحكم في دولتهم عن الفرس - ومنها الوزارة ، وكان الوزير في عهدهم ساعد الخليفة الأيمن ، يقضي باسمه في جميع شئون الدولة فكان له الحق في تنصيب العمال والإشراف على الضرائب ، فكان بذلك ينوب عن الخليفة في حكم البلاد ، ويجمع في شخصه بين السلطتين المدنية والحربية ، بجانب الواجبات العادية من نصح الخليفة ومساعدته[1] .

تحدث المؤرخ ابن طباطبا عن نظام الوزارة في العصر العباسي الأول فقال : « الوزير وسيط بين الملك ورعيته ، فيجب أن يكون في طبعه شطر يناسب طباع الملوك ، وشطر يناسب طباع العوام ، ليعامل كلاً من الفريقين بما يوجب له القبول والمحبة ... والوزارة لم تتمهد قواعدها ، وتتقرر قوانينها إلاّ في دولة بني العباس . فأما قبل ذلك فلم تكن مثبتة القواعد ، ولا مقررة القوانين ، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية ، فاذا حدث أمر استشار ذوي الحجى والآراء الصائبة ، فكل منهم يجري مجرى وزيره ، فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة وسمي الوزير وزيراً ، وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً » .

وفصل ابن خلدون[2] واجبات الوزير وأعماله في العصر العباسي فقال : « فلما جاءت دولة بني العباس ، واستفحل الملك وعظمت مراتبه وارتفعت ،

---

١ - حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ١ ص ١٩٦ .
٢ - مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٧ .

عظم شأن الوزير ، وصارت اليه النيابة في انفاذ الحل والعقد ، وتعينت مرتبته في الدولة وعنت لها الوجوه وخضعت لها الرقاب ، وجعل لها النظر في ديوان الحسبان . لما تحتاج إليه خطته من قسم الأعطيات في الجند ، فاحتاج الى النظر في جمعه وتفريقه ، وأضيف اليه النظر فيه ، ثم جعل له النظر في القلم والترسيل لصون أسرار السلطان ، ولحفظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور . وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الذياع والشياع ، ودفع اليه ، فصار اسم الوزير جامعاً لخطتي السيف والقلم ، وسائر معاني الوزارة والمعاونة » .

كان معظم وزراء الخلفاء العباسيين من الفرس ، فأبو سلمة الخلال أول وزير عباسي ، مولى فارسي . وأبو أيوب المورياني وزير المنصور فارسي من (موريان) وهي قرية من قرى الأهواز . ويعقوب بن داود وزير المهدي مولى كذلك ، وكذلك كان البرامكة . وكان الوزير قائماً مقام الخليفة في كل الشئون ، فينظر في الشئون الحربية ، وفي الشئون المالية ، ويكتب الرسائل إلى الجهات المختلفة ، ويوقع على ما يرفع اليه من أوراق ، ولم يتعدد الوزراء في الدولة العباسية بتعدد الأعمال ، فيجعل للحرب وزير ، وللمال وزير ، وهكذا ، وانما كان تعداد الوزراء بتعداد الأعمال، من نظام الدولة الأموية بالأندلس ، ولكن العباسيين جمعوا بين السيف والقلم[1] .

وكان الوزراء في العصر العباسي الأول يخافون على أنفسهم من بطش الخلفاء بهم ، فكان كل منهم يتجنب أن يسمى وزيراً بعد أن مات أبو الجهم على يد المنصور . وكان خالد بن برمك يعمل عمل الوزراء ، ويأبى أن يسمى وزيراً ، على الرغم من علو منزلته عند الخلفاء .

استوزر الخليفة المنصور بعد خالد البرمكي أبا أيوب المورياني، اشتراه

---

١ — ضحى الاسلام جـ ١ ص ١٧٣ .

المنصور صبياً قبل أن يلي الخلافة ، فثقفه وعلمه ، واتفق ان أرسله مرة إلى أخيه الخليفة أبـــي العباس السفاح ومعه هدية له ، فلما رآه أعجب بهيئته وفصاحته فأبقاه عنده وأعتقه ، وجعله من أخص رجاله المقربين إليه ، وأدر عليه عطاءه وصلاته ، وظل على ذلك حتى ولي المنصور الخلافة ، فقلده الوزارة ، وكان نصيبه نصيب من سبقه من الوزراء إلا خالد بن برمك .

تحدث المؤرخ ابن طباطبا [1] عن الوزارة في عهد المهدي فقال : « في أيامه ظهرت أبهة الوزارة بسبب كفاءة وزيره أبي عبد الله معاوية بن يسار ، فانه جمع له حاصل المملكة ، ورتب الديوان وقرر القواعد ، وكان كاتب الدنيا ، وأوحد الناس حذقاً وعلماً وخبرة » .

وقد اختار معظم الخلفاء العباسيين أحسن الوزراء سيرة وعدلاً ودراية بشئون الدولة ، وأثبتوا كفاءة واضحة . ورغم ذلك ، فقد كان الخليفـــة يشاركهم أعباءهم ومسئولياتهم ، وكان أشهر الوزراء في العصر العباسي الوزراء البرامكة الذين برزوا في عصر هارون الرشيد واستأثروا بالنفوذ دون الخليفة مما أدى إلى نكبتهم . كما ازداد نفوذ الفضل بن سهل في عهد المأمون مما جعل المأمون يتخلص منه بقتله اذ خاف أن يحول الخلافة من العباسيين إلى العلويين .

النظم الحكومية في العصر العباسي الأول :

كان الوزراء الظاهرون في العصر العباسي من الموالي الفرس ، فأبو سلمة الخلال أول وزراء العباسيين مولى فارسي ، وأبو أيوب المورياني وزيـــر المنصور فارسي ، ويعقوب بن داود وزير المهدي مولى كذلك ، وكذلك كان الوزراء البرامكة في عصر المنصور والمهدي والرشيد ، وكذلك وزراء المأمون مثل الفضل بن سهل .

---

١ - الفخري ص ١٦٣ .

وكان الوزير يجمع الى الادارة الحربية والمالية خطة القلم ، أي انفاذ الرسائل إلى الجهات ، والتوقيع على ما يعرض عليه من مطالب ورسائل ، ولذا كان من شروط تولية الوزير أن يكون عالماً مطلعاً ، كاتباً بليغاً ، وتاريخ الوزراء العباسيين يدلنا عـلى أن أكثر من اختير للوزارة لوحظ في اختيارهم الكفاية العلمية والبلاغة .

وقد أحسن الخلفاء العباسيون الاختيار ، فكان وزراؤهم على جانب كبير من الكفاءة والصلاحية وخاصة الوزراء البرامكة.

وهذه القدرة الكتابية التي كان الخلفاء يشترطونها في الوزير ، كانت من أكبر الأسباب في قصر الوزارة على الفرس – غالباً – فالعرب كانوا أهل فصاحة لسانية أكثر منهم أهل بلاغة كتابية . ولعل هذا هو السبب في أنهم وضعوا للفصاحة كلمة مشتقة من اللسان ، فقالوا رجل لسن اذا كان ذا بيان وفصاحة ، ولم يشتقوا مثل ذلك من الكتابة[1].

لما كثرت أعمال الوزارة في العصر العباسي الأول أصبح من الضروري تعيين موظفين يعاونون الوزير للاشراف على الدواوين المختلفة وادارة شئونها . ومن أشهر الكتّاب في هذا العصر كاتب الرسائل يتولى مكاتبة الأمراء والملوك عن الخليفة . وقد حرص الخلفاء على أن تدون الرسائل بأسلوب شائق بليغ ، كما حرصوا على اختيار كتّابهم من رجال الأدب من أعرق الأسر ، وممن عرفوا بسعة العلم ورصانة الأسلوب[2] .

وكانت طائفة الكتّاب تؤلف وحدة على رأسها الوزير ، بل وتتدرج في الرقي الى الوزارة ، معتمدة على كفايتها وبلاغتها ، وكان لهؤلاء الكتّاب أثر كبير في نشر نوع من الثقافة خاص ، ذلك أن ثقافتهم كانت أوسع من ثقافة

---

١ – أحمد أمين : ضحى الاسلام ج ٢ ص ١٧٤ .
٢ – حسن ابراهيم : النظم الاسلامية ص ١٨٠ .

غيرهم ، وكانت معارفهم ودائرة اطلاعهم واسعة شاملة ، لأنهم – بحكم مناصبهم – مضطرون أن يعرفوا أحوال الناس الاجتماعية وتقاليدهم ، وأن يعرفوا من اللغة والأدب وعلوم الدين والفلسفة والجغرافية والتاريخ طرفاً ، لأن كثيراً من مواقفهم يحتاج إلى ذلك ، وقد تعرض للخليفة أو الوالي مسائل من هذا القبيل ويضطر الكاتب ازاءها أن يكون ملماً بجميع ذلك ، اذ هم الذين كانوا يعرضون على الخلفاء ما يرد عليهم ويحررون ما يصدر منهم[1] .

كان الخلفاء الراشدون لا يحتجبون عن رعاياهم ، فكانوا يجلسون يومهم في مسجد الرسول بالمدينة ، ويلتقون بالمسلمين على اختلاف مراتبهم دون حجاب ، ثم احتجب معاوية بن أبي سفيان عن الناس بعد مصرع علي بن أبي طالب ومحاولة اغتيال معاوية ، وازدحام الناس على أبواب قصره في دمشق ، وحذا الخلفاء الأمويون حذو معاوية في الاحتجاب عن الناس .

والحاجب موظف كبير يشبه كبير الأمناء في العصر الحديث ، وكان يقوم بادخال الناس على الخليفة حسب مراتبهم ومراكزهم في المجتمع ، واتخذ الخلفاء العباسيون الحجاب ، فلم يقابلوا رعاياهم الا من قدم لأمر خطير . وصار بين الناس وبين الخليفة داران : دار الخاصة ، ودار العامة ، يقابل الخليفة كل طائفة في مكان معين ، كما يحدده الحاجب . وكان الحاجب من كبار الموظفين ، وموضع ثقة الخليفة ، فكان يستشيره في مهام الأمور ، ومرتبته بعد الوزير مباشرة .

اشتهر أمر الربيع بن يونس حاجب المهدي . وكان يتولى الحجابة أيضاً في عهد أبيه المنصور . وقد اشتهر الدور الهام الذي قام به الربيع بعد وفاة المنصور قرب مكة ، فقد أخفى نبأ موت المنصور حتى أخذ البيعة للمهدي . كما اشتهر الدور الكبير الذي قام به الربيع للخلاص من الوزير معاوية بن

---

١ – ضحى الاسلام ج ٢ ص ١٧٧ .

يسار ، فعزله المهدي بسعي من الربيع ، ثم رشح الربيع للمهدي يعقوب بن داود ليتولى الوزارة . وهكذا تدخل الحجاب في تعيين الوزراء .

كان النظام الاداري في العصر العباسي نظاماً مركزياً ، وأصبح العمال على الاقاليم مجرد عمال لا ولاة مطلقي السلطة ، على عكس ولاة الأمويين كالحجاج بن يوسف الثقفي وزياد بن أبيه... كما أنهم لم يكونوا من الشخصيات البارزة ، ولذلك استحال النظام اللامركزي الى نظام مركزي ، مما يشعر بتقلص نفوذ العمال ، وكان من أهم الموظفين في الولايات الاسلامية في العصر العباسي الأول ، صاحب بيت المال ، وصاحب البريد ، والقاضي ، واقتصر عمل الوالي على الصلاة وقيادة الجند .

اهتم الخليفة العباسي في هذا العصر بأن يختار عمال الأقاليم بنفسه لادارة شئونها . بيد ان سلطتهم المدنية والقضائية لم تكن خالصة من كل قيد ، فلم يترك العامل في ولايته زمناً طويلاً . واذا عزل عن منصبه طلب منه أن يقدم بياناً مفصلاً عن شئون ولايته ، وكان أقل شك في صدقه كافيــاً لمصادرة أملاكه جميعاً[1]. وفي أيام المنصور والمهدي ، لم تكن مهمة الولاية أكثر من وظيفة صورية ، واهتم المهدي باختيار ولاته ، ولم يترك الوزراء يستبدون بتعيين الولاة ، فقد استشار الوزير يعقوب بن داود المهدي في اختيار اسحاق ابن الفضل لولاية مصر ، ورفض المهدي هذا الاختيار . وكان الخلفاء العباسيون يولون أولادهم حكم الولايات الهامة . فقد ولى المنصور ولي عهده المهدي حكم خراسان ، وولى الخليفة المهدي ولي عهده الهادي حكم جرجان ، وولى ابنه الثاني هارون الرشيد حكم البصرة ثم مصر ، كما قسم الرشيد الدولة بين أولاده .

وكانت الدولة العباسية في العصر الأول تنقسم سياسياً إلى عدة ولايات

---

١ — حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٢٠٣ .

هي : (١) الكوفة والسواد (٢) البصرة واقليم دجلة والبحرين وعمان (٣) الحجاز واليمامة (٤) اليمن (٥) الأهواز ويشمل : خوزستان وسجستان (٦) فارس (٧) خراسان (٨) الموصل (٩) الجزيرة (١٠) أرمينية وأذربيجان (١١) سورية (١٢) فلسطين (١٣) مصر وافريقية (١٤) السند .

وقد جرت العادة أن يولي الخلفاء العباسيون الولايات الاسلامية البعيدة بعض أفراد البيت العباسي وأكابر القواد ، وخاصة خراسان ومصر .

وظـــل نظام الحكم في الدولة العباسية كما وضعه المنصور على الرغم من أن أصحاب الدواوين وأبناء البيت العباسي كانوا بمثابة مستشارين غير رسميين . أما الخليفة فكان مصدر كل قوة ، كما كان مرجع كل الأوامر المتعلقة بادارة الدولة . ولكن ظهر بتوالي الأيـــام أن هذه الأعباء كانت مرهقة لا يستطيع القيام بها رجل واحد ، ومن ثم أصبح من الضروري تعيين موظفين يعاونون الوزير في الاشراف على الدواوين المختلفة وادارة شئونها[١] .

تحدث سيد أمير علي عن الادارة في الدولة العباسية فقال : أما الادارة فكانت قائمة على قواعد محدودة مماثلة للنظم الحديثة في الأمـــم المتحضرة ، فكانت كل مناصب الدولة ، كما كان الحال في الدولة العثمانية ، مفتوحة أمام كل من المسلمين واليهود والنصارى على السواء[٢] .

وكان النظام الاداري في العصر العباسي من حيث توزيعه العمل ، يعادل خير النظم الحديثة . وهذه هي أهم دواوين الدولة التي كانت تشبه الوزارات في العهد الحاضر : ديوان الخراج ، وديوان الدية ، وديوان الزمام ، وديوان الجند ، وديوان الموالي والغلمان (وتسجل فيه أسماء موالي الخليفة وعبيده) ،

---

١ – حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ٢ ص ٢٠٣ .
٢ – سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي .

وديوان البريد ، وديوان زمام النفقات ، وديوان الرسائل ، وكانت مهمة صاحبه اذاعة المراسيم والبراءات وتحرير الرسائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة ، وديوان النظر في المظالم ، وديوان الأحداث والشرطة ، وديوان العطاء ، وديوان الحوائج ، وديوان الأحشام ، وديوان المنح أو المقاضاة ، وديوان الأكرة وكان يشرف على الترع والجسور وشئون الري .

أنشأ الخليفة المهدي ديواناً جديداً ، هو ديوان الأزمة أو الزمام ، ويشبه ديوان المحاسبة اليوم ، وأصبح أهم دواوين الدولة . وكانت مهمة صاحب هذا الديوان جمع ضرائب بلاد العراق وهي أغنى أقاليم الدولة العباسية ، وتقديم حساب الضرائب في الأقاليم الأخرى . ومن اختصاص صاحب هذا الديوان جمع الضرائب النوعية المسماة بالمعادن ، التي كانت تجمع لرجل يضبطها بزمام يكون له على كل ديوان ، فيتخذ دواوين الأزمة ويولي على كل منها رجلاً .

ولم تكن الحكومة العباسية تتدخل في شئون الجماعات إلا بمقدار ، بل كانت كل بلدة أو قرية تدير شئونها الخاصة بنفسها ، ولا تتدخل الحكومة الا في حالة نشوب الفتن أو الامتناع عن دفع الضرائب ، غير أنها — مع ذلك — كانت تقوم بالرقابة الفعلية على جميع الشئون التي تتصل بالزراعة والري من بناء القنوات وترميمها (١) .

اهتم الخلفاء العباسيون بالبريد ، وقد أقام المهدي محطات البريد بين بلاد اليمن وبلاد الحجاز وبلاد العراق ، فمهد الطريق بين هذه البلاد ، وأنشأ المنازل ، وأمدها بالمياه . وتحدث المؤرخ (فون كريمر) عن نظام البريد في الدولة العباسية ، فقال : كان على رأس كل مصلحة في الولايات الاسلامية عامل بريد ، مهمته موافاة الخليفة بجميع الشئون الهامة والاشراف

---

١ — النظم الاسلامية ص ١٢٢ .

على أعمال الولاة ، كما كان بعبارة أخرى ، مندوباً أولته الحكومة المركزية ثقتها .

أولى الخلفاء العباسيون الجيش العباسي اهتمامهم ، فأصبح يضم مئات الألوف من الجند من مختلف أجناس الدولة . وقام الجيش في عهد المهدي بأعمال حربية كبيرة . فقد بعث بجيش كثيف بقيادة ابنه هارون الرشيد لغزو بلاد الروم . ووفر له الامدادات والتموين . وكان هجوم الجيش العباسي مستمراً على الأراضي الرومانية ، صيفاً وشتاء . وأثبت جيش المهدي كفاءته في قتاله للروم . وانتصر انتصارات رائعة . كما بعث المهدي بجيش كبير لغزو بلاد الهند بطريق البحر . كما كان الجيش العباسي مستعداً دائماً للقضاء على ما يقوم من فتن أو ثورات يقوم بها أعداء الدولة العباسية ، وخاصة الحزب العلوي . ونجح المهدي فعلاً في اخماد بعض الثورات الصغيرة التي قامت في عهده . كما نجح في القضاء على جيش المقنع والزنادقة . واشتبك الرشيد والمعتصم في عدة حروب مع الروم ، وحازا انتصارات رائعة .

وكان تقسيم الجند تابعاً لجنسية أفراده . فمنهم الحربية ، وهم الفرسان الذين كانوا يتسلحون بالرماح وهم جند العرب ، والمشاة وكانوا من الفرس ولا سيما الخراسانيين . وكان الجيش الأموي يعتمد على الجند العربي . حتى اذا قامت الدولة العباسية على أكتاف الفرس ، أصبحت العناصر الفارسية تمثل غالبية الجيش العباسي . ولم يكن اعتماد الخلفاء على الفرس راجعاً إلى مساعدة هؤلاء لهم في اقامة دولتهم . بل كان راجعاً أيضاً إلى العصبية التي كانت متفشية بين الجنود العرب . فقد انقسموا إلى عرب يمنية وعرب مضرية . وكانت هذه العصبية من عوامل اخفاق الجيش الأموي أمام الجيش العباسي بقيادة أبي مسلم الخراساني مما أدّى إلى سقوط الدولة الأموية . ولذا فكر الخليفة المنصور في انشاء الكرخ في جنوب بغداد ، ليقيم فيها جند العرب ، وليصبح بعيداً عن الصراع الناشب بينهم . كما أقام المنصور مدينة الرصافة

ليقيم فيها ابنه المهدي وجيشه بعد عودتهم من خراسان بعد اخماد الثورات التي قامت هناك . وقد اهتم كـــل من المنصور والمهدي والرشيد باستعراض الجيش في المناسبات .

اهتم الخلفاء العباسيون بشئون الضرائب ، وعملوا على تخفيف أعباء رعاياهم ، فقد رأينا المهدي يغير نظام الخراج الذي اتبعه أبو العباس والمنصور وأمر باتباع نظام المقاسمة ، وهو نظام عادل أبدى الناس ارتياحهم له ، كما وضع وزير المهدي يعقوب بن داود أول كتاب عن الخراج ، وسار خلفاؤه على نهجه ، فوضع أبو يوسف بعد ذلك كتابه المشهور عن الخراج بتكليف من الرشيد .

ونال القضاء اهتمام العباسيين ، فقد حرصوا على تحقيق العدل . وكان المهدي أول الخلفاء الذين يجلسون للنظر في المظالم ، فقد أطلق سراح المسجونين السياسيين الذين سجنهم المنصور ، ورد اليهم أموالهم المصادرة . وكان يسمح للناس بالدخول عليه وعرض مظالمهم ، ولو كانت الشكوى منه شخصياً . ويقول ابن طباطبا [١] عن المهدي : وكان يجلس في كل وقت لرد المظالم . روي عنه أنه اذا جلس للمظالم قال : « أدخلوا عليّ القضاة ، فلو لم يكن ردي للمظالم الا للحياء منهم لكفى » . وظهر منصب (قاضي القضاة) في عهد الرشيد ، وتولاه القاضي أبو يوسف صاحب كتاب الخراج ، فأصبح بمثابة وزير العدل في العصر الحاضر ، فكان يتولى تعيين القضاة في الأمصار الاسلامية .

وضح الماوردي [٢] الفروق بين نظر المظالم ونظر القضاء ، ومن أهم الفوارق ، أن لناظر المظالم من فضل الهيبة وقوة اليد ما ليس للقضاة مما يكف

---

١ – الفخري ص ١٦١ .

٢ – الماوردي : الأحكام السلطانية ص ٧٣ وما بعدها .

الخصوم عن التجاحد ويمنع الظلمة من التغالب ، وأنه يستعمل من الارهاب ومعرفة الامارات والشواهد ما يصل به الى معرفة المحق من المبطل ، وأنه يستطيع رد الخصوم اذا اتصلوا إلى وساطة الأمناء ليفصلوا التنازع بينهم صلحاً عن تراض ، وليس للقاضي ذلك الا عند رضاء الخصمين به ، وأنه يجوز له اخلاف الشهود عند ارتيابه بهم والاستكثار من عددهم ، ليزول عنه الشك ، وأنه يجوز له أن يبتدىء باستدعاء الشهود وسؤالهم عما عندهم ؛ وعادة القضاة تكلف المدعي احضار بينة ، ولا يسمعون البينة الا بعد سؤاله (كان الخليفة المهدي أول من جلس بنفسه للنظر في المظالم) . وفي بداية الأمر ، كان لا يسمح لأصحاب المظالم بالدخول على المهدي ويُكتفى بعرض مظالمهم في رقاع من الورق ، فينظر المهدي في كل رقعة بعناية واهتمام ، وإلى جانبه قضاته يرجع اليهم فيما أشكل عليه من أُمور . ثم علم المهدي أن بعض أتباعه يأخذون رشوة من أصحاب المظالم في مقابل عرض مظالمهم على الخليفة . فأمر المهدي بفتح شبّاك من حديد في قصره فيلقي كل صاحب مظلمة بالورقة التي عرض فيها مظلمته من هذا الشبّاك إلى داخل القصر ، ثم كان المهدي يسمح بدخول المظلومين إلى مجلسه يعرضون عليه مظالمهم .

وكانت محكمة المظالم تختص بالنظر في كثير من القضايا ، أبرزها :

١ ـ النظر في القضايا التي يقيمها الأفراد والجماعات على الولاة اذا انحرفوا عن طريق العدل والانصاف ، وعلى عمال الخراج اذا اشتطوا في جمع الضرائب ، أو كتّاب الدواوين اذا حادوا عن اثبات أموال المسلمين بنقص أو زيادة .

٢ ـ النظر في تظلم المرتزقة اذا أنقصت أرزاقهم أو تأخر ميعاد دفعها لهم .

٣ ـ تنفيذ ما يعجز القاضي والمحتسب عن تنفيذه من الأحكام .

٤ ـ مراعاة اقامة العبادات ، كالحج والأعياد والجمع ، والجهاد [١] .

ثانياً : العصر العبـــاسي الثاني :

طبعت الخلافة في هذا العصر بطابع الضعف والفوضى نتيجة لازدياد نفوذ الأتراك في الدولة العباسية ، حتى أصبح الخلفاء العباسيون خلال هذا العصر مسلوبي السلطة ضعيفي الارادة ، بسبب تدخل هؤلاء الأتراك في شئون الدولة ، وتنصيب من يشاءون وعزل من يشاءون أو قتله أو سمل عينيه ، كما طبعت بطابع تدخل النساء في شئون الدولة وكثرة تولية الوزراء وعزلهم ، وتولية العهد أكثر من واحد ، مما أدى إلى قيام المنافسة بين أمراء البيت الواحد[٢] .

ازداد ضعف الخليفة العباسي منذ أوائل القرن الرابع الهجري ، نتيجة ازدياد نفوذ القواد الأتراك ، وظهور كثير من الدول المستقلة . فقد استقل علي بن بويه بفارس ، واستقل أخوه الحسن بن بويه بالري وأصبهان وبلاد الجبل ، واستقل بنو حمدان بالموصل وديار بكر وديار ربيعة ومضر . أما مصر والشام فقد استقل بهما محمد بن طغج الإخشيد ، واستقل بخراسان نصر بن أحمد الساماني ، وفي الأندلس أعلن عبد الرحمن الناصر نفسه خليفة .

سيطر بنو بويه على الدولة العباسية ، فأصبح الموقف كما يصفه البيروني[٣] « وأن الدولة والملك قد انتقلا في آخر أيام المتقي وأول أيام المستكفي من آل العباس إلى آل بويه . والذي بقي في أيدي الدولة العباسية انما هو أمر ديني اعتقادي لا ملك دنيوي . فالقائم من ولد العباس الآن (أي سنة ٤٤٠ هـ)

---

١ ـ الماوردي : الأحكام السلطانية ص ٨٠ ، تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٢٢٤ .
٢ ـ المصدر السابق ج ٣ ص ٢٤٥ .
٣ ـ الآثار الباقية ص ١٣٢ .

هو رئيس الاسلام لا ملك » . وذكر السيد توماس أرنولد [1] أن الخلفاء العباسيين أصبحوا في عهد بني بويه لا قيمة لهم وأصبح بنو بويه أصحاب النفوذ ، وحكموا العالم الاسلامي دون أن يعبأوا بمن يدعى أمير المؤمنين . وأصبح الخلفاء العباسيون ألاعيب في أيدي السلاطـين البويهيين يولونهم ويعزلونهم كما يشاءون .

ومن عوامل ضعف الخلفاء العباسيين في عصر بني بويه ، تلقيب الخلفاء للسلاطين البويهيين بألقاب رنانة طنانة . رفعت من ذكرهم ، وتضاءلت بجانبها هيبة الخلفاء . من هذه الألقاب : تاج الملة ، وضياء الملك ، وغياث الأمة ... الخ . أما الخلفـاء العباسيون فتلقبوا بلقب « أمير المؤمنـين » وهو اللقب الذي استمر الخلفاء يتداولونه منذ عهد عمر بن الخطاب . وكان الناس يعتبرون الخلفاء العباسيين « ظل الله الممدود بينه وبين خلقه » ولقب الخليفة المستكفي (٣٣٣ – ٣٣٤ هـ) نفسه بلقب « امام الحق » منافساً الخلفاء الفاطميين الذين تلقبوا بلقب « امام »[2] .

أصبح انتخاب ولي العهد في العصر العباسي الثاني صورياً ، فأصبح الخليفة يعين ولي عهده ويأخذ له البيعة من كبار الشخصيات والمسلمين ، ولكن قلما احترموا هذه البيعة ، واستمر النزاع بين أبناء البيت العباسي .

غروب الخلافة العباسية وسقوط بغداد في أيدي المغول :

استطاع محمد بن أنوشتكين ، وكان أبوه مملوكاً لأحد الأمراء السلاجقة ، أن يثبت أقدامه في حكم بلاد خوارزم وتلقب بلقب (خوارزم شاه) ، ثم خلفه ابنه الطفل (سلطان شاه) تحت وصاية امه ، ولكن ثار عليه أخوه

---

١ – The Caliphate, P. 68

٢ – آدم متز : الحضارة الاسلامية في القرن ٤ هـ جـ ١ ص ٢٣٠ .

الأكبر (علاء الدين تكش) واستقل ببلاد خوارزم ، وتمكن من القضاء على الحكم السلجوقي لبلاد العراق سنة ٥٩٦ ﻫ ، اذ استطاع أن يقتل طغرل بن ألب أرسلان السلجوقي .

توفي علاء الدين سنة ٥٩٦ ﻫ فخلفه ابنه قطب الدين محمد الذي طلب من الخليفة الناصر أن يذكر اسمه في الخطبة بدلاً من السلاجقة ، ولكن الخليفة رفض طلبه ، مما أدى إلى غضب قطب الدين ، فعقد مجلساً من الفقهاء والعلماء واستصدر منهم فتوى بخلع الخليفة العباسي ، وحذف اسمه من الخطبة ، وأراد قطب الدين أن يزحف على بغداد لخلع الخليفة ، لكن العوامل الجوية حالت دون ذلك . ويتهم بعض المؤرخين الخليفة الناصر بأنه حرض المغول على الهجوم على مملكة خوارزم حتى يشغل قطب الدين عن الهجوم على العراق . وقد يكون هذا الاتهام حقيقة واقعة ، فقد اعتاد العباسيون الاستعانة بالعناصر الأجنبية ، فقد استعانوا ببني بويه الفرس ليخلصوهم من الأتراك ، واستعانوا بطغرلبك السلجوقي ضد البساسيري داعية الفاطميين ، وتناسى الخليفة أن المغول ليسوا مسلمين ، وظن أن بُعد بلاد المغول عن العراق يكفيه شرهم .

ومهما كان الأمر ، فقد كان صدام دولة المغول بدولة خوارزم أمراً حتمياً ، فقد اتسعت الدولتان حتى تلامست حدودهما ، فكان لا بد من الاحتكاك ثم القتال . وبدأ الزحف المغولي ، واجتاح المغول بخارى وسمرقند وبلاد ما وراء النهر ونيسابور والري وهمذان وأذربيجان وجرجان وأرمينية .

ولقد وصف المؤرخ ابن طباطبا[1] حال الدولة العباسية وخليفتها المستعصم في ذلك الحين فقال : «كان المستعصم رجلاً خيراً ، متديناً ، لين الجانب ، سهل العريكة ، عفيف اللسان ، حمل كتاب الله تعالى وكتب خطاً مليحاً . وكان سهل الأخلاق ، وكان خفيف الوطأة ، الا أنه كان مستضعف الرأي ،

---

١ – الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٩٤ – ٢٩٧ .

ضعيف البطش ، قليل الخبرة بأمور المملكة ، مطموعاً فيه ، غير مهيب في النفوس ، ولا مطلع على حقائق الأمور . وكان زمانه ينقضي أكثره بسماع الأغاني والتفرج على المساخرة . وفي بعض الأوقات يجلس بخزانة الكتب جلوساً ليس فيه كبير فائدة . وكان أصحابه مستولين عليه ، وكلهم جهال من أرذال القوم ، الا وزيره مؤيد الدين محمد بن العلقمي ، فانه كان من أعيان الناس وعقلاء الرجال، وكان مكتوف اليد ، مردود القول ، يترقب العزل والقبض صباح مساء ... وفي آخر أيامه قويت الأراجيف بوصول عسكر المغول صحبة السلطان هولاكو ، فلم يحرك ذلك منه عزماً ، ولم ينبه منه همة ، ولا أحدث عنده همّاً . وكان كلما سمع عن السلطان من الاحتياط والاستعداد شيء ظهر من الخليفة نقيضه من التفريط والاهمال ، ولم يكن يتصور حقيقة الحال في ذلك ولا يعرف هذه الدولة – يسر الله احسانها وأعلى شأنها – حق المعرفة، وكان وزيره مؤيد الدين بن العلقمي يعرف حقيقة الحال في ذلك ويكاتبه بالتحذير والتنبيه ، ويشير عليه بالتيقظ والاحتياط والاستعداد ، وهو لا يزداد إلاّ غفولاً . وكان خواصه يوهمونه أنه ليس في هذا كبير خطر ، ولا هناك محظور ، وأن الوزير انما يعظم هذا لينفق سوقه ولتبرز اليه الأموال لينجد بها العساكر ، فيقتطع منها لنفسه » .

ودخل هولاكو بغداد على رأس جيش من المغول يتألف من ٣٠ ألف مغولي ، وأسر الخليفة العباسي المستعصم وأولاده ، ثم قتلهم ، كما ذبح كثيراً من المسلمين كما تذبح الشياه ، وأشعل النيران في بغداد وهدم معظم المساجد ومقابر الخلفاء ، وألقى بالكتب في دجلة ، وخرب الدور حتى أصبحت بغداد أثراً بعد عين[١] . ويروي السيوطي[٢] أن الناس خيل إليهم أن العالم قد

---

١ – الفخري ص ٢٩٧ .
٢ – تاريخ الخلفاء ص ٣٠٩ .

أوشك من النهاية وأن الساعة آتية لخلو العالم الاسلامي من خليفة .

ويصف أرنولد[1] الموقف بعد غروب الخلافة العباسية فيقول : من الصعب تقدير الارتباك الذي شعر به المسلمون عندما لم يعد هناك خليفة تستنزل عليه بركات الله ، ولم يسبق في تاريخ الاسلام حادث مثله . وكان دعاؤهم في جامع بغداد يوم الجمعة التالي لمصرع الخليفة يعبر عن همهم العظيم اذ يقولون : « الحمد لله الذي أهلك أعاظم الرجال وأنقذ من بقي من هذه المدينة . اللهم ساعدنا في بؤسنا الذي لم يشهد الاسلام وأبناؤه مثله قط ، انا لله وانا اليه راجعون » .

---

١ — الخلافة ص ٤٤ .

٧ . الخلافـــة الفاطمية

تطور الدعوة الشيعية :

الشيعة ، هم المتشيعون لعلي بن أبي طالب وأولاده ، فقد رأوا أن علي ابن أبي طالب هو أحق المسلمين بالخلافة بعد وفاة الرسول ، وأن أولاده أحق الناس بأن يخلفوه ، والشيعة تطلق على الخلافة اسم (الامامة) ويصل الامام اليها بالوصاية وليس باختيار الأمة ، وأن الرسول اختار علي بن أبي طالب وصياً له . وغالى بعض المتشيعين فقالوا إن الأئمة معصومون عن الخطإ وإن صفات الله قد حلت فيهم وتقمصت أجسامهم ، وإن الفرق الاسلامية التي تنادي بآراء تخالف هذه الآراء يعتبرون خارجين على الدين . وأسند هؤلاء الغلاة من الشيعة إلى الرسول أحاديث تشهد بأحقية أولاد علي في الخلافة وتضفي عليهم بعض التقديس . ومن الثابت تاريخياً أن الرسول ترك مسألة الخلافة شورى دون أن يقرر لها نظاماً ثابتاً [١] .

اعتبرت الشيعة أبا بكر وعمر وعثمان مغتصبين لحق علي في الخلافة .

---

١ ــ الشهرستاني : الملل والنحل جـ ١ ص ٢٣٤ .

وفي خلافة عثمان بن عفان تطورت الدعوة الشيعية على يد عبد الله بن سبأ ، الذي زعم أن روح الله قد حلت في جسد علي ، ولكن علياً خيب ظن أنصار ابن سبأ فتتبعهم بالقتل والتعذيب . ولما مات علي نادوا برجعة علي وزعموا أنه يقيم في السحاب وأن الرعد صوته والبرق سوطه وأن علياً سينزل بعد ذلك إلى الأرض ليملأها عدلاً[1] .

اضطهد معاوية بن أبي سفيان حين تولى الخلافة سنة ٤٠ هـ الشيعة . كما أقدم ابنه يزيد على قتل زعيم الشيعة الحسين بن علي في كربلاء . وظهر حزب شيعي باسم (التوابين) للأخذ بثأر الحسين . وتولى زعامة الشيعة بعد الحسين ابن آخر لعلي بن أبي طالب من غير أولاد فاطمة وهو محمد بن الحنفية لكنه لم يقاوم الدولة الأموية مقاومة ايجابية ، ولكن أحد دعاته بالعراق وهو المختار بن أبي عبيد الثقفي أخذ بثأر الحسين وقاد حركة معارضة شديدة للحكم الأموي بالعراق وظهر على يده حزب شيعي جديد بالعراق وهو حزب الكيسانية[2] .

في سنة ٩٨ هـ دبر الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك مؤامرة لقتل أبي هاشم زعيم الشيعة الكيسانية مسموماً . ولما شعر أبو هاشم بقرب وفاته تنازل عن الامامة لمحمد بن علي العباسي وأوصاه أن يبدأ الدعوة في سنة ١٠٠ هـ ، وبذلك تحولت الامامة من البيت العلوي إلى البيت العباسي .

بدأت الدعوة العباسية سرية سنة ١٠٠ هـ ولجأت إلى طرق سلبية لنشر الدعوة ، فكان الدعاة يرحلون بين الأقطار الاسلامية متظاهرين بالحج أو التجارة . حتى اذا نضجت الدعوة العباسية بدأت بزعامة أبي مسلم الخراساني تتخذ شكلاً إيجابياً .

---

١ - البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٤٣ .
٢ - الشهرستاني جـ ١ ص ٢٣٦ - ظهر لنا كتاب عن المختار .

كانت الدعوة العباسية في أواخر العصر الأموي إلى البيت الهاشمي دون تخصيص ، ولذا تعاون العلويون والعباسيون ، وكلهم هاشميون ، للقضاء على عدوهم المشترك الدولة الأموية . ولكن العباسيين بعد فوزهم استبدوا بالسلطة دون العلويين ، ولذا بدأت مرحلة جديدة من صراع العلويين والعباسيين.

في العصر العباسي ظهر زعماء علويون بدأوا يحاولون انتزاع الخلافة من أبناء عمومتهم العباسيين ، فكان أولهم جعفر الصادق بن محمد الباقر علي زين العابدين بن الحسين الذي نادى بانحصار الخلافة في أولاد الحسين بن علي دون الحسن بن علي ، وتعرف هذه الطائفة باسم (الامامية) . وقد انقسمت هذه الطائفة بعد وفاة جعفر الصادق إلى طائفتين : الأولى الامامية الموسوية وهم الذين قالوا بامامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق ويعتبرونه الامام السابع . والطائفة الثانية الامامية الاسماعيلية ونادوا بامامة اسماعيل بن جعفر الصادق باعتباره أكبر أولاده . وكان اسماعيل قد خلعه أبوه من الامامة وعين بدله موسى الكاظم، ولكن الشيعة لم تعترف بما فعله جعفر الصادق . ولما توفي اسماعيل في حياة أبيه سنة ١٤٥ هـ رأى اتباعه ان الامامة يجب ان تنقل بعد وفاة جعفر الصادق إلى حفيده محمد بن اسماعيل طبقاً لتعاليمهم التي تنص على ان الامامة لا تنتقل من أخ إلى أخ ، بل تكون في الأعقاب ، وأصبح محمد هذا الامام السابع وأطلق على هذه الطائفة (السبعية) لتمييزهم من طائفة الاثني عشرية .

كان الامام الثاني عشر من أعقاب موسى الكاظم هو محمد المنتظر ابن الحسن العسكري بن علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضى بن موسى الكاظم ، ودخل محمد هذا سرداباً في مدينة سامرا سنة ٢٦٠ هـ ولم يعد وانتظر أنصاره عودته وزعموا انه سيعود ليملأ الدنيا عدلاً .

الدعوة الشيعية في بلاد المغرب :

اتخذت الدعوة الشيعية في عصر الدولة العباسية شكلاً سرياً ، لينجو العلويون من اضطهاد العباسيين لهم ، وقالت طائفة الامامية بجواز استتار الامام اذا لم تكن له قوة يتغلب بها على أعدائه .

في عهد الخليفة المأمون تتبع العباسيون الامام عبدالله الرضى ، فاضطر الى الهرب مع ابنه وولي عهده أحمد ، فتجول في عدة بلاد حتى استقر في قرية سلمية قرب حمص بالشام . وأصبحت هذه القرية مركز الدعوة الشيعية . واتخذ عبدالله الرضى ثم ابنه أحمد من بعده داعية يدعى ميمون القداح . وفي عهد الامام الحسين بن أحمد اتسعت الدعوة الاسماعيلية في الأقطار الاسلامية ، نتيجة بذل الامام الأموال ، واهتمامه بتنظيم الدعوة وبث الدعاة . وكان أشهر الدعاة ببلاد اليمن هو ابن حوشب الذي بنى حصناً جنوبي صنعاء وزحف منه على رأس جيش تمكن به من السيطرة على أجزاء كثيرة من بلاد اليمن . وبعث ابن حوشب دعاته إلى اليمامة والبحرين والهند والسند ومصر والمغرب . وكان مبعوثاه إلى المغرب أبا سفيان والحلواني .

اختار الامام الحسين بن أحمد أحد دعاته الممتازين لينشر الدعوة الاسماعيلية في المغرب ، وهو أبو عبد الله الشيعي ، وبعثه الى ابن حوشب باليمن لتدريبه سنة ٢٧٨ هـ . ولما علم ابن حوشب بوفاة أبي سفيان والحلواني بالمغرب ، أمر أبا عبدالله الشيعي أن يكمل ما بدأه سلفاه وقال له : ان أرض كتامة من بلاد المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان وقد ماتا وليس لها غيرك ، فبادر فانها موطأة ممهدة لك (١) .

خرج أبو عبد الله الشيعي من اليمن إلى مكة زمن الحج ، والتقى بحجاج

---

١ — المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ص ٧٥ .

كتامة وامتزج بهم واكتسب صداقتهـم ، وطلب أن يرافقهم في طريق عودتهم إلى بلاد المغرب ، زاعماً أنه يريد مصر لطلب العلم ، واستطاع الكتاميون أن يقنعوا أبا عبدالله أن يصحبهم إلى المغرب .

كان التشيع قد انتشر في بلاد المغرب على يد الامام ادريس بن عبدالله ابن الحسن بن علي بن أبي طالب الذي فر من أيدي العباسيين بعد موقعة فخ في عهد الخليفة الهادي سنة ١٦٩ هـ ، وأقام الأدارسة في المغرب الأقصى دولة شيعية سنة ١٧٢ هـ التف حولها البربر ، ومن ثم أصبحت بلاد المغرب أرضاً صالحة للدعوة الاسماعيلية ، وكان ذلك مما سهل على كل من الداعيين أبي سفيان والحلواني عملهما . فلما قدم أبو عبدالله الشيعي الى المغرب في أوائل سنة ٢٨٠ هـ وجد الأمور ممهدة له ، كما وجد التشيع قد استقر في عقول البربر واعتنقه كثير من وزراء الأغالبة الذين قامت دولتهم في افريقية (تونس) على عاتق ابراهيم بن الأغلب سنة ١٨٤ هـ (٨٠٠ م) وظلت قائمة إلى أن استولى الفاطميون عليها سنة ٢٩٦ هـ [1] .

أعلن أبو عبدالله الشيعي لأهل كتامة غرضه الأصلي وأنه يكمل ما بدأه أبو سفيان والحلواني ، وأنه البشير بالمهدي ، فالتفوا حوله وأيدوه ، واستطاع بتأييدهم أن يستولي على عدة مدن بالمغرب ، وساعده في ذلك ضعف دولة الأغالبة ومساعدة الوزراء الأغالبة للدعاة الشيعيين ، ونجح أبو عبدالله أخيراً في القضاء على دولة الأغالبة تماماً .

عوامل نجاح الدعوة الشيعية في المغرب :

نجح الأدارسة في انشاء دولة علوية في المغرب سنة ١٦٩ هـ ، وأراد العباسيون القضاء عليها فأقاموا دولة منافسة هي دولة الأغالبة . ولكن دولة

---

١ ـ جمال سرور : مصر في مصر الدولة الفاطمية ص ٩ .

الأغالبة رغم أنها صنيعة العباسيين فقد استقلت استقلالاً فعلياً عن الدولة العباسية ، واستمرت حوالي مائة عام .

أصاب الدولة العباسية في العصر العباسي الثاني كثير من مظاهر الضعف والفوضى ، نتيجة استبداد الأتراك بالسلطة دون الخلفاء العباسيين ، وأصبح الخلفاء ألعوبة في أيدي الأتراك . وانتهز الفاطميون هذه الفرصة لينشروا دعوتهم ثم يقيموا دولتهم في بلاد المغرب ، مكان تونس الحالية ، بعيداً عن العراق قلب الدولة العباسية . ووجد الفاطميون في أهالي بلاد المغرب من البربر خير من يستجيب لدعوتهم ، فقد اشتهروا بالطاعة وحب النظام .

كان البربر يمثلون غالبية أهل شمال افريقية ، بينما كان العرب يمثلون الطبقة الحاكمة التي احتكرت المناصب الكبرى وتمتعت بخيرات البــلاد .

وشعر البربر أن العرب احتكروا موارد بلادهم ولم يعطوهم حقوقهم بل فرضوا عليهم الضرائب الباهظة ، وكان البربر يرسلون شكاواهم دائماً إلى الخليفة العباسي في بغداد وسامراء ، ولكن السلطة المركزية أصابها الضعف الشديد ، وكانت المسافة طويلة بين المغرب والعراق . ولذا رحب البربر بالانضمام إلى كل حركة مناوئة للدولة العباسية للخلاص من ظلم الحكم الذي يعانون منه . ولذا التف البربر حول أبي عبد الله الشيعي وساعدوا الفاطميين على اقامة الدولة الفاطمية في بلاد المغرب .

بعد قيام الدولة العباسية وتتبع العباسيين للبيت الأموي بالقتل والتعذيب ، هرب بعض أفراد من البيت الأموي إلى بلاد الأندلس بعيداً عن قلب الدولة ، وأقاموا دولة أموية تناهض الدولة العباسية بالمشرق ، وأصبحت ترحب بكل حركة تناوىء العباسيين ، ولذا لم يقف الأمويون بالأندلس في وجه الدعوة الفاطمية في بلاد المغرب عند أول انتشارها .

قيام الدولة الفاطمية في المغرب :

أصبح الشيعيون سنة ٢٩١ هـ لهم السلطة الحقيقية في بلاد المغرب غرب مدينة القيروان ، وازداد انتشار الدعوة الفاطمية يوماً بعد يوم ، وانشغلت الدولة العباسية بمشاكلها الداخلية عن مقاومة هذه الدعوة الشيعية . ورأى أبو عبد الله الشيعي بعد نجاحه الواسع أن الظروف قد حانت لقدوم عبيد الله المهدي من قرية سلمية بالشام إلى بلاد المغرب . واستجاب المهـــدي لدعوته وبدأ خروجه إلى شمال افريقية . وعلم الخليفة العباسي بخروجه ، فأمر ولاته حيث كانوا بالقبض عليه ، ولكن المهدي نجح في الهرب من الشام ثم من مصر ، ويتهم المؤرخون والي مصر محمد بن سليمان الكاتب بالاهمال في القبض على المهدي ولذا عزله الخليفة . ونجح المهدي في الفرار من الفسطاط في زي التجار إلى طرابلس حيث هجمت عصابة من البربر على قافلته فنهبتها ، ولكن المهدي نجا بحياته وخرج إلى المغرب . ونجح العباسيون أخيراً في القبض على المهدي في سجلماسة سنة ٢٩٦ هـ .

لم يحل سجن المهدي دون بذل أبي عبد الله الشيعي جهوده في سبيل ارساء قواعد الدولة الفاطمية ، فقد استمر يعمل للسيطرة على مدن المغرب واحدة بعد أخرى ، وقطع الخطبة للخليفة العباسي في القيروان عاصمة افريقية ، وضرب عملة جديدة وألغى العملة العباسية ، فكان بذلك يقضي على كل معالم السيادة العباسية . وتوج أبو عبد الله نصره بأن قاد جيشاً كبيراً أطلق سراح المهدي من سجنه بالقوة وأسرع الوالي العباسي بالفرار[1] .

غادر عبيد الله المهدي السجن ليتلقى البيعة في سجلماسة ثلاثة أيام ، ثم غادرها في طريقه إلى القيروان ، فوصل إلى رقادة حيث استقبل استقبالاً حافلاً ، ثم استقر بالقيروان واتخذها عاصمته في ربيع الثاني سنة ٢٩٧ هـ .

---

١ – المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ص ٨٨ – ٨٩ .

وتلقب المهدي بأمير المؤمنين وخطب له على منابر بلاد المغرب جميعاً ، وأقبل الناس على اعتناق مذهب الاسماعيلية ، وولى المهدي ولاته على مدن المغرب ونظم الدواوين والضرائب وبدأ قيام الدولة الفاطمية بالمغرب .

قامت الدولة الفاطمية في المغرب في الواقع على أكتاف أبي عبد الله الشيعي وجهوده العظيمة . ورغم ذلك ، فقد أمر المهدي بقتله وقتل أخيه أبي العباس في جمادى الآخرة سنة ٢٩٨ هـ [١] . فقد أدرك المهدي ما كان لهما من نفوذ ومحبة في قلوب الكتاميين ، مما أثار حسده وحقده وخوفه . وغضب أهالي المغرب لمصرع أبي عبد الله الشيعي ، فثارت طرابلس ، كما أعلن الكتاميون ثورتهم ، ولكن المهدي أخضع هذه الثورات جميعاً ، وقاد ابنه وولي عهده أبو القاسم الجيش الذي قضى على ثورة الكتاميين .

بدأ عبيد الله المهدي يعمل على استقرار بلاد المغرب لسلطته ، فعزل الولاة الكتاميين ، واستعان بآخرين ممن يوليهم ثقته ، مثل حباسة بن يوسف وقد ولاه المغرب الأدنى ، وعروبة بن يوسف وقد ولاه المغربين الأوسط والأقصى . كما أخضع قبائل صنهاجة بالمغرب الأقصى . كما عمل على القضاء على دولة الادارسة وكانت تنافس الدولة الفاطمية ونجح في القضاء عليها فعلاً ، كما قضى على الثائر موسى بن أبي العافية الذي أعلن ولاءه لعبد الرحمن الناصر الأموي بالدولة الأموية بالأندلس . وبعد نجاح المهدي في القضاء على أعدائه ومنافسيه ، بدأ في اقامة حاضرة جديدة في مكان متوسط ، يبنيها على شكل حصن ليحتمي بها هو وأعوانه ، ولتكون مقرّاً للدعوة الاسماعيلية .

اختار المهدي مكاناً في جنوب القيروان يحيط البحر به من ثلاث جهات فأنشأ حاضرة الدولة الفاطمية الوليدة ، وسماها (المهدية) وجعل لها بابين

---

١ – اتعاظ الحنفا ص ٩٥ .

كبيرين من الحديد يبلغ وزن كل منهما ألف قنطار ، وأقام بالعاصمة الجديدة داراً للصناعة تسع حوالي مائتي مركب ، وجعل فيها سوقاً لكل مهنة . وبعد الانتهاء من العاصمة الجديدة ، أقام إلى جوارها مدينة « زويلـــة » نسبة الى احدى قبائل بلاد المغرب ليقيم فيها أصحاب الحوانيت وأسرهم .

الخلفاء الفاطميون ببلاد المغرب :

حاول عبيد الله المهدي (٢٩٧ — ٣٢٢ هـ) التوسع شرقاً وغرباً . أما نحو الشرق ، فقـــد حاول فتح مصر ثلاث مرات (٣٠١ و ٣٠٧ و ٣٢١ هـ) دون جدوى . أما في الغرب ، فقد قضى المهدي على دولة الأدارسة ، ثم اصطدم بالدولة الأموية في الأندلس . وامتد نفوذ الدولة الفاطمية في جميع شمال افريقية ، بل هدد الفاطميون جنوب إيطاليا . وانشغل المهدي عن متابعة محاولة فتـــح مصر بمشاكله الداخلية إذ ثـــار والياه حباسة وعروبة ابنا يوسف . وساءت العلاقات بـــين الفاطميين والأمويين لسماحهم بالتجاء الهاربين من الفاطميين ، كما أن عبد الرحمن الناصر الأمير الأموي بالأندلس شعر بالغيرة من المهدي الخليفة الفاطمي فتلقب هو أيضاً بلقب خليفة . ومن عوامل العداء الاختلاف في المذهب ، فكان الفاطميون شيعة ، بينما كان الأمويون سنيين .

وبعد وفاة المهدي خلفه ابنه أبو القاسم محمد الذي اتخذ لقب (**القائم بأمر الله**) وأخفى نبـــأ وفاة أبيه حتى أخمد بعض الثورات التي قامت وأشدها ثورة أهل زناتة . وفي عهد القائم برزت قبيلة صنهاجة ، واحتلت مكانة قبيلة زناتة . وما لبث ان ظهر خطر جديد هو ثورة الخوارج بزعامة أبي يزيد مخلد كيداد الذي أغار على المهدية فهرب أهلها إلى طرابلس وصقلية ومصر بل إلى الدولة البيزنطية ، واستنجد الخليفة بقبيلة صنهاجة ، ونجحوا في القضاء على كيداد وسجنه ، ومات القائم خلال هذه الظروف .

تولى الخليفة **المنصور** فانصرف اهتمامه الى تنمية موارد البلاد واعادة

الأمن والهدوء بعد تلك الفترة الطويلة التي حفلت بالفتن والاضطرابات . وأنشأ اسطولاً كبيراً ، كما أسس مدينة المنصورية سنة ٣٢٧ هـ واتخذها عاصمة له . ولا شك أن انشغاله في اصلاح ما أفسدته الثورات شغله عن فتح مصر .

وكان المعز لدين الله الخليفة الفاطمي الرابع (٣٤١ هـ) ، ونجح في أول عهده في القضاء على بقايا دولة الأدارسة فاختفت تماماً . ونجح المعز في القضاء على روح الثورة تماماً ، مما أتاح له الفرصة للتفرغ للفتوحات الخارجية ، فاهتم بجزيرة صقلية وكانت تخضع قبل قيام الدولة الفاطمية لدولة الأغالبة ، وكانت الدولة الفاطمية تعمل على انشاء امبراطورية عظيمة في البحر المتوسط وتريد أن تجعل صقلية قاعدة الأسطول لتأمن شر غارات الروم على سواحل افريقية ، ولتحقيق أطماع الفاطميين في مصر ، إلى جانب توفر المعادن في صقلية . واهتم الفاطميون بتحقيق السيادة الفاطمية في حوض البحر المتوسط ، فأنشأوا الموانيء البحرية ، وأسسوا مدينة المهدية وجعلوها قاعدة للأسطول الفاطمي ، وسيطر الفاطميون على جزيرة كورسيكا وأغاروا على جنوه وسردينية ، وأصبح البحر المتوسط بحيرة فاطمية ، ثم بدأ المعز يتفرغ لفتح مصر .

أسباب الفتح الفاطمي لمصر :

اختار الفاطميون بلاد المغرب ليقيموا فيها الدولة الفاطمية دون غيرها من البلاد ، لأن بلاد المغرب بعيدة تماماً عن مركز الدولة العباسية بالعراق ، مما يوفر الفرصة أمام الفاطميين للعمل الايجابي بعيداً عن السلطة المركزية في الخلافة العباسية . ولكن الفاطميين كانوا يتمنون قيام دولتهم في قطر يتوسط العالم العربي الاسلامي في ذلك الحين ، مثل مصر ، إذ ان مصر تقع في مكان يتوسط القارتين الافريقية والآسيوية حيث يعيش العرب والمسلمون ، وكان المصريون أكثر استجابة للحضارة العربية من بربر شمال افريقية .

كان الفاطميون يحلمون باقامة خلافة علوية في مصر ، وكانوا يدركون أن وجودهم في مصر يمكنهم من التوسع شمالاً وشرقاً وغرباً . فقد كان حكام مصر دائماً يسيطرون على بلاد الشام ، فيقترب الفاطميون بذلك من العراق قلب الدولة العباسية ، كما يسيطر الفاطميون على بلاد الحجاز حيث الحرمان الشريفان فيصبحون حماة الأماكن المقدسة ويصبح الفاطميون أصحاب السلطة في أكبر عواصم اسلامية ، الفسطاط ودمشق ومكة والمدينة . ومن مصر يتمكن الفاطميون من التوسع غرباً في برقة وبلاد المغرب . كما أن مصر مفتاح البحر المتوسط ، وقد رأينا الفاطميين يظهرون اهتماماً بالسيطرة على حوض البحر المتوسط إلى جانب ما تتصف به مصر من حضارة وثراء ورخاء وهدوء .

ولـذا نرى الفاطميين منـذ اللحظة الأولى لقيام الدولـة الفاطمية يعملون على فتح مصر ، وتكررت محاولتهم دون يأس أو عدول . كانت المحاولة الأولى سنة ٣٠١ هـ ، فقد جمع المهدي جيشاً من المغاربة بقيادة ابنه وولي عهده أبي القاسم ، يعاونه القائد الكتامي حباسة بن يوسف ، ففتحوا برقة ثم الاسكندرية ، وحاولوا فتح الوجه القبلي ، ولكن الخليفة المقتدر العباسي بعث جيشاً كبيراً بقيادة مؤنس الخادم تمكن من هزيمة الفاطميين قرب الجزيرة ، واضطر الفاطميون إلى الانسحاب إلى بلاد المغرب . ولكن هذه المحاولة الفاشلة بذرت في مصر بذور الدعوة الفاطمية الشيعية .

وفي سنة ٣٠٧ هـ بعث المهدي جيشاً آخر بقيادة أبي القاسم أيضاً ، نجح في فتح الاسكندرية ثم الجزيرة والفيوم ، ولكن الخليفة العباسي بعث مؤنساً الخادم مرة ثانية ، ونجح أيضاً في هزيمة الفاطميين ، كما أحرق السفن الفاطمية ، وانتهت المحاولة الثانية بالاخفاق[1] .

---

١ – اتعاظ الحنفا ، ص ١٥٤ .

ثم بدأت المحاولة الثالثة سنة ٣٢١ هـ بقيادة جيش بن أحمد المغربي ، ودارت معارك عنيفة طويلة استمرت ثلاث سنوات إلى سنة ٣٢٤ هـ ، وأوقع محمد بن طغج الهزيمة بالفاطميين ، فانسحبوا إلى بلاد المغرب . وحينما تولى القائم الخلافة بعد أبيه المهدي بعث بجيش أواخر سنة ٣٢٣ هـ ، انضم اليه بعض المصريين نتيجة انتشار الدعاية الفاطمية بينهم ، ولكن الإخشيد نجح في صد الجيش الفاطمي فعاد إلى المغرب[١] .

لجأ القائم إلى الوسائل السلمية ، فبعث بخطاب إلى الإخشيد ينشد فيه صداقته ومودته . ولكن الاخشيد ماطل الرسول وأخبره أنه « لا يقرأ ولا يكتب ، ولا يجوز له أن يبوح بما في نفسه إلى كاتب » ، فقد خشي كافور أن يغضب الخليفة العباسي ، كما أدرك مطامع الخليفة الفاطمي . ولما ساءت العلاقات بين الاخشيد والخليفة العباسي الراضي قطع الخطبة له وذكر اسم الخليفة الفاطمي القائم ، وعرض عليه زواج ابنته من المنصور بن القائم ، ولكن المشروع أخفق .

لم يقم الخليفة الفاطمي المنصور بمحاولة أخرى لفتح مصر ، فقد انشغل باخماد الثورات والفتن ، واعادة الهدوء والاستقرار ، واصلاح ما أفسدته الثورات ، حتى اذا تولى الخليفة المعز (٣٤١ هـ) عاد مشروع فتح مصر إلى الوجود .

الفتح الفاطمي لمصر :

لم يكن مشروع فتح مصر جديداً كما رأينا ، ولكن المعز لدين الله تابع سياسة أسلافه ، وتميز عنهم بأنه هيأ الأسباب لنجاح المشروع ، كما أن ظروف مصر الداخلية كانت تسمح بظهور المشروع ونجاحه .

---

١ - الكندي ص ٢٨٥ - ٢٨٧ .

استعد المعز لفتح مصر استعداداً وافراً ؛ فقد جمع أموالاً كثيرة تكفي لنجاح المشروع ، وقام بانشاء الطرق ، وحفر الآبار ، وأقام المنازل على رأس كل مرحلة في الطريق بين المغرب ومصر . وأعد جيشاً كثيفاً قوامه مائة ألف محارب ، في مقدمتهم رجال من كتامة اشتهروا بالشجاعة والاقدام . وولى عليهم قائداً جسوراً هو جوهر الصقلي . وأمده بمال وفير وضعه في ألف ومائتي صندوق .

كانت ظروف مصر الداخلية مهيئة للفتح الفاطمي . فعلى الرغم من فشل المحاولات الفاطمية السابق ذكرها لفتح مصر فقد كان من بين المصريين من يتمنى استيلاء الفاطميين على مصر . وانتشر المذهب الفاطمي الشيعي في معظم مدن مصر ، وكان بعض الإخشيديين يسمحون بالدعوة الفاطمية ويشجعونها وخاصة بعد النزاع العنيف بين الاخشيد وابن رائق ، فقد قطع الاخشيد الخطبة للخليفة العباسي ودعا للخليفة الفاطمي . وانشغل الخلفاء العباسيون بمشاكلهم الداخلية عن القضاء على الدعوة الفاطمية في مصر ، فقد سيطر الأتراك على الخلفاء العباسيين . كما انتشرت الفوضى في مصر بعد وفاة كافور الاخشيد ، وادرك الفاطميون أن الوقت حان لفتح مصر . وخاصة أن الأحوال الداخلية في بغداد تحول دون الخليفة العباسي وارسال الجيوش لصد الفاطميين .

خرج جوهر الصقلي على رأس الجيش الفاطمي في ١٤ ربيع الثاني سنة ٣٥٨ هـ (فبراير ٩٦٩ م) لفتح مصر ، وخطب المعز في جنده خطبة مسهبة شرح فيها هدفه من الفتح ، وهو نشر نفوذه الديني والسياسي في المشرق . وأن سياسته تقوم على قاعدة « العدل أساس الملك » وأنه يرمي إلى تعمير بلاده ، ونصح للجند الكتاميين بالطاعة والاخلاص ليتم لهم فتح المشرق كما سهل أمر المغرب عليهم[1] ، وخرج مع الجيش عدد من السفن الفاطمية ،

---

١ – المقريزي : اتعاظ الحنفا ص ٦١ .

وبلغ ما أنفقه المعز على الجيش والأسطول أربعة وعشرين مليون دينار .

وصل جوهر الصقلي الى الاسكندرية ، فأُصيب أهل الفسطاط بالذعر وبعثوا الوزير جعفر بن الفرات ليفاوض جوهراً في الصلح ، وطلب الأمان على أرواحهم وممتلكاتهم . واختار ابن الفرات مندوباً عنه ينسب إلى الحسين ابن علي يسمى أبا جعفر ليسهل التفاهم مع الفاطميين . وقابل هذا الوفد جوهراً الصقلي ، وأجابهم جوهر إلى رجائهم ، وكتب لهم عهداً ، وعد فيه أن يطلق الحريـــة الدينية والمذهبية لجميع المصريـــين ، وأن يقوم بما تطلبه البلاد من اصلاحات ، كما تعهد بنشر العدل والطمأنينة وحماية مصر من المغيرين .

وفي ٧ شعبان عاد الوفد إلى الفسطاط ، وقرأ ابن الفرات العهد الذي منحه جوهراً ، وتجادل الناس حوله ، واختلفوا في قبوله ، ثم اتفقت كلمتهم على رفض الصلح . وأصر الاخشيديون والكافوريون على قتال جوهر ، وعسكروا في الجيزة ، وتقدم جوهر نحو الفسطاط ، وهزم الاخشيديين والكافوريين وهرع أهالي الفسطاط يطلبون من الشريف أبي جعفر أن يكاتب جوهراً ليعيد عهد الأمان ، فكتب اليه يهنئه بالفتح ويسأله الأمان من جديد ، وقبل جوهر التماسهم ، وأذاع على جنده منشوراً يحرم فيه عليهم أن يقوموا بأعمال السلب والنهب والعنف . فعاد الهدوء والاستقرار إلى الفسطاط مرة اخرى .

أعلن المصريون ولاءهم للخليفة الفاطمي ، ونبذوا طاعتهم للخليفة العباسي ، فقد أدرك المصريون أن انتقال السلطة والنفوذ من خليفة عباسي سني إلى خليفة فاطمي شيعي لن يغير شيئــاً من الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية . واقتصرت معارضة الفاطميين على الكافوريين والاخشيديين

الذين آلمهم ضياع السلطة منهم . وفي ١٧ شعبان خرج الوزير ابن الفرات والأشراف والقضاة والعلماء والتجار إلى الجـيزة وقابلوا جوهراً وهنـأوه بالفتح .

علم المعز بفتح مصر ، فأبدى فرحه وسروره ، فقد زال تماماً النفوذ العباسي والاخشيدي من مصر ، وأصبحت مصر جزءاً من الأمبراطورية الفاطمية التي أصبحت تمتد من المحيط الأطلسي غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً . لكن مصر لم تصبح ولاية تتبع الدولة كما كانت في العصر الأموي والعصر العباسي ، بل أصبحت قلب الدولة الفاطمية ، فقد انتقل المعز إلى مصر ، واتخذ من القاهرة التي انشأها جوهر عاصمة جديدة تنافس بغداد ودمشق وقرطبة والقيروان .

أصبحت القاهرة مركز الخلافة الفاطمية ، ويقول آدم متز ان الخليفة الفاطمي قد وقف من الخليفة العباسي موقف المنافس العنيد ، وانتشر نفوذه في كل مكان ، ودعي له على منابر بلاد المغرب ومصر واليمن والشام .

تولى العزيز بالله (٣٦٥ — ٣٨٦ ﻫ) بعد أبيه المعز ، فاتسعت رقعة الدولة في عهده حتى فاقت دولة أبيه ، واشتهر بالتسامح مع أهل الذمة ، فولى الوزارة يعقوب بن كلس وهو اسرائيلي أسلم ، وعيسى بن نسطورس وهو مسيحي ، وامتلأت خزانته بالأموال ، وأصلح النظم الاداريـة واهتم بالعمران . ثم توفي سنة ٣٨٦ ﻫ ودولته تمتد من المحيط الأطلسي غرباً إلى شرقي الحجاز ، ومن اليمن جنوباً إلى أعالي الفرات شمالاً"[1] .

ثم بويع للخليفة الحاكم بأمر الله ، وكان في الحادية عشرة من عمره ، فتولى الوصاية عليه مربيه وأستاذه « برجوان » وهو خصي صقلي . وقد بذل الحاكم مجهوداً كبيراً في سبيل نشر الدعوة الفاطمية ، السياسية منها والدينية ،

---

١ — O'Leary : Short Hist. of the Fatimide Khalifate, P. 116

حتى أرغم كثيراً من الناس على اعتناق المذهب الفاطمي . وادعى الحاكم الألوهية ، ونسب إليه أنصاره الصفات التي يتصف بها الله سبحانه وتعالى ، وادعى علم الغيب ، حتى اعتقد بعض الناس أن بيده الحياة والموت ، ولهذا كان يسجد الناس له ويقبلون الأرض اذا مر بهم في الطرقات .

نحو الغروب :

قتل الحاكم سنة ٤١١ هـ ، فخلفه ابنه الظاهر (٤١١ – ٤٢٧ هـ) وكان في السادسة عشرة من عمره ، وتولت عمته ست الملك الوصاية عليه في الفترة الأولى من حكمه ، وأظهرت كفاءة ممتازة في تدبير أمور الدولة أربع سنوات إلى أن توفيت سنة ٤١٥ هـ . وفي عهد الظاهر انخفض النيل وانتشرت المجاعة ، وقامت فتن في بلاد الشام استنفد اخمادها أموالاً طائلة .

ثم تولى ابنه المستنصر (٤٢٧ – ٤٨٧ هـ) وعمره سبع سنين وحكم ستين سنة حفلت بالكوارث . فقد انخفض النيل مرة أخرى ، وانتشرت المجاعة والوباء وأصبحت السلطة الحقيقية في ايدي الجنود الأتراك الذين أعملوا التخريب فخربوا قصور الخلفاء ونهبوا نفائسها . وفقد الفاطميون ولايات شمال افريقية اذ عادت سنية ، كما انتزع الأتراك السلاجقة الولايات السورية سنة ٤٦٩ هـ .

استبد بالسلطة في عهد المستنصر الوزير بدر الجمالي الذي تولى سنة ٤٦٥ هـ واستطاع بشدته ودهائه أن يعيد إلى الدولة الفاطمية الهدوء والأمن والرخاء ، ولكنه حكم حكماً مطلقاً إلى أن توفي فخلفه ابنه الأفضل وظل المستنصر كالمحجور عليه .

وفي عهد المستنصر ، خطب له في بغداد نحو أربعين خطبة بعد أن هرب الخليفة العباسي القائم بأمر الله ، ورفعت الراية الفاطمية على بغداد وواسط والكوفة ، وأقام البساسيري الدعوة فيها للخليفة المستنصر ، وسيرت ثياب

الخليفة العباسي القائم وعمامته إلى مصر سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) وأبى صاحب الأهواز أن يخطب للمستنصر واستنجد بسلطان التركمان فأنجده بينما لم ينجد المستنصر البساسيري فعادت الخطبة في بغداد إلى بني العباس بعد عام كامل. وفي مكة رفع أهلها الغطاء الأسود عن الكعبة ووضعوا بدله الغطاء الأبيض شعار الفاطميين وعليه اسم المستنصر ولقبه [١].

بويع للمستعلي بالله بعد وفاة أبيه المستنصر (٤٨٧ – ٤٩٥ هـ) دون أخيه أبي منصور نزار الذي ولاه أبوه عهده وشرع في أخذ البيعة له أثناء مرضه، غير أن وزيره الأفضل بن بدر الجمالي أخذ يماطله حتى توفي قبل أن تم البيعة لابنه نزار. وخرج نزار إلى الاسكندرية حيث بايع له أهلها ولقبوه (المصطفى لدين الله) ولكن الأفضل سجنه إلى أن مات. وكان الحسن الصباح في مصر وقتئذ، فتبنى الدعوة لنزار، وانتقل بالدعوة النزارية الى ايران سنة ٤٨٨ هـ وأخذ يدعو إلى الامام المستور، وبذلك انقسمت الدعوة الفاطمية إلى فرعين: المستعلية والنزارية.

استبد الوزير الأفضل بالحكم دون الخليفة المستعلي، وفي عهده بدأت غارات الصليبيين على سواحل الشام فاستولوا على نيقيا وانطاكية وزحفوا نحو بيت المقدس، وحاول الأفضل صدهم لكنه هزم، واستمر الصليبيون ينتزعون المدن الساحلية [٢].

تولى الآمر بأحكام الله (٤٩٥ – ٥٢٤ هـ) بعد أبيه المستعلي، ولم يكتف الوزير الأفضل باستبداده بالسلطة دون الخليفة، بل اعتنق المذهب السني فألغى الاحتفال بالمولد النبوي ومولد فاطمة وعلي والخليفة، وشعر الخليفة بخطورة هذا الانقلاب على دولته الشيعية فدبر مؤامرة لقتل الأفضل.

---

١ – ابن ميسر: تاريخ مصر من ٣٠ – ٣٤.
٢ – أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٦ – ١٤٨.

لاقى (الآمر) حتفه على يد النزارية، فخلفه ابن عمه الحافظ لدين الله (٥٢٤ — ٥٤٤ هـ) متخطياً ابن الآمر الطفل، ولكن أنصار الآمر تعصبوا لابنه ودعوا له في الاسكندرية ولقبوه بالامام الطيب ونقشوا اسمه على الدنانير. وخرجت اليمن عن طاعة الحافظ وبايعت للطيب، وانقسمت الدعوة الاسماعيلية إلى مستعلية نسبة إلى المستعلي، وطيبية نسبة إلى الطيب بن الآمر، مثلما انقسمت الدعوة الاسماعيلية بعد وفاة المستنصر إلى مستعلية ونزارية.

تولى أبو علي أحمد بن الأفضل الوزارة فاستبد بالسلطة، وقبض على الخليفة الحافظ، وأزال العبارة التي كانت تذكر في الأذان الشيعي وهي (حي على خير العمل، ومحمد وعلي خير البشر) وأسقط ذكر اسماعيل ابن جعفر الصادق من الخطبة ولذا كرهت الشيعة الوزير، فقتلوه وأطلقوا سراح الخليفة الحافظ الذي ولى أبا الفتح يانس الحافظي الوزارة [١].

ولكن حدث أن ثار بهرام الأرمني والي الغربية على الخليفة وحاصر القاهرة فاضطر الخليفة إلى توليته الوزارة رغم أنه مسيحي، مما أثار غضب المسلمين وخاصة أن بهرام سمح بتكاثر الأرمن في مصر فبلغ عددهم ثلاثين ألفاً واضطهدوا المصريين، فاستنجد المصريون بوالي الغربية (رضوان الولخشي) فتمكن من هزيمة بهرام الذي فر إلى الصعيد. واضطهد رضوان الأرمن، ولم يرض الحافظ عن سياسته، بل تحداه اذ استدعى بهرام من الصعيد وأسكنه في قصره واكرمه. فغضب رضوان وخرج إلى الشام حيث أعد جيشاً كثيفاً حارب به الخليفة، لكنه هزم فالتجأ إلى الصعيد ولم ينته النزاع الا بموت بهرام ٥٣٥ هـ [٢].

---

١ — ابن ميسر ص ٧٥.
٢ — ابن الأثير ج ١١ ص ١٤٥ — ١٤٧.

بداية نهاية الخلافة الفاطمية :

بدأت شمس الدولة الفاطمية في الغروب ، منذ وفاة الحافظ سنة ٥٤٤ هـ وتولية الظافر . فقد ترك الفاطميون حياتهم الفطرية التي كانت شعارهم في أيامهم الأولى عندما كانوا يحكمون البربر في القيروان ، وانغمسوا في الترف فسكنوا القصور الجميلة بالقاهرة وتمتعوا بكل أنواع اللذات في الحياة ، ووكلوا أمور الناس وشئون الدولة إلى خدامهم كما فعـل قبلهم العباسيون مع مواليهم . فكان من جراء ذلك أن استأثر الوزراء بمناصب الخلفاء شيئاً فشيئاً ، حتى كانوا يلقبون بلقب « ملك » بينما كان ساداتهم منزوين في بيوتهم وقد أصبحوا ألعوبة في أيديهم ، كما أصبح خلفاء العباسيين مثلهم في بغداد [١] .

استمر الصراع على الوزارة في عهد الخليفة الجديد الظافر سنة ٥٤٤ هـ ، فقد ثار الأمير المظفر علي بن السلار والي الاسكندرية والبحيرة ، وزحف إلى القاهرة . واضطر نجم الدين بن مصال وزير الظافر إلى الفرار ، وتولى ابن السلار الوزارة ، وتلقب بالعادل ، وتتبعت قواته ابن مصال في الصعيد حتى قضت عليه .

كان ابن السلار خلال صراعه مع ابن مصال قد استنجد بنور الدين حاكم دمشق وحلب ليساعده ضد خصمه . وكان هذا بمثابة السماح لنور الدين بالتدخل في شئون مصر الداخلية ، كما ظهرت مصر بمظهر الضعف والعجز عن صد هجمات الصليبيين الذين بدأوا يشنون الهجوم على الأراضي المصرية ، وبدأ نور الدين يفكر جدياً في الهجوم على مصر . كما أن كلاً من الصليبيين ونور الدين قد أصبح عالماً بانتشار الفوضى في مصر نتيجة الصراع حول الوزارة ، إلى جانب الاختلاف العنصري بين جند الفاطميين وخاصة بين الأتراك والسودانيين ، ولذا بدأ التنافس بين الصليبيين ونور الدين حول غزو

---

١ — حسن ابراهيم : الدولة الفاطمية ص ١٧٩ .

مصر[1] . وفي ذلك يقول المؤرخ ستانلي لينبول[2] : « ان أول تدخل لنور الدين في شئون مصر بقوة السيف كان من سعي وزير مخلوع » .

اتبع ابن السلار سياسة بعض أسلافه في ابداء عدائه للمذهب الشيعي واتباعه المذهب السني رغم أنه كان يتولى الوزارة لخليفة فاطمي شيعي . وكان الصراع بين ابن السلار وابن مصال هو في الحقيقة صراعاً بين السنيين والشيعيين ، ولذا استنجد ابن السلار بنور الدين وكان سنياً متعصباً للسنية ، وكان الرجلان يعتنقان المذهب الشافعي .

شعر الخليفة الظافر بخطورة ابن السلار على الدولة الفاطمية ، فعمل على القضاء عليه . ونجح نصر بن عباس في قتل ابن السلار في ٦ المحرم ٥٤٨ هـ . وتولى عباس والد نصر الوزارة بعد مقتل ابن السلار وما لبث أن تآمر مع ابنه نصر على قتل الخليفة الظافر سنة ٥٤٩ هـ وزعم أن إخوة الخليفة قد قتلوه ، ولكن أهالي القاهرة كشفوا عن المؤامرة ، فثاروا على عباس مما اضطره إلى الفرار إلى الشام ، ولكن أخت الخليفة بعثت بجماعة من الصليبيين قضت على عباس وقضت على ابنه نصر ، وحمل إلى القاهرة حيث صلب حيّاً على باب زويلة في ١٠ محرم سنة ٥٥١ هـ[3] .

كان للخليفة المقتول الظافر طفل في الرابعة من عمره ، تولى الخلافة بعد أبيه ، وتلقب بالفائز سنة ٥٤٩ هـ ، وخشيت نساء القصر على مصير الخليفة الطفل ، ورأين أن يستعنّ بشخصية برزت في ذلك الحين ، وهي شخصية طلائع بن رزيك والي الأشمونين ، فبعثن يستنجدن به وقد أرسلن له بعض شعرهن رمزاً لالتماس النجدة[4] .

---

١ – حسن ابراهيم : الدولة الفاطمية ص ١٨٣ .

٢ – Saladin ..., P. 80

٣ – ابن خلكان جـ ١ ص ٥٠٠ .

٤ – Lane - Poole : Hist. of Egypt ..., P. 173

استجاب ابن رزيك لالتماس هؤلاء النسوة ، وتقدم نحو القصر حاملاً رمحه وفي رأسه شعور النساء ، وتولى منصب الوزارة . وكان ابن رزيك مرتدياً ملابس سوداء ، وعلق المقريزي[1] على ذلك بقوله : « فكان فألاً عجيباً ، فانه بعد خمس عشرة سنة دخلت أعلام بني العباس السود من بغداد إلى القاهرة لما مات العاضد واستبد صلاح الدين بملك مصر » .

تلقب ابن رزيك بلقب الملك الصالح . ونجح في اعادة الأمن والهدوء إلى مصر . ولكنه انشغل بالمشاكل الداخلية والمؤامرات الكثيرة التي دبرت للخلاص منه عن وقف زحف الصليبيين ، فسقطت عسقلان آخر معاقل الفاطميين في فلسطين وتوفي الخليفة الفائز سنة ٥٥٥ هـ ، وخلفه العاضد ، واستمر ابن رزيك يتولى منصب الوزارة .

بدأ العاضد عهده بالخلاص من ابن رزيك ، رغم زواج العاضد من ابنته ، ونجح أخيراً في اغتياله في سنة ٥٥٦ هـ ، وأثار مصرعه سخط أهالي القاهرة الذين أعاد ابن رزيك لهم أمنهم . والعجيب أن العاضد عهد بالوزارة لأحد أبناء ابن رزيك وهو أبو شجاع العادل ، فظل يتولى الوزارة سنتين حتى خلعه شاور والي الصعيد سنة ٥٥٨ هـ ، ولكنه لم يهنأ بالمنصب طويلاً فقد نافسه ضرغام أمير برقة الذي تقدم إلى القاهرة على رأس جيش ، فأسرع شاور بالفرار إلى الشام مستنجداً بنور الدين ليعيده إلى الوزارة ، وأطلعه على اضطراب أحوالها الداخلية . وعلم ضرغام باستنجاد خصمه بنور الدين ، فاستنجد بالطرف الآخر الصليبيين وأبدى عموري ملك بيت المقدس سروره لهذه الفرصة الذهبية لغزو مصر .

بعث كل من نور الدين وعموري جيوشهما لغزو مصر ، تحت ستار

---

١ - خطط المقريزي ج ٢ ص ٣٠ .

نجدة شاور وضرغام ، وعهد نور الدين بقيادة الجيش إلى أسد الدين شيركوه وصحبه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي ، وقاد عموري بنفسه الجيش الصليبي وتتابعت حملات نور الدين وعموري لغزو مصر ، حتى بلغ عددها ثلاثاً .

غروب الخلافة الفاطمية في مصر :

غربت شمس الخلافة الفاطمية في مصر ، وأشرقت شمس الدولة الأيوبية نتيجة التنافس بين الوزيرين الفاطميين شاور وضرغام ، واستنجاد كل من المتنافسين بأعداء الدولة الفاطمية الطامعين في الاستيلاء على مصر . ويرى الدكتور حسن ابراهيم[1] أن السبب الحقيقي في سقوط الدولة الفاطمية انما يرجع إلى الحروب الصليبية . فعلى الرغم من انحلال قوة الفاطميين في الشطر الثاني من حكمهم ، فان الحروب الصليبية قد عجلت بزوال دولتهم العظيمة التي سيطرت ردحاً من الزمن على جميع الولايات الغربية للدولة العباسية الشاسعة الأرجاء .

بعث نور الدين حملة إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه ، وبعد سلسلة طويلة من الحروب نجح شيركوه في الانتصار على الصليبيين في عدة مواقع في القاهرة والاسكندرية ، واتفق شيركوه مع عموري على أن يجلو جيشاهما عن مصر ، واستفاد شاور من هذا الاتفاق ، فقد أصبح صاحب السيادة الوحيدة في مصر ، في وقت لحق الضعف بجيش نور الدين والصليبيين نتيجة القتال العنيف .

نقض الصليبيون عهدهم لشيركوه ، فقدموا في العام التالي إلى مصر ، وحاول شاور بكل وسيلة أن يصدهم ، حتى إنه أشعل النيران في

---

١ ــ الدولة الفاطمية ص ١٨٠ .

مدينة الفسطاط ليمنعهم من الاستيلاء عليها ، واستمرت النيران تضطرم في الفسطاط خمسين يوماً حتى أصبحت هذه المدينة التاريخية أثراً بعد عين . وأرسل الخليفة العاضد إلى نور الدين يستنجد به ليساعده ضد الصليبيين ، ووعده بأن يمنحه ثلث أرض مصر وان يسمح بوجود حامية لنور الدين في مصر[1] . وأبدى شاور غضبه لما فعله الخليفة ، فقد كان يرى أن المال قد يحل المشكلة دون السماح لنور الدين بالعودة للتدخل في شئون مصر ، فاتفق مع الصليبيين على أن يؤدي لهم مليون دينار مقابل جلائهم عن مصر ، وأعطاهم مائة ألف دينار سلفاً .

استجاب نور الدين لاستنجاد الخليفة به ، فبعث حملة أخرى قادها شيركوه أيضاً ، وصحبه صلاح الدين سنة ٥٦٤ هـ . وأدرك عموري خطورة الموقف ، وآثر الانسحاب إلى الشام حتى لا يقع بين عدوين لدودين ، جيش نور الدين والوزير شاور ، فانسحب دون أن يشتبك في قتال . ودخل شيركوه الأراضي المصرية دون قطرة دماء ، واستقبله الخليفة بالترحاب والاكرام[2] .

أبدى شاور غضبه لقدوم شيركوه إلى مصر ، واكرام الخليفة له ، ورفض أن ينفذ ما كان قد تعهد به الخليفة العاضد لنور الدين حين طلب منه النجدة ، وبدأ يدبر المكايد لشيركوه ، ولكن صلاح الدين تمكن من القبض على شاور ، وأمر الخليفة بقتله ، وولى العاضد شيركوه وزيراً بدلاً من شاور وبالغ في اكرامه وسماه (الملك المنصور) وجعله قائداً عاماً لجيوشه في ١٧ ربيع الثاني سنة ٥٦٤ هـ .

وصف المؤرخ عمارة الموقف في هذه الفترة فقال : «ولم يرب أحد من الوزراء المصريين رجال الدولة مثل ما رباهم الصالح بن رزيك ، ولا

---

١ – ابن واصل : مفرج الكروب ص ١٥٨ .
٢ – ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ١٣٧ .

أفنى أعيانهم مثـل ضرغام ، ولا أتلف أموالهم مثـل شاور الذي أطمع الفرنجة والغز في الدولة حتى انتقلت عن أهلها »[1] .

لم يطل تولي شيركوه للوزارة، فقد مات بعد شهرين وخمسة أيام ، وكان من البديهي أن يختار الخليفة العاضد للوزارة أحد رجالات الدولة الفاطمية، ولكنه اتخذ خطوة جريئة، فقد عهد بالوزارة الى ابن أخي شيركوه ، صلاح الدين ، وظن أنه باختيار هذا الشاب القليل الشأن يستطيع أن يمارس سلطته كخليفة دون استبداد الوزير ، ولكن العاضد سرعان ما شعر بأنه أخفق في سياسته فقد قضى صلاح الدين على الدولة الفاطمية وأقام دولة جديدة هي الدولة الأيوبية .

لم يكن منصب الوزارة وقتئذ منصباً يتهافت عليه الطامحون ، فقد كانت تحيطه الأخطار والمصاعب ، وكان صلاح الدين يشعر بخطورة الموقف ، فقد كان وزيراً سنياً في دولة شيعية ، وكان وزيراً للعاضد ، ونائباً لنور الدين في وقت واحد ، وكانت مصر تضطرب بالفوضى ، وما زال الصليبيون يرقبون الفرصة للتدخل . ولكن صلاح الدين كان شاباً طموحاً ، فرأى أن يواجه هذه الصعاب ، ويرى بعض المؤرخين أنه كان يهدف الى تكوين دولة كبيرة مركزها مصر ، وأن الوزارة كانت اللبنة الأولى نحو تحقيق أطماعه .

سقوط الخلافة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية :

وضع صلاح الدين لنفسه سياسة مرسومة ترمي الى القضاء على الدولة الفاطمية الشيعية ، واقامة دولة أيوبية سنية ، لكنه لم يتعجل تنفيذ هذه السياسة ورأى أن تتم على خطوات طويلة ، فقد كانت تحيط به المصاعب ،

---

١ – عمارة : النكت ص ٨٨ .

كما رأى ألا يفقد رضا المصريين . وألا يغضب نورالدين ويثير مخاوفه منه . وبدأ صلاح الدين بأن اضعف حزب الخليفة الفاطمي العاضد ، وعمل في نفس الوقت على ارضاء الشعب المصري ، وأغدق الأموال على رجالات الدولة فاكتسب صداقتهم . وملأ مناصب الدولة برجاله الذين يثق هو بهم[1] .

لقي صلاح الدين في مستهل عهد وزارته كثيراً من العقبات ، فقد أعلن القواد الفاطميون سخطهم على تولي أحد رجال نور الدين الوزارة دونهم فأعلنوا مقاطعتهم له ، وحاول أحد رجال الدين والسيف وهو ضياء الدين عيسى الهكاوي التوفيق بينه وبينهم ، ونجح في مسعاه ، ولكن زعيمهم عين الدولة الياروقي أعلن العصيان وخرج الى الشام حيث استمر يحمل لواء المعارضة لصلاح الدين ، أما سائر الموظفين الفاطميين فقد استمروا يعتبرون صلاح الدين دخيلاً قد اغتصب السلطة ، فاستمروا في تدبير المؤامرات .

كان صلاح الدين ممثلاً لنور الدين وأحد رجاله ، فكان عليه أن يفوز بموافقته على توليه الوزارة في دولة شيعية ، وقد نجح صلاح الدين في تحقيق هدفه ، فوافق نور الدين على توليه الوزارة ، وصار يبدأ رسائله لصلاح الدين بعبارة « الى الأمير الاسفهسلار » أي « الأمير الحاكم » . وطلب صلاح الدين من نور الدين أن يبعث له بأبيه وإخوته ليكونوا عضداً له في مصر .

ومن أبرز المشاكل التي واجهت الوزير صلاح الدين بعد أربعة شهور من توليه الوزارة ثورة رئيس حراس القصر ، وكان خصياً أسود يسمى (مؤتمن الدولة) ، الذي أقدم عـلى مراسلة الصليبيين ليستعين بهم ضد

---

١ – ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٤٨ – ٤٩ .

صلاح الدين ولذا أقدم صلاح الدين على قتله ، وثار الجند السودانيون غضباً لمصرع زعيمهم ، ونجح صلاح الدين في هزيمة السودانيين في موقعة بين القصرين وولى صلاح الدين على القصر خصياً ابيض من رجاله وهو (بهاء الدين قراقوش) [(١)] .

ومن المشاكل الكبرى التي واجهها الوزير الجديد ، قدوم أكثر من مائتين من السفن الصليبية لحصار دمياط ، فقد ظنوا أن مصر بعد وفاة شيركوه قد أصبحت لقمة سائغة لهم ، ولكن صلاح الدين هرع على رأس جيشه الى دمياط ، وبعث يطلب المدد من نور الدين ، ولبى نور الدين نداء صلاح الدين ، كما قام في نفس الوقت بالهجوم على الأراضي الصليبية في الشام ، فاضطر المهاجمون الصليبيون الى انهاء حصارهم لدمياط والانسحاب الى الشام للوقوف في وجه هجوم نور الدين . وأعلن الخليفة الفاطمي العاضد سروره لنجاح صلاح الدين في صد الصليبيين ، فأغدق عليه المال والسلاح وقدر المؤرخون ثمنها بمليون دينار . كما أبدى المصريون سرورهم[(٢)] .

مضى صلاح الدين في القضاء على الدولة الفاطمية الشيعية ، وساعده أن الشعب المصري ، شيعيين أو سنيين ، قد باتوا ينظرون الى صلاح الدين نظرة احترام وتقديس ، وقارنوا بين وزارة صلاح الدين القوية ، وخلافة العاضد الضعيفة ، فتمنوا بقاء الأولى وزوال الثانية . ورغم هذا النجاح الذي حازه صلاح الدين لم يشأ أن يفاجىء المصريين بتغيير مفاجىء ، فأخذ ينشىء تدريجياً المدارس السنية على المذهب الشافعي ، وعارض رأي نور الدين الذي كان يرى القضاء على الدولة الفاطمية منذ اللحظة الأولى لدخول جيشه الأراضي المصرية .

---

١ – ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ١٣٩ – ١٤٠ .
٢ – ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ١٤٧ .

استمر نور الدين يلح على صلاح الدين المرة بعد المرة في التعجيل بالقضاء على الدولة الفاطمية ، وحار صلاح الدين في تنفيذ أوامر نور الدين . فاستشار رجاله وأصحابه ، فانقسموا بدورهم بين مؤيد لاقتراح نور الدين ومعارض له . ولعبت المصادفة دورها في حسم الأمر . فقد لحق بالخليفة العاضد مرض شديد الزمه فراشه بالقصر . واستفاد صلاح الدين من هذه الفرصة ، فجرب قطع الخطبة من أحد مساجد القاهرة . فدعا خطيب المسجد للخليفة العباسي ولم يكترث الناس لهذا التغيير . وأدرك صلاح أن تنفيذ أمر نور الدين سهل هين ، فأصدر أوامر لجميع خطباء المساجد بقطع الخطبة للخليفة الفاطمي فنفذوا أمره ، وتم بذلك إسدال الستار على الدولة الفاطمية في هدوء وسلام دون كفاح أو معارضة أو كما قال المؤرخ ابن الأثير[1] : « فلم ينتطح فيها عنزتان » .

بعث صلاح الدين الى نور الدين من يخبره بتحقيق أوامره ، كما بعث الى الخليفة العباسي الى بغداد يبشره بعودة الخطبة له على منابر مصر . فأبدى هذا الخليفة ورعاياه في بغداد سروراً عظيماً ، وازدانت بغداد بأجمل الزينات ، وبعث الخليفة الى صلاح الدين بهداياه النفيسة . أما الخليفة الفاطمي العاضد فكان يعاني من آلام مرضه ولم تجرؤ أسرته أن تخبره بما أحدثه صلاح الدين ، وما لبث أن مات دون أن يعلم أن الدولة الفاطمية قد انتهت قبل أن تنتهي حياته ، وانه كان آخر الخلفاء الفاطميين .

العلاقات بين الخلافة الفاطمية والخلافة العباسية :

كان عصر الدولة الأموية هو عصر صراع بيتين كبيرين قرشيين . البيت الهاشمي والبيت الأموي ، وكان الهاشميون ينقسمون بدورهم الى فرعين

---

١ ـ الكامل جـ ١١ ص ١٤٩ .

كبيرين ، الفرع العلوي وينتسبون الى علي بن أبي طالب ، والفرع العباسي وينتسبون الى العباس بن عبد المطلب عم الرسول ، وقد تكاتف العلويون والعباسيون في صدر العصر الأموي على كفاح الدولة الأموية . وفي أواخر العصر الأموي ركن العلويون الى الهـدوء وانفرد العباسيون بالكفاح ، ونجحوا بمعاونة الموالي في القضاء على الدولة الأموية وأقاموا دولـة عباسية في العراق . وبدأت مرحلة جديدة من الصراع ، بين العباسيين والعلويين من ابنـاء فاطمة ، ونجح الفاطميون في اقامـة دولتهم في المغرب ، وبدأوا في التوسع على حساب أراضي الدولة العباسية ، فاستولوا على مصر . وكانت تخضع للنفوذ العباسي ، ثم بدأ الصراع بين الدولتين العباسية والفاطمية حول الشام والجزيرة العربية ، وزاد العداء حدةً اختلافُ العباسيين والفاطميين في المذهب .

بدأ الفاطميون بعد فتح مصر يعملون على اقتطاع ولايات الدولة العباسية واحدة بعد أخرى ، وكانت الشام هي المرحلة التالية الطبيعية بعد مصر ، وكانت الشام تخضع لنفوذ حكام مصر في العصرين الطولوني والاخشيدي، وكان الاخشيديون قد حاولوا بعد أن فقدوا مصر أن يحتفظوا بالشام ، ولكن جوهراً الصقلي بعث جيشاً بسط السيادة الفاطمية على الشام . وكانت دمشق أكثر مدن الشام مقاومة للفاطميين . ولكن جعفر بن فلاح القائد الفاطمي نجح في اخماد حركة المقاومة ، وخطب للخليفة الفاطمي على منابر الشام في محرم سنة ٣٥٩ هـ بدلاً من الخليفة العباسي [1] .

كان جعفر بن فلاح قاسياً في معاملته لأهل الشام ، فكرهوه وكرهوا بالتالي الحكم الفاطمي ، ورأوا أن يستنجدوا بقوى خارجية تخلصهم من الفاطميين ، فاستنجدوا بكل من القرامطة وأفتكين زعيم الأتراك .

---

١ – المقريزي : اتعاظ الحنفا ص ٨١ – ٨٣ .

وكان الحسن بن أحمد القرمطي وأنصاره في البحرين يتمنون مد سلطانهم الى بلاد الشام ، وكانوا يغيرون على بلاد الشام في عهد الاخشيديين مما اضطر الاخشيديين أن يؤدوا إتاوات سنوية الى القرامطة . وقطع جعفر ابن فلاح هذه الإتاوة مما أثار سخط القرامطة ، فأعلنوا ولاءهم للخليفة العباسي وذكروا اسمه في الخطبة ، كما أعلنوا عداءهم للفاطميين ، ولذا استجابوا لطلب أهل الشام النجدة منهم للخلاص من الفاطميين .

تقدم القرامطة نحو بلاد الشام ، واشتبكوا مع القائد الفاطمي جعفر ابن فلاح في صراع عنيف ، وكان جوهر الصقلي يحقد على ابن فلاح فلم يرسل له الأمداد ، وانتهى القتال بهزيمته ومصرعه ، واحتل القرامطة دمشق ، ودعوا في الخطبة على منابرها للخليفة العباسي . وزحف القرامطة نحو مصر ، قلب الدولة الفاطمية ، في ربيع الأول سنة ٣٦١ هـ واقتربوا من القاهرة ، ولكن جوهراً الصقلي نجح في صدهم فانسحبوا الى الاحساء ببلاد البحرين[1] .

ولما قدم الخليفة الفاطمي المعز لدين الله من المغرب الى مصر ، بعث برسالة الى الحسن زعيم القرامطة ، يذكره باخلاصه القديم للمذهب الفاطمي والفاطميين ويهدده ويتوعده ان لم يعدل عن سياسته العدائية . ولكن الحسن لم يعبأ بالتهديد ، وأعاد محاولة غزو مصر سنة ٣٦٣ هـ . ولكن المعز نجح في صده فانسحب بجيشه الى بلاد الشام .

كان أهل الشام قد استنجدوا بالقرامطة ، كما استنجدوا بأفتكين الذي كان يتولى زعامة الأتراك من قبل في بغداد . ونجح أفتكين في الاستيلاء على دمشق ، ودعا للخليفة العباسي الطائع على منابرها سنة ٣٦٤ هـ . وتشجع البيزنطيون لما لمسوه من اضطراب أحوال الشام ، فحاولوا غزو

---

١ - المقريزي : اتعاظ الحنفا ص ٥٢٠ .

كبيرين ، الفرع العلوي وينتسبون الى علي بن أبي طالب ، والفرع العباسي وينتسبون الى العباس بن عبد المطلب عم الرسول ، وقد تكاتف العلويون والعباسيون في صدر العصر الأموي على كفاح الدولة الأموية . وفي أواخر العصر الأموي ركن العلويون الى الهدوء وانفرد العباسيون بالكفاح ، ونجحوا بمعاونة الموالي في القضاء على الدولة الأموية وأقاموا دولة عباسية في العراق . وبدأت مرحلة جديدة من الصراع ، بين العباسيين والعلويين من ابناء فاطمة ، ونجح الفاطميون في اقامة دولتهم في المغرب ، وبدأوا في التوسع على حساب أراضي الدولة العباسية ، فاستولوا على مصر وكانت تخضع للنفوذ العباسي ، ثم بدأ الصراع بين الدولتين العباسية والفاطمية حول الشام والجزيرة العربية ، وزاد العداء حدةً اختلافُ العباسيين والفاطميين في المذهب .

بدأ الفاطميون بعد فتح مصر يعملون على اقتطاع ولايات الدولة العباسية واحدة بعد أخرى ، وكانت الشام هي المرحلة التالية الطبيعية بعد مصر ، وكانت الشام تخضع لنفوذ حكام مصر في العصرين الطولوني والاخشيدي، وكان الاخشيديون قد حاولوا بعد أن فقدوا مصر أن يحتفظوا بالشام ، ولكن جوهراً الصقلي بعث جيشاً بسط السيادة الفاطمية على الشام . وكانت دمشق أكثر مدن الشام مقاومة للفاطميين . ولكن جعفر بن فلاح القائد الفاطمي نجح في اخماد حركة المقاومة ، وخطب للخليفة الفاطمي على منابر الشام في محرم سنة ٣٥٩ ه بدلاً من الخليفة العباسي [1] .

كان جعفر بن فلاح قاسياً في معاملته لأهل الشام ، فكرهوه وكرهوا بالتالي الحكم الفاطمي ، ورأوا أن يستنجدوا بقوى خارجية تخلصهم من الفاطميين ، فاستنجدوا بكل من القرامطة وأفتكين زعيم الأتراك .

---

١ – المقريزي : اتعاظ الحنفا ص ٨١ – ٨٣ .

وكان الحسن بن أحمد القرمطي وأنصاره في البحرين يتمنون مد سلطانهم الى بلاد الشام ، وكانوا يغيرون على بلاد الشام في عهد الاخشيديين مما اضطر الاخشيديين أن يؤدوا إتاوات سنوية الى القرامطة . وقطع جعفر ابن فلاح هذه الإتاوة مما أثار سخط القرامطة ، فأعلنوا ولاءهم للخليفة العباسي وذكروا اسمه في الخطبة ، كما أعلنوا عداءهم للفاطميين ، ولذا استجابوا لطلب أهل الشام النجدة منهم للخلاص من الفاطميين .

تقدم القرامطة نحو بلاد الشام ، واشتبكوا مع القائد الفاطمي جعفر ابن فلاح في صراع عنيف ، وكان جوهر الصقلي يحقد على ابن فلاح فلم يرسل له الأمداد ، وانتهى القتال بهزيمته ومصرعه ، واحتل القرامطة دمشق ، ودعوا في الخطبة على منابرها للخليفة العباسي . وزحف القرامطة نحو مصر ، قلب الدولة الفاطمية ، في ربيع الأول سنة ٣٦١ هـ واقتربوا من القاهرة ، ولكن جوهراً الصقلي نجح في صدهم فانسحبوا الى الاحساء ببلاد البحرين(١) .

ولما قدم الخليفة الفاطمي المعز لدين الله من المغرب الى مصر ، بعث برسالة الى الحسن زعيم القرامطة ، يذكره باخلاصه القديم للمذهب الفاطمي والفاطميين ويهدده ويتوعده ان لم يعدل عن سياسته العدائية . ولكن الحسن لم يعبأ بالتهديد ، وأعاد محاولة غزو مصر سنة ٣٦٣ هـ ، ولكن المعز نجح في صده فانسحب بجيشه الى بلاد الشام .

كان أهل الشام قد استنجدوا بالقرامطة ، كما استنجدوا بأفتكين الذي كان يتولى زعامة الأتراك من قبل في بغداد . ونجح أفتكين في الاستيلاء على دمشق ، ودعا للخليفة العباسي الطائع على منابرها سنة ٣٦٤ هـ . وتشجع البيزنطيون لما لمسوه من اضطراب أحوال الشام ، فحاولوا غزو

---

١ – المقريزي : اتعاظ الحنفا ص ٥٢٠ .

الشام ، ولكن أفتكين نجح في اقناعهم بالعدول ببذل الأموال ، وتحالف أفتكين مع القرامطة ضد الفاطميين ، فترك القرامطة له دمشق واكتفوا بالسيطرة على يافا وصيدا وعكا[1] .

ما كاد الخليفة الفاطمي العزيز يتولى الخلافة بعد أبيه المعز ، حتى حاول إعادة بسط النفوذ الفاطمي على الشام ، فحاول استمالة أفتكين واقناعه بتسليم دمشق للفاطميين مقابل أموال طائلة ، فرفض أفتكين هذا العرض ، فاضطر العزيز الى انفاذ قائده جوهر الصقلي على رأس جيشه ، وشعر أفتكين بضعفه فأراد الاستنجاد بالقرامطة ، مما أثار مخاوف جوهر فاضطر الى عقد الصلح مع أفتكين على أن ينسحب الجيش الفاطمي من دمشق . ولكن القرامطة هرعوا الى الشام ، ونقض أفتكين الصلح وحاصروا جميعاً جوهراً الصقلي في عسقلان ، ولجأ جوهر الى المكيدة ، فاستمال أفتكين اليه ، ونجح في الخلاص من الحصار وانسحب الى مصر .

خرج الخليفة العزيز بنفسه ، وحاول استمالة أفتكين اليه مرة أخرى دون جدوى ، فاضطر الى قتال أفتكين والقرامطة ونجح في هزيمتهما سنة ٣٦٨ هـ ، وهرب الحسن القرمطي ، وأسر أفتكين وعفا العزيز عنه . وكان نجاح العزيز خطوة نحو عودة السيادة الفاطمية الى الشام ، ولكن جوهراً الصقلي اضطر للخروج مرة أخرى لتوطيد دعائم النفوذ الفاطمي[2] .

ظل الخليفة العباسي يترقب صراع الفاطميين والقرامطة وأفتكين ، متمنياً اخفاق أعدائه الفاطميين ، ولكنه لم يستطع أن يحرك ساكناً فقد كان بنو بويه أصحاب السلطة الحقيقية في الدولة العباسية . ورغم أن بني بويه كانوا من الشيعة ، الا أنهم وقفوا من الفاطميين موقفاً عدائياً ، فقد خشوا

---

١ – ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٢١٨ .
٢ – ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦ – ١٨ .

انهيار نفوذهم في العراق ، ولذا ساعد البويهيون القرامطة خلال قتالهم للفاطميين ، ولولا خوف البويهيين على نفوذهم السياسي لحولوا الخلافة الى العلويين إذ كانوا يفضلون الفاطميين على العباسيين من الناحية المذهبية ، لذلك نرى سلاطين بني بويه على اتصال بالفاطميين ، حتى انهم سمحوا لدعاتهم بنشر عقائد المذهب الفاطمي على البلاد التي خضعت لنفوذ بني بويه[1] .

حرص الخليفة الفاطمي العزيز على توثيق صلاته ببني بويه ، فبعث الى عضد الدولة سلطان بني بويه في بغداد برسالة ودية يشيد فيها باخلاصه وولائه للدولة الفاطمية . ورد عضد الدولة برسالة رقيقة يعلن فيها طاعته للخليفة الفاطمي ، وكان الخليفة العباسي الطائع على دراية بتبادل الرسائل بينهما ، ولكنه كان من الضعف بحيث لا يستطيع أن يعمل شيئاً[2] .

وفي عصر الخليفة الفاطمي الحاكم ، والخليفة العباسي القادر ، أعلن بهاء الدولة السلطان البويهي ولاءه للفاطميين ، مما أدى الى نشوب عداء شديد بينه وبين القادر . ولكن ولاء البويهيين كان نظرياً فلم يتخذ شكلاً عملياً فقد حرصوا على نفوذهم السياسي ، وبدا هذا واضحاً حينما أبدى بهاء الدولة سخطه على أحد القواد الذين سيطروا على الموصل والأنبار والمدائن والكوفة وخطب للخليفة الفاطمي ، فقد بعث بهاء الدولة جيشاً أرغمه على اعادة الخطبة للخليفة العباسي .

ورأى الخليفة العباسي القادر ان يضع حداً للدعوة الفاطمية في بلاد العراق ، وان كان قد أخفق في استخدام سيفه ، فليلجأ الى اللسان . فبدأ حملة دعاية ضد الفاطميين ، فلجأ الى التشهير بهم ، والتشكيك في نسبهم الى علي بن أبي طالب وفاطمة بنت محمد ، فبدأ ما يسميه المؤرخون « محاضر

---

١ — حسن ابراهيم : الدولة الفاطمية ص ٢٢٦ .
٢ — انظر الرسائل في النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٢٤ .

المجالس العباسية » ، وأمدنا المؤرخ أبو المحاسن بالكثير من التفاصيل عنها [1] .

رأى الفاطميون ازاء تلك السياسة التي اتبعها العباسيون للتشهير بهم أن يضاعفوا من جهودهم في نشر دعوتهم ، وصادفوا كثيراً من النجاح في هذا السبيل ، فلقيت الدعوة الفاطمية تأييداً كبيراً عند الديالمة في فارس على يد الداعي المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي الذي قام بدور هام في نشر الدعوة للخليفة المستنصر بالله الفاطمي في بلاد الفرس والعراق واستطاع بسياسته أن يجذب الملك أبا كاليجار البويهي الى هذه الدعوة [2] .

واتت الفاطميين فرصة ذهبية حين وقع الخلاف بين الخليفة العباسي القائم بأمر الله ، وزعيم الأتراك أبي الحارث أرسلان البساسيري ، الذي نجح في السيطرة على بغداد منتهزاً فرصة انشغال طغرلبك أول سلاطين السلاجقة في اخماد بعض الفتن . ودخل البساسيري بغداد في ٨ من ذي القعدة سنة ٤٥٠ هـ يحمل الرايات الفاطمية ، وحاول الخليفة العباسي وأنصاره من السنيين مقاومة البساسيري دون جدوى ، وأصبحت الخطبة للخليفة الفاطمي المستنصر على منابر بغداد ، وقبض البساسيري على الخليفة العباسي وسجنه ، وأعلنت القاهرة ابتهاجها فأقام أهلها الزينات . ولكن الخليفة المستنصر وقف في تأييده للبساسيري عند هذا الحد ، فلم يبعث له بحاجته من المال والأمداد فقد خوفه بعض خاصته من اتساع نفوذ البساسيري . ولكن البساسيري لم يتحول عن اخلاصه ، ومضى يسيطر على مدن العراق وخاصة واسط والبصرة [3] .

رأى الخليفة العباسي الاستنجاد بالسلاجقة ليخلصوه من البساسيري داعية الفاطميين ، فاستجاب طغرلبك لندائه ، وزحف الى بغداد ونجح

---

١ – النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٢٢٩ – ٢٣٠ .
٢ – جمال سرور : مصر في عصر الدولة الفاطمية ص ١٤٤ .
٣ – ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٢٢٥ .

في قتل البساسيري أواخر سنة ٤٥١ هـ ، وأعاد الخطبة للخليفة القائم بأمر الله العباسي . ولكن الخليفة وقع منذ ذلك الحين تحت سيطرة السلاجقة واضطر الخليفة العباسي الى الرضوخ للأمر الواقع ، فقد شن السلاجقة حرباً عنيفة على الفاطميين ، فبدأوا يستعيدون ما انتزعه الفاطميون من الأراضي العباسية ، ونجحت جيوش السلاجقة سنة ٤٦٧ هـ في إعادة الخطبة للخليفة العباسي المقتدي بدلاً من الخليفة الفاطمي المستنصر في دمشق ، بل حاول السلاجقة غزو مصر ولكن بدراً الجمالي وزير المستنصر صدهم سنة ٤٧٠ هـ . وفي نفس الوقت تتبع السلاجقة الدعاة الفاطميين في بلاد فارس والعراق والشام وقضوا عليهم .

انشغل الخليفة الفاطمي المستنصر بالمشاكل الداخلية عن صراعه مع الدولة العباسية ، وعن محاولة إعادة نفوذه الى الشام والعراق ، فقد انخفض ماء النيل وعانت مصر من المجاعات والأوبئة . كما انقسمت طائفة الاسماعيلية الى عدة فرق ، وقام صراع عنيف بينها شغلها عن الاستمرار في الدعوة الفاطمية ، ثم ظهر محمود نور الدين بن زنكي واستولى على دمشق وحلب ، وقدم الصليبيون فاستولوا على المدن الساحلية في فلسطين .

العلاقات بين الخلافة الفاطمية والخلافة الأموية بالأندلس :

تحدثنا عن العداء التقليدي العنيف بين البيت الهاشمي والبيت الأموي في العصر الجاهلي وصدر الاسلام . وقد استطاع بعض أبناء البيت الأموي الفرار من قبضة العباسيين فهربوا الى الأندلس حيث نجحوا في اقامة دولة أموية . ثم قامت الدولة الفاطمية في بلاد المغرب على مقربة من بلاد الأندلس ، قام بانشائها جماعة تنتسب الى فاطمة بنت الرسول أي من الهاشميين ، ولذا نتوقع أن ينشب العداء بين الأمويين والفاطميين ، باعتباره حلقة من سلسلة طويلة من العداء بين البيتين الأموي والهاشمي ، وكان

اختلاف المذهب الديني بين البيتين والدولتين يزيد نار العداء اشتعالاً .

واجهت الدولة الفاطمية في افريقية بعد أن أعلن عبد الرحمن الناصر الأموي نفسه خليفة بالأندلس سنة ٣١٧ ﻫ (٩٢٩ م) عداء الخلافة العباسية بالمشرق والخلافة الأموية بالأندلس ، فعملت على اضعاف شأن كل منهما حتى تنفرد بزعامة العالم الاسلامي . وتحقيقاً لهذه الغاية ولت وجهها شطر المشرق لاستخلاص أراضيه من الدولة العباسية . أما عن المغرب ، فبعثت بدعاتها وقوادها لتوطيد نفوذها في بلاده ، ولاقت في هذا السبيل كثيراً من المتاعب بسبب انصراف بعض أهالي بلاد المغرب عنهم وانحيازهم الى الأمويين بالأندلس(١) .

بدأ الصراع بين الأمويين والفاطميين في عصر الخليفة الفاطمي المعز فكان الأسطول الأندلسي يغير على موانىء الفاطميين ، وواجه الخليفة الفاطمي الموقف فبنى أسطولاً قوياً نجح في صد الأسطول الأموي ، فلجأ الأمويون الى سلاح الدعاية والتشهير بالفاطميين ، فكانوا يلعنون الفاطميين على المنابر .

تبادل الخليفة الفاطمي العزيز والخليفة الأموي المستنصر رسائل هجاء وسباب . وبعث الحكم جيشاً غزا المغربين الأقصى والأوسط ، وخطب له على منابرهما بدلاً من الخليفة الفاطمي ، وقضى على نفوذ الأدارسة في بلاد الريف(٢) .

واستمر العداء بين الدولتين الأموية والفاطمية في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله ، واتخذ صورة ثورة قام بها أبو ركوة الذي ينتسب الى هشام بن عبد الملك بن مروان الأموي ، نزح الى برقة ، ثم دعا لعمه

---

١ — جمال سرور : مصر في عصر الدولة الفاطمية ص ١٥٢ .
٢ — ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٦ .

هشام بن الحكم المستنصر الأموي بالأندلس ، والتف حوله كثير من الأنصار ، وزحف على رأس جيش كثيف وسيطر على أرجاء برقة ، وسك عملة جديدة ، وهزم جيشاً للحاكم الفاطمي ، وشعر الحاكم بخطورة الموقف فأعد جيشاً كبيراً لقتال أبي ركوة ، وعهد بقيادته الى القائد التركي ينال الطويل ، ولكن غالبية الجند كانت من الكتاميين البربر فلم ترض عن هذا القائد التركي ، ولذا لحقت الهزيمة بالجيش الفاطمي ، ولقي ينال حتفه ، وبدأ أبو ركوة يستعد لغزو مصر ، وأسرع الحاكم الفاطمي باعداد جيش آخر كثيف ، معظم جنده من الشاميين والحمدانيين ، وانتهى الصراع بمصرع أبي ركوة وثلاثين ألفاً من جنده [1] .

مميزات الخلافة الفاطمية :

كانت الخلافة الفاطمية التي قامت بالمغرب في أواخر القرن الثالث الهجري نتيجة لذلك الصراع العنيف بين السنيين والشيعيين . فقد ظل العلويون يعتقدون أنهم أحق بزعامة المسلمين ، لأنهم أولاد علي ابن عم الرسول وزوج ابنته فاطمة . وظل هؤلاء العلويون يناضلون في سبيل هذه الزعامة ، بالسيف تارة وبالمكيدة والدهاء تارة أخرى ، حتى تُوِّجت جهودهم بقيام الخلافة الفاطمية في المغرب ، التي أصبحت تنافس الخلافة العباسية في المشرق [2] .

قلدت الدولة الفاطمية الدولة العباسية في نظام حكومتها وسائر شئونها الا في ما يتعلق منها بالدين فانهم أيدوا كل ما يوافق مذهب الشيعة من ايثار العلويين وتقديمهم والعمل بأقوال أئمتهم . فألف يعقوب بن كلس

---

١ – أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢١٥ – ٢١٧ .
٢ – حسن ابراهيم : الدولة الفاطمية ص ٢٦٤ .

وزير العزيز بالله الفاطمي كتاباً يتضمن الفقه على ما سمعه من المعز لدين الله وابنه العزيز بالله ، وبوّبه على أبواب الفقه ، فبلغ حجمه نصف حجم صحيح البخاري ، وهو يشتمل على فقه الطائفة الاسماعيلية . وقد بذلت الدولة الفاطمية جهدها في نشر هذا الفقه بين المسلمين ، حتى كان الوزير المشار اليه يجلس بنفسه لقراءة هذا الكتاب على الطلبة ، وبين يديه خواص الناس وعوامهم وسائر الفقهاء والقضاة والأدباء ، وجعله مرجع القضاء في الفتوى ، وأفتى الناس به ودرسوه في جامع عمرو . وعمل الخلفاء على ترغيب الناس في حفظه بالبذل والعطاء ، وأجلسوا أناساً في قصر الخلافة لقراءة علوم أهل البيت على الناس ، لأنه بانتشار ذلك المذهب تتأيد تلك الدولة لارتباط السياسة بالدين [1] .

قامت الخلافة الفاطمية على أساس فكرة تقديس الامام وعصمته ، ولذا خلع الشيعيون على خلفائهم من صفات التقديس ما لم يوصف به خلفاء بني العباس . ولكي يحيط الخلفاء الفاطميون أنفسهم بهالة من التقديس ، عمدوا الى تأسيس المدارس الخاصة لتعليم عقائد المذهب الذي يقوم على تقديس الأئمة . وكان من أثر هذه الجهود أن راجت فكرة تقديس الأئمة في كثير من أرجاء العالم الاسلامي كمصر واليمن وفارس والهند ، بل انتشرت بين الأمويين السنيين في الأندلس [2] .

لقيت نظرية الحق الملكي المقدس التي كانت سائدة في بلاد الفرس في عهد آل ساسان ، والتي أخذها عنهم الخلفاء العباسيون فيما بعد ، قبولاً عند الخلفاء الفاطميين وأصبح الامام في نظر الناس ، ظل الله في الأرض ، كما أصبح شخصاً مقدساً ، حتى لقد تعرض الناس للموت إذا أظهروا سخطاً أو تذمراً أو قاوموا أوامر الخليفة ونواهيه ، لأنها صادرة

١ – جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ٤ ص ٢٣٢ .
٢ – دوزي : المسلمون في اسبانيا ص ٤٠٦ .

من الله الذي أملاها على الامام المعلم ، لأنه تلقى علمه من الله عن طريق الوحي .

وحرص الخلفاء الفاطميون على أن يحيطوا خلافتهم بالعظمة والأبهة التي كانت تتمثل في الاحتفال بصلاة الجمعة ، وفي توديع الحملات الحربية ، والاحتفال بالعيدين ، ووفاء النيل .

كان الخلفاء الفاطميون يلقبون بألقاب كثيرة منها : الخليفة الفاطمي أو العلوي وأمير المؤمنين . ومن الألقاب المحببة الى الاسماعيلية لقب إمام الزمان وصاحب الزمان والسلطان والشريف القاضي . وكان السنيون يطلقون عليهم « العبيديين » نسبة الى عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين كما كان يطلق عليهم « العلويون » نسبة الى علي بن أبي طالب ، و «الفاطميون» نسبة الى فاطمة الزهراء .

حذا الفاطميون حذو الأمويين والعباسيين في تولية أبنائهم العهد . فكان الخليفة اذا شعر بدنو أجله يعهد بالخلافة الى أحد أبنائه ، ثم تتجدد هذه البيعة بعد وفاته . وكثيراً ما كان الخليفة الجديد يسرّ موت أبيه إذا وجد ما يهدد ملكه . ولما تطرق الضعف الى الخلافة الفاطمية في عهد المستنصر أصبح اختيار الخليفة بيد القواد وغيرهم من كبار رجال الدولة فلم يراعوا في اختياره أن يكون أكبر أبناء أبيه . ونظر الفاطميون الى الخليفة الفاطمي باعتباره اماماً يرث أباه عن طريق التعيين بالنص ، وأنه لا بد أن يعين الخليفة أو الامام ولي عهده قبل وفاته حتّى لا يخلو العالم من امام ، وكان لهذه الطريقة ميزاتها اذا كان ولي العهد كبير السن واسع التجربة كفئاً للمنصب الخطير[1] .

نافست الخلافة الفاطمية الخلافة العباسية وتفوقت عليها ، وبسطت

---

١ – حسن ابراهيم : الدولة الفاطمية ص ٢٦٧ .

سلطانها على البلاد الممتدة من المحيط الأطلسي غرباً الى نهر الفرات شرقاً ومن آسيا الصغرى شمالاً الى بلاد النوبة جنوباً، كما امتد نفوذها على جزيرة صقلية وعلى بلاد الحجاز ، واعترف بنفوذها الروحي كل من اليمن والموصل وبلاد ما وراء النهر، ودعي لخليفة مصر على منابر هذه البلاد .

يقول (ريني داسو René Dassaud) في كتابه « النصيرية ومذهبهم الديني » : كان عهد الفاطميين عهد رخاء لمصر ، كما كان عهد تسامح ديني لم ير مثله الا في القليل النادر من عصور التاريخ الاسلامي ، وقد نافست مكتبة القصر في القاهرة مكتبات بغداد وقرطبة وغيرهما ، وفاقت مدينة القاهرة في العهد الفاطمي غيرها من المدن الاسلامية في العظمة والجلال ، واعتبرها المسلمون بحق المركز الرئيسي للعالم الاسلامي .

نجح الخلفاء الفاطميون في تأسيس امبراطورية شاسعة الأرجاء ، وحضارة باهرة لم يعرفها الشرق من قبل الا نادراً ، تلك الحضارة التي اشتهرت بنظمها الادارية المحكمة ، وفنونها وجيوشها وأساطيلها .

الحكومة الفاطمية :

شملت الحكومة عدة دواوين أشهرها ديوان الجيش ، وديوان الكسوة والطراز ويتولاه أحد كبار الموظفين من أرباب الأقلام ، وديوان الأحباس ويشبه وزارة الأوقاف اليوم ، وديوان الرواتب ، ومن كبار الموظفين صاحب الانشاء والمكاتبات ويرأس ديوان الانشاء ، ومنهم أيضاً أمير الباب أو الوزير الصغير ويقوم بتقديم السفراء الى الخليفة ، ومنهم قاضي القضاة ويشرف على القضاء والسكة ، ومنهم داعي الدعاة ويشرف على الدعوة الفاطمية وعلى العلم ، ومنهم المحتسب ووظيفته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومن كبار الموظفين أيضاً صاحب بيت المال ويشبه وزير المالية اليوم ، ومنهم صاحب الرسائل ، ومنهم أيضاً صاحب المظلة ،

وحامل السيف ، وحامل الرمح ، وحامل الدواة ، ووالي القاهرة ، ووالي مصر أي الفسطاط .

انقسمت مصر في العصر الفاطمي الى أربع ولايات كبيرة هي : ولاية قوص ويحكم متوليها جميع بلاد الصعيد ، وولاية الشرقية وتشمل الأراضي شرقي فرع دمياط ، وولاية الغربية وتشمل الأراضي بين فرعي رشيد ودمياط من الشمال الى الجنوب . أما الولاية الرابعة فهي ولاية الاسكندرية ، ويضاف اليها البحيرة. وقد منحت الحكومة الفاطمية كل وال من ولاة هذه الأقاليم الأربعة الحرية في تعيين العمال على المدن والنواحي والقرى الداخلة في نطاق ولايته ، كما أجازت لهم العناية بمرافق أقاليمهم دون الرجوع اليها . وكان على القاهرة وال ، كما تولى الفسطاط وال آخر ، وتمتع كل منهما بمركز ممتاز عند الخليفة ، غير أن مرتبة والي القاهرة كانت أعلى من مرتبة والي الفسطاط ، كذلك كان لكل من تنيس وعيذاب وال يحكمهما لأهميتهما التجارية[1] .

حرص الفاطميون على اختيار أحسن الموظفين خبرة ودراية ، واهتموا بتدريبهم وتنمية مداركهم ، كما أغدقوا عليهم المرتبات الى جانب الملابس والصلات في المواسم والأعياد ولذا أدوا واجبهم على أحسن وجه .

كان قاضي القضاة يتولى شئون القضاء في الدولة الفاطمية ، وكان من الشيعة دائماً ، ويقوم بتولية نوابه من القضاة في جميع مدن مصر الذين يفصلون في القضايا وفقاً للمذهب الشيعي . والى جانب هؤلاء القضاة الشيعيين كان هناك بعض القضاة الشافعيين والمالكيين ، وخاصة في العصر الفاطمي الثاني . وكان القضاة ينظرون في القضايا المدنية والجنائية والشرعية الى جانب امامة الصلاة . وأشهر القضاة الفاطميين علي بن النعمان قاضي

---

١ – جمال سرور : مصر في عصر الدولة الفاطمية ص ١٨٦ .

الخليفة العزيز وكان أول من تلقب بقاضي القضاة [1] ، وكان المحتسب يعاون القاضي في وظيفته ، فكان يشرف على الأسواق والنظام العام والآداب والنظافة والمباني والموازين والمكاييل وما الى ذلك .

قبل الفتح الفاطمي لمصر كانت الشرطة تنقسم الى : الشرطة السفلى ومقرها الفسطاط ، والشرطة العليا ومقرها العسكر . فلما قدم جوهر الصقلي وفتح مصر وبنى القاهرة واتخذها عاصمة للدولة الفاطمية ، نقل الشرطة العليا من العسكر الى القاهرة . ثم قسم الفاطميون الشرطة الى الشرطة العليا ومقرها القاهرة ، والشرطة السفلى ومقرها الفسطاط ، وكانت القاهرة لا تزال محدودة المساحة بالنسبة الى الفسطاط ومعظم سكانها شيعة .

وضع الخليفة المعز لدين الله الفاطمي عند قدومه الى مصر أواخر سنة ٣٦٢ هـ نظماً جديدة للضرائب ، وتقدير الأملاك ، فزادت قيمة الضرائب المجموعة من الأهالي دون شكوى منهم ، واهتمت الحكومة بتنظيم سجلاتها وأمرت جباتها بحسن معاملة الأهالي .

كانت الدولة الفاطمية من الدول الحربية التي اهتمت بجيوشها ، لتحقيق أطماعها ، والدفاع عنها ضد اعدائها الكثيرين . وكان الجيش الفاطمي يتكون من الأمراء ورؤساء الحرس والجنود . ولكل من هؤلاء الطبقات مرتبة لا يتجاوزها الى غيرها من ينتظم في سلكها ، فالأمراء كانوا يتدرجون في مراتب الرقي ، فيبدأ الأمير برئاسة خمسة جنود ثم عشرة ثم أربعين ثم ثمانين ثم مائة جندي . أما رؤساء الحرس فانقسموا الى أساتذة وكانت بأيديهم المناصب الحربية الهامة في الدولة ، ورجال الحرس من الشبان وعددهم خمسمائة وينتخبون من الأسر الرفيعة ، وحراس القصر وعددهم خمسة آلاف [2] .

---

١ — القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٥ .

٢ — علي ابراهيم : مصر في العصور الوسطى ص ٣٧٧ .

كون الفاطميون جيشهم من عدة أجناس لم يكن بعضها معروفاً في مصر ، وكان المعز بعد استقراره في مصر يعتمد على المغاربة وكان معظم هؤلاء من البربر وخاصة الكتامية والمصامدة والجودرية والباطلية . ولما تولى الخليفة العزيز بالله الخلافة استخدم الأتراك والديلم ، ثم ظهر عنصر السودان في الجيش في عصر الحاكم ، وزاد عددهم في عهد المستنصر حتى بلغوا خمسين الفاً . وأدى تعدد العناصر والأجناس الى قيام التنافس والصراع بين طوائف الجند ، وخاصة بين الأتراك والسودانيين[1] . ومن العناصر الأجنبية العنصر الأرمني الذي جلبه بدر الجمالي من الشام ، وزاد عدد الأرمن في عهد بهرام الأرمني ، كما أتى الأكراد مع شيركوه وصلاح الدين .

وصف الرحالة ناصر خسرو الجند الفاطميين ، فذكر أن الجند كانوا يسيرون في صفوف منتظمة فصيلة تلو فصيلة ، فيسير في المقدمة البربر ويليهم المغاربة ، ويسير خلف هؤلاء وأولئك الأتراك والفرس ويطلق عليهم اسم المشرقيين ، ويتبعهم الحجازيون والسودان وكان يطلق عليهم عبيد الشراء .

كانت فرق الجند تسمى باسم أحد الخلفاء أو الوزراء أو تبعاً للعنصر ، مثل الحافظية وتنتسب الى الخليفة الحافظ ، والآمرية وتنتسب الى الخليفة الآمر ، والجيوشية نسبة الى بدر الجمالي أمير الجيوش ، والأفضلية نسبة الى الأفضل بن بدر الجمالي ، وهناك الفرق السودانية ، والصقلية ، والتركية ، والحجازية ، وما الى ذلك . واهتم الخلفاء بتوديع الحملات العسكرية عند خروجها الى القتال ، فكان الخليفة يجلس في منظرة باب الفتوح يستعرض جيشه ومؤنه ويعطي إشارة بدء الزحف .

---

١ - جمال سرور : مصر في عصر الدولة الفاطمية ص ١٨٩ .

اهتم الفاطميون بانشاء أسطول قوي ، بعد تهديد البيزنطيين لبلاد الشام واستيلائهم على انطاكية وحلب . فأنشأ المعز وخلفاؤه السفن الحربية في الفسطاط والاسكندرية ودمياط ، وكانت السفن الفاطمية ترسو باستمرار في قواعدها بالشام في عكا وصور وعسقلان ، كما كانت عيذاب القاعدة الفاطمية على البحر الأحمر ، وأنشأ المعز داراً لصناعة السفن بالمقس بنى منها ستمائة سفينة .

تولى قيادة الأسطول الفاطمي عشرة قواد ، يرأسهم أمير الأسطول أو قائد القواد ، وكان كل قائد يتقاضى عشرين ديناراً شهرياً ، وكان للأسطول أوقاف كثيرة ينفق منها على مصالحه[1] . واشتهرت جزيرة الروضة ومدينة الاسكندرية بصنع السفن الحربية والتجارية ، وأبدى الأسطول براعة في المعارك التي اشترك فيها وخاصة مع البيزنطيين والقرامطة . ووصف الرحالة ناصر خسرو احدى سفن الخليفة المعز ، فذكر انها تبلغ ٢٧٥ قدماً طولاً ، و ١١٠ أقدام عرضاً .

اهتم الخلفاء الفاطميون بالاحتفال بخروج الأسطول الفاطمي للغزو احتفالاً كبيراً ، فيجلس الخليفة في منظرة على ساحل النيل بالمقس خارج القاهرة لاستعراض الأسطول ووداعه ، وتمر السفن أمامه وقد ازدانت بالرايات ، وتقوم السفن ببعض المناورات والاستعراضات . ويمثل القواد البحريون في حضرة الخليفة فيخلع عليهم ، ويأذن لهم بالرحيل .

عاش في مصر في العصر الفاطمي عدة طبقات من السكان ، فقد انقسم السكان من حيث الدين الى مسلمين وأهل ذمة ، وانقسم المسلمون بدورهم الى سنيين وشيعيين . وانقسم السكان أيضاً الى طبقات عنصرية ، فكان هناك المصريون السكان الأصليون وهم غالبية الشعب ، والى جانبهم

---

١ - مقدمة ابن خلدون ص ٢٢ .

طبقة المغاربة الذين قدموا مع الفاطميين من بلاد المغرب بعد الفتح الفاطمي لمصر وأصبحوا عماد الفاطميين في الجيش والحكومة. وكانوا كلهم من الشيعة. ثم طبقة الاتراك، وكانوا قد تكاثروا منذ اعتماد العباسيين عليهم في الحكم، وخاصة في العصر الطولوني. وهناك طبقة السودانيين التي ظهرت في عهد كافور الاخشيدي، وزاد عددهم في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي، فقد كانت أمه سودانية. وهناك طبقة الأرمن. وقد جلبهم بدر الجمالي من الشمال، وزاد عددهم في عهد وزارة بهرام الأرمني.

كان الفاطميون يحرصون على تحويل المصريين السنيين الى المذهب الشيعي، ولذا حرموهم من تولي المناصب والوظائف الكبرى. كما حرص الخلفاء الفاطميون على صبغ الدولة بالصبغة الشيعية، وخاصة في القضاء، واحتفلوا بالأعياد الشيعية مما أثار مشاعر السنيين، وخاصة في عصر الحاكم الذي أمر بنقش سب الصحابة على جدران المساجد وفي الأسواق والشوارع [1]. واضطر الحاكم ازاء سخط السنيين الى إصدار قوانين جديدة تطلق الحرية المذهبية، ونهى عن سب الصحابة، ولكن ظل الأذان الشيعي، ونظام الوراثة الشيعي [2].

كان موقف المصريين السنيين العدائي من الخلفاء الفاطميين سبباً لاعتماد كثير منهم على أهل الذمة. وتمتع أهل الذمة في معظم فترات الحكم الفاطمي بالتسامح والحرية الدينية. فقد تزوج الخليفة العزيز زوجة مسيحية فأحسن معاملة المسيحيين وعين أخويها بطريقين وولى عيسى بن نسطورس الوزارة، وأعاد بناء الكنائس، واحتفل بالأعياد المسيحية، وامتلأت دواوين الحكومة بالمسيحيين. بل ان الخليفة الحاكم الذي أنزل اضطهاده

---

١ – ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٦٦.
٢ – يجيز قانون الشيعة للبنت ان ترث كل ما تركه ابوها اذا كانت وحيدة أبويها رغم وجود ذوي العصبية.

بأهل الذمة ، قد احسن معاملتهم ابتداء من سنة ٤١١ هـ فقد أصدر قوانين تطلق لهم الحرية الدينية ورد لهم أوقافهم وسمح بتجديد الكنائس ، ومنحهم أماناً ، ومما يخفف من وقع الاضطهاد أنه شمل المسلمين أيضاً . وارتفع شأن كثير من أهل الذمة فتولوا الوزارة والمناصب الكبرى ، مثل يعقوب ابن كلس ، وعيسى بن نسطورس ، والتستري اليهودي ، وبهرام الأرمني ، وغيرهم .

تميزت الحياة الاجتماعية في مصر في العصر الفاطمي بالفخامة والعظمة ، وبالترف والبذخ ، مما لا نجده في مصر في سائر العصور ، وشمل هذا الترف الخلفاء والوزراء ورجالهم وسائر الشعب . فكان الخلفاء يمتلكون قصوراً قد يعجز القلم عن وصف روعتها وفخامتها ، فقد بنى الخليفة العزيز قصوراً عديدة رائعة تشهد بثراء مصر ورخائها وصف ابن خلكان[1] أحدها بأنه لا مثيل له في الشرق ولا في الغرب ، كما انشأ العزيز قاعة الذهب التي يجتمع فيها مجلس الملك . واهتم الخلفاء الفاطميون بوضع تقاليد خاصة للبلاط والاستقبالات ، فكان الوزراء وكبار الموظفين يقبلون أقدام الخلفاء ، كما كان سائر الناس يقفون عند سماعهم اسم الخليفة . واهتم الخلفاء ببناء المناظر ، يجلسون فيها لاستعراض الجيش والأسطول ، أو خلال الاحتفالات . كما اهتموا بانشاء البساتين والحدائق الغنـاء . وحاكاهم وزراؤهم وقوادهم .

كانت المواكب الفاطمية لا مثيل لها في التاريخ ، فكان الخلفاء يركبون في الجمع الثلاث الاخيرة من رمضان الى جوامع الحاكم والأزهر وعمرو على التوالي للصلاة ، ويلقون بالدنانير على الجماهير المحتشدة على الجانبين ، حيث يقف القراء يتلون القرآن ، وكان الخليفة يرتدي ثياباً بيضاء ويحمل

---

١ - وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٥٢ .

قضيب الملك ، ويحيط به حرسه ، وتدق الطبول والصنوج .

كما اهتم الفاطميون بالاحتفال بالأعياد الدينية وخاصة عيدي الفطر والأضحى ، ورأس السنة الهجرية ، ومولد الرسول ، ومولد علي بن أبي طالب والحسن والحسين وفاطمة ، ويوم عاشوراء ، وأول رجب وليلة نصفه ، وليلتي أول شعبان ونصفه . وكان الشعب المصري يستقبل هذه المواسم بمظاهر السرور والابتهاج ، عدا يوم عاشوراء ، ذكرى مقتل الحسين ، فقد كان يعتبر يوم حزن عام ، تغلق فيه الأسواق ، ويخرج المنشدون الى الجامع الأزهر يرثون الحسين ، ويقام سماط الحزن ، من خبز الشعير والعدس والجبن . وكان الاحتفال بوفاء النيـــل من أعظم الاحتفالات المصرية الوطنية التي يشترك فيها جميع الشعب على اختلاف أديانهم ومذاهبهم ، وحرص الخلفاء على حضور هذا الاحتفال . كما حرص الخلفاء على اقامة الولائم ، في المساجد أو في دار الوزير ، أو في قاعة الذهب . وكان الخليفة المعز أول من بدأ هذه العادة . وأشهر الولائم ما كانت تقام في رمضان ، ولكل طبقة من الموظفين والأعيان يوم معين ، ومن أشهر الولائم ايضاً ولائم عيدي الفطر والأضحى ، ويدعى اليها جميع طبقات الشعب . وتحفل الولائم بكثير من ألوان الطعام أسهب في وصفها القلقشندي [1] .

حفلت مصر في العصر الفاطمي بالمجالس الاجتماعية وخاصة مجالس الموسيقى والغناء . وأشهر هذه المجالس ما كانت تقام على شواطىء الخليج المصري في القاهرة .

---

١ – انظر صبح الأعشى جـ ٣ ص ٥٣٤ .

٨ . الخلافة الأموية في بلاد الاندلس

قيـــام الامارة الأموية في قرطبة :

كان غروب شمس الخلافة الأموية في دمشق الشام على يد العباسيين إيذاناً بشروق شمس الخلافة الأموية من جديد في قرطبة بالأندلس . فقد بدأ العباسيون عهدهم بانزال القتل والتعذيب بالأسرة الأموية ، واستطاع عدد قليل منهم الهرب الى بعض الأمصار الاسلامية النائية ، وكان من بين هؤلاء عبد الرحمن بن معاوية وهو حفيد هشام عاشر خلفاء دمشق ، فقد استطاع أن يستولي على المدن الأندلسية مدينة بعد مدينة ، وكون امارة أموية مركزها قرطبة [١] .

حكم عبد الرحمن أولاً باسم الدولة العباسية ، وخطب بها للمنصور نحو سنة ، ولم يجسر في بادىء الأمر على انشاء خلافة أخرى ، مع وجود الخلافة العباسية ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم واحد وخليفته واحد .

---

١ - ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ١٩٨ — ٢٠٠ .

وكان لعبد الرحمن ابن عم يقال له عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم شديد العصبية للأمويين واسع الأمل في ارجاع خلافتهم ، وكانوا يسمونه شهاب آل مروان لشجاعته وسرعة فتكه ، وقد حارب في نصرة ابن عمه حروباً ثبتت له بها الدولة ، فحرضه على قطع الخطبة للخليفة العباسي ، ولما شعر بتردده صاح به : « اقطعها والا قتلت نفسي »[1] فقطعها ولكنه لم يجسر أن يسمي نفسه خليفة ، فكانوا يسمون الأمويين بالأندلس « الأمراء » .

وحدث أن المنصور ، الخليفة العباسي في بغداد ، أهان مالك بن أنس إمام المدينة ، لما علمه من افتائه بخلع المنصور ، لأنه كان قد بايع للعلويين ، فاغتنم الأمويون نقمة مالك عليه وقربوه منهم وأكرموه ، فانتفع كل منهما بصاحبه ، فالأمويون رأوا فيه اماماً كبيراً ينصر دعوتهم او يؤيدها من حيث الدين ، ويطعن في خلافة بني العباس ، ورأى مالك في الأمويين ملجأ كبيراً وتعزية لما ذاقه من شدة بني العباس . فشاع مذهب مالك في الأندلس من ذلك الحين وكانوا قبلاً على مذهب الأوزاعي مثل أهل الشام[2] .

أبدت الدولة العباسية في بغداد عدم ارتياحها لقيام امارة أموية قوية في الأندلس . ورغم كراهية الخليفة العباسي الثاني أبي جعفر المنصور لعبد الرحمن (الملقب بالداخل) الا أنه كان يحترمه ويعجب بجهوده ويسميه (صقر قريش)[3] ، وحاول المنصور أن يغري (بين Pepin) ملك الفرنجة على أن يحالفه ضد عبد الرحمن دون جدوى[4] ، واستمر المهدي

---

١ – المقري : نفح الطيب ج ٤ ص ٥٩ .
٢ – جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ٤ ص ٢٢٢ .
٣ – المقري ، نفح الطيب ج ١ ص ١٥٦ .
٤ – Muir : The Caliphate, P. 460 .

الخليفة العباسي الثالث على عداء عبد الرحمن ، واستفاد شارل مارتل ملك الفرنجة من عداء العباسين والأمويين ، فتقرب الى المهدي ، ليكتسب شيئاً من النفوذ في بلاده ، ويهدد بذلك منافسه الامبراطور البيزنطي ، واستمر شرلمان على صداقته لهارون الرشيد فتحالفا ضد الامبراطور البيزنطي .

اعتمد عبد الرحمن الداخل في بداية حكمه على الموالي البربر . فكما غدر العباسيون بالمشرق بمن ساعدوهم على إقامة الدولة العباسية ، مثل أبي سلمة وابن كثير وأبي مسلم الخراساني ، فقد غدر الأمويون بالأندلس بمن أعانوهم على خلق الامارة الأموية ، فقد قتل عبد الرحمن أبا الصباح ابن يحيي زعيم العرب اليمانية ، وكان من العمد التي قامت عليها الامارة ، وهبت اليمانية تطلب ثأر زعيمها ، فأعمل عبد الرحمن فيهم القتل ، ورأى ألا يعتمد على العرب ويجد له أعواناً جدداً . فبعث الى ولاته يأمرهم بشراء الموالي من البربر ومن غيرهم من الأجناس ، حتى بلغ عدد جنده من هؤلاء الموالي ٤٠ ألف جندي . ثم بدأ عبد الرحمن في أواخر عهده يشتري آلافاً من الصقالبة ، واستمر خلفاؤه في شرائهم حتى زاد عددهم وغلبوا على الدولة .

بعد عبد الرحمن تولى ابنه هشام سنة ١٧٢ هـ وبدأت الاضطرابات في الدولة ، فقد ثار اخوته عليه ، كما اغار نصارى الشمال على الأطراف الشمالية بتشجيع من الفرنجة ، ثم تولى ابنه الحكم سنة ١٨٠ هـ وبدأ عهده بثورة أعمامه عليه والتجائهم الى الفرنجة ، واستمر نصارى الشمال والفرنجة في تهديد الدولة ، وقام الإسبان المسلمون بثورة كبيرة في قرطبة أخمدها الحكم بصعوبة . ثم خلفه ابنه عبد الرحمن الثاني سنة ٢٠٦ هـ ، فحفل عهده أيضاً بالاضطرابات ، فثار عليه عم أبيه عبد الله البلنسي ، وقام صراع عنيف بين المضرية واليمنية ، وثار أهل الذمة احتجاجاً على كثرة الضرائب ، وثار البربر بتحريض من الفرنجة ، ثم ظهر خطر جديد هو

الغزوات النورمانية البحرية .

وبعد وفاة عبد الرحمن سنة ٢٣٨ ﻫ خلفه ثلاثة من أمراء البيت الأموي وهم محمد الأول (٢٣٨ ﻫ) والمنذر (٢٧٣ ﻫ) وعبد الله (٢٧٥ ﻫ) ، وعلى الرغم من أن هؤلاء حكموا ٧٢ سنة إلا أنه لم يكن لهم أثر يذكر في تاريخ الأندلس ، بل قاست البلاد في عهدهم الذي تميز بخروج عمال الأقاليم ، وتوارث مسيحيي الشمال ، وانتشار روح العصيان ، الى أن تولى الامارة عبد الرحمن الثالث (٣٠٠ ﻫ) الملقب بعبد الرحمن الناصر.

قيام الخلافة الأموية في عهد عبد الرحمن الناصر :

تولى عبد الرحمن الناصر الامارة وبــلاد الأندلس « مضطربة بالمخالفين مضطرمة بنيران المتغلبين » [1] ، وكان شاباً في الثانية والعشرين من عمره فاستبشر الناس بتوليته لسمو أخلاقه وشخصيته . واستطاع أن يخمد الثورة في كل مكان واسترد ما فقده أسلافه من بلاد الأندلس في مدة لا تتجاوز عشرين سنة وأصبح نفوذه قوياً بين العرب والبربر والإسبان والمولدين ، ثم تفرغ لأعدائه الخارجين ، حيث كانت بلاد الأندلس يحيط بها الأعداء من كل جانب : فكان الفرنجة في الشمال يطمعون في توسيع أملاكهم جنوباً ، وكانت الامارات المسيحية في الاقاليم الجبلية الشمالية تهدد بلاده ، أضف الى ذلك منافسة الدولة العباسية في المشرق والدولة الفاطمية في المغرب .

شعر عبد الرحمن الناصر بقوته ، ووجد أن لقب « امير » الذي تلقب به أسلافه أصبح لا يناسب ما وصل اليه من قوة وعظمة ، وخاصة أن الخلافة العباسية أصابها ضعف شديد اذ سيطر الأتراك على الخلفاء العباسيين وأصبحت سلطة الخليفة العباسي لا تتعدى مدينة بغداد ، ورغم ضعف

---

١ — المقري ج ١ ص ١٦٦ .

الخليفة العباسي الا أنه كان لا يزال يستعمل هذه الألقاب الضخمة [1]. وأدرك الناصر الخطر الذي يهدد بلاده من ناحية الخلافة الفاطمية الشيعية في المغرب، ووجد أنه ليس أقل من العباسيين والفاطميين أثراً في الدفاع عن العالم الإسلامي ضد أوروبا المسيحيـة وفي شن الغارات ومطاردة المسيحيين في البلاد المتاخمة لبلاده[2]، ولهذه الاسباب كلها، رأى أن يعلن الناصر نفسه (خليفة) ويتلقب بلقب «أمير المؤمنين».

وفي سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) أمر عبد الرحمن الناصر باعلان الخلافة الأموية وخطب له على منابر قرطبة باعتباره (أمير المؤمنين)، وكتب الى ولاته بذلك[3]. وبذلك أصبح في العالم الاسلامي ثلاث خلافات: الخلافة العباسية في بغداد، والخلافة الفاطمية في المهدية، والخلافة الأموية في قرطبة، وأصبح الناصر لا يحفل بالنظرية القديمة التي تشترط السيادة على الحرمين لمن يدعي الخلافة وامرة المؤمنين.

استفاد عبد الرحمن الناصر من هذا التغيير الخطير في نظام الحكم، فظهر في نظر رعاياه بمظهر لا يقل عظمة عن الخلفاء العباسيين والفاطميين، أما في الخارج فقد تمتع بمركز ممتاز بين أمراء المسلمين في ذلك الحين بما أحرزه من انتصارات على الأوروبيين، حتى إن هؤلاء الأوروبيين، وعلى رأسهم (أوتو الأكبر) امبراطور المانيا، الذي أصبح فيما بعد امبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة، لجأوا اليه لوقف غارات عرب الغراكسينت[4].

أدخل عبد الرحمن الناصر اسم الله في اسمه، متشبهاً في ذلك بالعباسيين

---

١ — The Caliphate, P. 58

٢ — Dozy : The Moslems In Spain, P. 428

٣ — المقري : نفح الطيب ج ١ ص ١٥٦ .

٤ — حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٣ ص ٢٥٤ .

والفاطميين ، فتلقب (الناصر لدين الله) وسن بعمله هذا السنّة التي سار على نهجها أبناؤه من بعد ، فتسمى ابنه الحكم (المستنصر بالله) وتسمى حفيده هشام (المؤيد بالله) ، وهكذا .

وصف المقري [1] عبد الرحمن الناصر فقال : كـــان سلطانه أعظم ما كان وأعز ما كان الاسلام بملكه ، وعدد ستانلي لين بول [2] أعمال الناصر فقال : أنقذ عبد الرحمن الاندلس من نفسها وأعدائها ، ولم تكن قرطبة في عهد من عهودها أغنى ولا أكثر ازدهاراً مما كانت عليه في عهد الناصر ، فقد نشطت الصناعة وكثرت الخيرات وزادت سطوة القانون ، وتسابق الى أبواب الناصر الرسل من فرنسا والمانيا وايطاليا يعلنون تحياتهم وتمجيدهم . وكانت قوته وحكمته وثروة مملكته مضرب المثل في اوروبا وافريقية .

غروب الخلافة الأموية في الأندلس :

بعد الناصر ، تولى الحكم الثاني المستنصر (٣٥٠ ـ ٣٦٦ ﻫ) ، وقد أتاحت له فتوح أبيه وانتصاراته على أعدائه فترة من الهدوء والطمأنينة ، فلم تقم ثورات . وكان الحكم ميالاً الى السلم ، وشعر أعداء الدولة بقوة الخلافة ، ولذا تفرغ الى النهوض بالنواحي العلمية حتى امتلأت خزانة كتبه بقرطبة بأربعمائة ألف كتاب .

خلف الحكم ابنه هشام الثاني المؤيد (٣٦٦ ـ ٣٩٩ ﻫ) وكان في العاشرة من عمره ، وكانت أمه أم ولد تسمى « صبح » استطاعت أن تستبد بالسلطة ، وعهدت بتدبير شئون الدولة الى أبي عامر محمد بن عبد الله

---

١ ـ نفح الطيب ج ١ ص ١٦٦ .

٢ ـ العرب في اسبانيا ص ١١٧ .

الملقب بالمنصور ، وكان يتولى من قبل القضاء والزكاة . واستطاع المنصور أن يخمد روح الثورة والفتنة ، ثم تفرغ لقتال نصارى الشمال والفرنجة ، فخضعت له مملكة ليون والممالك التابعة لها ، وتكررت هزائم فشتالة وبرشلونة ونافار ، بل ان ملك نافار جثا ذليلاً على ركبتيه أمام المنصور [1] . وشجع ابن أبي عامر العلوم وبنى مدينة الزاهرة وكسب محبة الشعب ، وظل يتولى منصب الحجابة ٢٧ سنة الى (٣٩٣ هـ) .

كان العرب في مقدمة رجال الدولة وأهل العصبية ، ولهم المقام الرفيع والكلمة النافذة ، لأن الأمويين أهل عصبية للعرب كما مر بنا آنفاً ، ولكن سرعان ما استبد البربر والصقالبة بالمناصب والأعمال ، وأخذت شوكة العرب في الضعف تدريجياً ، حتى غلب ابن أبي عامر وزير الحكم بن الناصر على أمور الدولة ، فأوقع بين رجال الدولة وحجب الوزراء وكبار الموظفين عن الخليفة ، ورغم أنه كان عربي الأصل من العرب اليمنية إلا أنه أهمل في الاستعانة بالعرب ، ثم خاف على نفسه من الجند الصقالبة فدبر لهم مؤامرة تخلص بها من عدد كبير منهم . واستقدم اليه رجالاً من برابرة افريقية وزناتة مما أضعف النفوذ العربي .

خلف المنصور ابنه أبو مروان بن عبد الملك في منصب الحجابة وتلقب بالمظفر واستأثر بالسلطة دون الخليفة هشام الثاني المؤيد ، واستمر يحكم سبع سنوات حتى مات فخلفه أخوه عبد الرحمن وتلقب بالناصر وسمى نفسه « ولي العهد » ، وحفل عهده بالاضطراب ، فثار محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن فخلع الخليفة هشام المؤيد (٣٩٩ هـ) وقتل الناصر .

تلقب محمد بن هشام بلقب (المهدي) وظل يحكم في قرطبة حتى

---

١ – لين بول : العرب في اسبانيا ص ١٦٣ .

ثار عليه هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر وأخوه ابو بكر يساعدهما البربر فحاربهما المهدي وقتلهما . فثار ابن أخيهما سليمان وبايعه البربر ولقبوه (المستعين بالله) ، وتحالف البربر مع المسيحيين ، وتمكن من هزيمة جيوش المهدي ودخل قرطبة (٤٠٠ هـ) ، ولكن المهدي استعان بدوره بالمسيحيين وتمكن من طرد المستعين وجنده من قرطبة ، ولكنهم سرعان ما عادوا اليها ، فلجأ المهدي الى الحيلة ، فأخرج الخليفة هشام المؤيد من سجنه وبايعه قانعاً بمنصب الحجابة ، ولكن الأهالي لم يلبثوا أن ثاروا عليه وقتلوه [1] .

دخل المستعين قرطبة سنة ٤٠٣ هـ وقتل هشام المؤيد ، وجلس على ذلك العرش المتداعي نحو أربع سنين (٤٠٣ — ٤٠٧ هـ) استقل فيها بالأطراف كثير من الأمراء ، وافترق شمل الجماعة بالأندلس ، وصار الملك طوائف . فقد انقسمت دولة الخلافة الأندلسية في أوائل القرن الخامس الهجري الى امارات تولاها أصحاب الأطراف والرؤساء ، ومنهم العرب والبربر والموالي ، فتغلب كل حاكم على ما في يده ، فصاروا دولاً صغيرة متفرقة ، ولذلك سموا ملوك الطوائف .

أشهر هؤلاء الطوائف : بنو حمود في مالقة والجزيرة الخضراء (٤٠٧ — ٤٤٩ هـ) ، وبنو عباد في اشبيلية (٤١٤ — ٤٨٤ هـ) ، وبنو زيري في غرناطة (٤٠٦ — ٤٨٣ هـ) وبنو جهور في قرطبة (٤٢٢ — ٤٦١ هـ) وبنو ذي النون في طليطلة (٤٢٧ — ٤٧٨ هـ) والعامريون في بلنسية (٤١٢ — ٤٧٨ هـ) وبنو هود في سرقسطة (٤١٠ — ٥٣٦ هـ) وغيرهم من ملوك الطوائف .

ثم جاءت نهاية الخلافة الأموية في قرطبة على يد بني حمود سنة ٤٠٧ هـ ،

---

١ — المقري جـ ١ ص ٢٠٠ — ٢٠٣ .

فقد كان علي بن حمود بن أبي العيش الذي ينتمي الى ادريس بن عبد الله العلوي مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب ، يتولى حكم مدينة سبتة ، كما كان أخوه القاسم بن حمود يتولى حكم الجزيرة الخضراء في جنوب الأندلس . وطمع علي بن حمود في أن يحكم في قرطبة سنة ٤٠٧ هـ وقتل المستعين وقضى على الخلافة الأموية . وحكم بنو حمود الأندلس نحو أربعين سنة تخللتها صحوات عاد فيها الملك الى بعض أفراد البيت الأموي ، ولكن كيف يقبض الأمويون على العرش بأيديهم الضعيفة في ذلك الوقت الذي قامت فيه الفتن والثورات واشتدت المنافسة بين الزعماء من البربر والصقالبة والعرب والإسبان [1] ؟

كانت محاولات الأمويين لاحياء الخلافة محدودة غير مجدية ، فبعد وفاة علي بن حمود تولى أخوه القاسم ، وتلقب بالمأمون ، ولكن سرعان ما ثار عليه ابن أخيه يحيى بن علي بن حمود (سنة ٤١٣ هـ) وتلقب بالمعتلي ، واستطاع القاسم بمساعدة البربر استرداد الحكم ست سنوات حتى تمكن يحيى من هزيمته وقتله .

ملّ أهل قرطبة نزاع بني حمود ، ورأوا احياء الخلافة الأموية ، فبايعوا أحد أحفاد الناصر ولقبوه المستظهر بالله ، لكنه قتل بعد شهر ونصف فبايع القرطبيون محمد بن عبد الرحمن الناصر ولقبوه المستكفي بالله ، لكنهم ثاروا عليه بعد ١٦ شهراً وخلعوه .

وعاد القرطبيون مرة أخرى إلى بني حمود ، فبايعوا يحي بن علي بن حمود بالخلافة (٤١٦ هـ) فاتخذ مالقة مركزاً للخلافة . ولكن القرطبيين بايعوا في العام التالي أحد أحفاد الناصر وسموه (المعتمد بالله) وحفل عهده بالثورات حتى خلع سنة ٤٢٢ هـ . وظل يحي بن علي بن حمود خليفة في

---

١ — حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ٣ ص ١٨٥ .

مالقة حتى مات ، فخلفه أخواه إدريس (٤١٧ — ٤٣١ هـ) وحسن بن يحيي (٤٣١ — ٤٣٤ هـ) على التوالي . ثم خلفهما ادريس الثاني بن يحيي فأساء السيرة فخلع ، وتولى ابن عمه محمد الأول بن إدريس بن علي (٤٣٨ — ٤٤٤ هـ) ولكن البربر خلعوه أيضاً وولوا ادريس بن يحيي (٤٤٤ — ٤٤٥ هـ) ولقبوه الموفق .

ذكر ابن الأثير[1] أن الأمور اضطربت في أواخر أيام بني حمود حتى إنهم لقبوا أربعة من أفراد البيت الحمودي بالخلافة في وقت واحد ، وفي مكان ضيق من الأرض لا تتجاوز مساحته ثلاثين فرسخاً .

بويع محمد بن ادريس الثاني بالخلافة وتلقب بالمستعلي (٤٤٦ هـ) واستمر يحكم ثلاث سنوات حفلت بالثورات والاضطرابات ، وكان آخر من ولي الحكم من بني حمود ، فقد تغلب باديس بن حبوس على مالقة سنة ٤٤٩ هـ وعزل محمداً . ووصف المقري[2] حالة الأندلس فقال :

« ... وانقرضت دولة الأشراف الحموديين من الأندلس بعد أن كانوا يدعون الخلافة ... وانقطعت الدولة الأموية من الأرض ، وانتثر سلك الخلافة بالمغرب وقامت الطوائف بعد انقراض الخلائف ، وانتزى الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والموالي بالجهات ... حتى قطع عليهم البحر ملك العدوة وصاحب مراكش أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتوني ، فخلفهم وأخلى منهم الأرض » .

لم تطل سيادة دول ملوك الطوائف ، فتغلبت عليهم دولة المرابطين ثم الموحدين، وظل الانقسام متتابعاً بين تلك الممالك ، والخصام مستمراً ، والافرنج يغتنمون ضعفهم وانقسامهم ، ويسترجعون اماراتهم واحدة بعد واحدة وبلداً

---

١ — الكامل جـ ٩ ص ١٠٥ .

٢ — نفح الطيب جـ ٢ ص ٢٠٦ .

بعد بلد ، حتى غلبوا على المسلمين وأخرجوهم من الأندلس ، وآخر مدينة افتتحها الافرنج من تلك المملكة غرناطة ، وكانت في حوزة بني نصر نسبة إلى يوسف بن نصر من سنة ٦٢٩ ﻫ ، توالى عليها منهم بضعة وعشرون ملكاً ، آخرهم أبو عبد الله محمد بن علي ، فاستولى عليها الافرنج سنة ٨٩٧ ﻫ ، وفر أبو عبد الله وكان ذلك آخر عهد المسلمين بالأندلس .

مميزات الخلافة الأموية في الأندلس :

يرى المؤرخ جرجي زيدان[١] أن الخلافة الأموية في الأندلس كان انحلالها وسقوطها أسرع من سقوط الخلافة العباسية في بغـــداد ، لضعف اعتقاد المسلمين بصحة خلافة بني أمية ، ولأن العباسيين أرسخ قدماً في الخلافة لقرابتهم من الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولكن الدكتور حسين مؤنس [٢] عارض هذا الرأي ، ورأى أن ايمان الناس في الأندلس بالبيت الأموي وفضله أقوى بكثير من ايمان الناس في المشرق بالبيت العباسي ، لأن بني أمية الأندلسيين استنقذوا البلاد أول الأمر من الفوضى التي شملت الأندلس خلال فترة الولاية التي سبقت مجيء عبد الرحمن الداخل . فقد وحد عبد الرحمن البلاد وسوى بين أهلها ووضع نظاماً ثابتاً صالحاً للحكم السليم ، وعرف عن طريق توزيع السلطات بين العناصر المختلفة ، كيف يحافظ على التوازن بينها ، فهو لم يعهد بالوظائف والولايات إلى أهل بيته كما فعل الأمويون والعباسيون ، بل أبعد آله عن مراكز الادارة الفعلية ، ولم يعهد في الأمور إلى وزير واحد ، بل إلى عدد من الناس ، كان فيهم العربي والمولى والبربري والمولد ، وهو نفسه لم يسم

---

١ — تاريخ التمدن الاسلامي ج ٤ ص ٢٢٦ .

٢ — حاشية في كتاب تاريخ التمدن الاسلامي ج ٤ ص ٢٢٥ .

أولئك الرجال وزراء بل جد لقب الوزارة فيما بعد ، وجعل لكل منهم اختصاصاً ، ومن هنا لم يستبد أحد بسلطان مطلق كما كان الحال مع وزراء العباسيين .

وقد أكمل الذين خلفوا عبد الرحمن بناء الادارة على الأسس التي وضعها ، فأصبح كبار الموظفين هؤلاء وزراء ، ثم ميزوا واحداً منهم بلقب الحاجب ، فأصبح شبيهاً برئيس الوزراء . وإلى جانب ذلك لم يفصل الأمويون بين الادارة والجيش ، فلم تعد هناك قيادة عامة للجيش ، وانما كانت هناك قيادة للحملات ، أما رئاسة الجيش فكانت للأمير نفسه ، ومن هنا لم يتسع المجال لأحد من القواد ليستبد بالدولة كما حدث في الدولة العباسية .

استعان الأمويون في الأندلس بالفقهاء على صورة أحسن وأحكم مما حدث في المشرق ، فاختاروا عدداً منهم يشاورونهم في الأحكام ، وأطلقوا على كل منهم لقب فقيه مشاور ، ولم يجعلوا منهم مع ذلك هيئة ذات كيان ، بل كانوا يشاورون من يرون مشاورتهم منهم دون تفريق ، ومن هنا أصبح هؤلاء الفقهاء المشاورون قوة معنوية دينية كبرى دون أن يكونوا « سلطة » يخشى خطرها ومنافستها ، واستطاع الأمراء أن يستخدموا هذه القوة في موازنة قوى الاداريين والعسكريين دون أن يخشوا سلطانها . وأصبح الفقهاء سلطة معنوية كبرى تؤيد العرش وتضمن له ولاء الجمهور . وعمل هؤلاء الفقهاء على القضاء على كل مذهب مخالف لمذهبهم ، حرصاً على مصالحهم ، وكانوا مالكية ، فلم يعد في البلاد مذهب آخر مخالف لهذا المذهب ، مما أدّى إلى توحيد البلاد .

وهكذا ، أدت سياسة الأمراء الأمويين إلى توازن بين القوى ، وتوحيد لصفوف الشعب ، وأصبحوا سادة منفردين بالسلطان دون استبداد آمنين

من المخاوف الكثيرة التي أفسدت على العباسيين أمورهم ، ولم يعودوا يخشون الوزراء أو القواد ، ولم يجدوا أنفسهم مضطرين إلى نكبة وزير أو الى مصادرته الا في النادر ، وأصبحوا في نظر الجميع ميزان البلاد ورمز الوحدة وضمان العدالة ، فأيدهم الجميع وآمن بهم الشعب وسارت الأمور على ما يرام .

وما دام السلطان موزعاً على هذه الصورة فان عمال الدولة الذين يلون الوزراء والقواد لم تتلاش شخصياتهم وينعدم سلطانهم كما كان الحال في المشرق . فكان القضاة يجلسون مع الأمير ، فيشاورهم ويشاورونه ، مما جعل للقضاء في الأندلس هيبة وجلالاً . كما كان رؤساء أهل الذمة متصلين بالأمراء اتصالاً مباشراً ، فلا يظلمهم عامل أو يستبد بهم وزير ، وكان لهم مركز لا يقل عن مركز الوزراء ، وقد احترمهم الأمراء وقدروهم لأنهم كانوا يضمنون ولاء من يتبعهم من أهل الذمة ، ومن هنا ، وعلى الرغم من كثرة الذميين في الأندلس ، والنصارى منهم بصفة خاصة ، لا نسمع عن مضايقات كهذه التي كانت تصيبهم في المشرق ، من الزامهم بلباس معين أو سلوك خاص ، وكانت العلاقات بينهم وبين المسلمين علاقات ود وصداقة .

لذلك كله ، كان للبيت الأموي في الأندلس مركز معنوي يختلف اختلافاً تاماً عن مركز العباسيين في المشرق ، فبينما كان الولاء الروحي الحقيقي للمسلمين في المشرق مع العلويين وولاؤهم الظاهري للعباسيين ، نجد أن الولاء كله في الأندلس كان للأمويين ، فهم رمز العروبة والاسلام وضمان الوحدة والعدالة وميزان القوى والسلطان .

ومن هنا نلمس اخلاص أهل الأندلس للبيت الأموي ، اخلاصاً صادقاً عميقاً ، وقد تمكن هذا الاخلاص بفضل السياسة الرشيدة التي اتبعها الأمراء

والخلفاء. بل ان المنصور محمد بن أبي عامر حين استبد بالسلطة دون الخليفة اعتبره الأندلسيون مغتصباً وقاوموا سلطانه ، مما جعل المنصور يحارب العمد التي قام عليها سلطان بني أمية من فقهاء ووزراء ورجال ادارة وعسكريين ، واستغنى عنهم بجنده المرتزقة ومعظمهم من زناتة المغرب . وأدى هـذا الصراع إلى انقسام الأمة الى عنصرين قويين متخاصمين :

الأول عنصر الأندلسيين ما بين عرب وبربر قدماء وأندلسيين أسلموا واستعربوا وأهل ذمة احتفظوا بدينهم وان استعربوا لساناً وفكراً .

والثاني عنصر البربر الجدد ومن انضم اليهم من جند ابن أبي عامر من الصقالبة الذين أتى بهم .

٩ . إحياء الخلافة العباسية في القاهرة

محاولات لاحياء الخلافة العباسية في بلاد الشام :

أسدل الستار على المأساة الأليمة التي دارت حوادثها في بغداد حين قتل هولاكو المغولي المستعصم آخر الخلفاء العباسيين في بغـداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) وغربت شمس الخلافة العباسية في بغداد ، لتشرق مرة أخرى في سماء القاهرة .

قتل هولاكو الخليفة المستعصم وولديه أبا العباس أحمد وأبا الفضائل عبد الرحمن وأصبح العالم الاسلامي منذ ٦٥٦ هـ بدون خليفة ، وأوجد غروب شمس الخلافة في بغداد فراغاً كبيراً شعر به كل مسلم أو حاكم اسلامي . ولا شك أن كل حاكم من حكام الامارات الاسلامية القائمة في ذلك الحين كان يتمنى أن تعود شمس الخلافة إلى الشروق مرة أخرى في امارته ، فالخلافة ستوطد حتماً سلطته اذ سيظهر امام المسلمين بمظهر (حامي حمى الخلافة الاسلامية)، ولكن معظم هؤلاء الحكام كانوا مشغولين بصد الخطر المغولي من جهة ، والعمل على استقرار الأمور في بلادهم من جهة اخرى .

كان اول من فكر في احياء الخلافة العباسية هو الناصر يوسف الأيوبي

صاحب دمشق ، فقد علم الناصر بقدوم احد امراء البيت العباسي وهو أبو العباس أحمد ، أحد أحفاد الخليفتين المسترشد والمستظهر بالله ، إلى دمشق ، حيث التجأ إلى الأمير عيسى بن مهنا ، وبعث عيسى إلى الناصر ينبئه بالتجاء أبي العباس اليه ، فأمره بانفاذه إليه ، فقد رأى الناصر أن يبايع هـذا الأمير العباسي بالخلافة ويتخذه سلاحاً يشهره في وجه المماليك في مصر . ولكن حدث أن هجم المغول على بلاد الشام ، فاضطر الأمير العباسي إلى الالتجاء مرة أخرى عند الأمير عيسى [1] .

ثم حدث أن قدم الملك المظفر قطز إلى دمشق بعد أن انتصر على المغول في موقعة عين جالوت ، فبعث الأمير عيسى بن مهنا إلى قطز ينبئه بوجود الأمير العباسي . ويروي السيوطي في تاريخ الخلفاء [2] أن قطز بايع أبا العباس أحمد بدمشق ، وأن الخليفة الجديد قاد جيشاً صغيراً من العرب فتح به عانة والحديثة وهيت والأنبار وهزم المغول . ثم بعث اليه علاء الدين طيبرس نائب دمشق يطلب منه الرحيل إلى الظاهر بيبرس في القاهرة، ولكن ما كاد يستعد للرحيل حتى علم بقدوم أمير عباسي آخر إلى القاهرة، فعدل عن الرحيل واتجه إلى حلب حيث بايعه اميرها شمس الدين البرلي بالخلافة ولقبه (الحاكم بأمر الله) ونقش اسمه على السكة وزوده بجيش صغير قاتل به المغول .

بيبرس يحيي الخلافة العباسية في القاهرة :

هذه المحاولات لم يكتب لها النجاح التام ، فكان نور الخلافة ما يكاد يضيء حتى يخبو مرة اخرى . وما لبثت شمس الخلافة ان اشرقت في سماء القاهرة . فقد حدث في سنة ١٢٦٢ م أن بعث الأمير علاء الدين طيبرس

---

١ – السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣١٧ .
٢ – ص ٣١٧ .

والأمير علاء الدين البندقداري إلى الظاهر بيبرس ، السلطان المملوكي في القاهرة ، يخبرانه بقدوم أمير عباسي هو أحمد ابن الامام الظاهر ابن الامام العباسي ومعه جماعة من عرب خفاجة يؤكدون صحة نسبه ، ورد بيبرس عليهما يوصيهما خيراً بالأمير العباسي وصحبه ويأمرهما بانفاذه اليـه في الحال (١) .

وصل الامير العباسي احمد الى مشارف القاهرة فهرع الظاهر بيبرس الى استقباله وصحبه الوزير بهاء الدين بن حنـا وقاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز وامراء المماليك والأجناد وسار خلفهم المسيحيون يحملون الانجيل واليهود يحملون التوراة . والتقى الجمعان عند المطرية في شمال القاهرة وترجل بيبرس وعانق الخليفة عناقاً حاراً ثم سار الموكب إلى قلعة الجبل حتّى اذا ادركوا بابها ابى بيبرس ان يتقدم الامام أحمد في الدخول ثم أبى أن يجلس معه على مقعد واحد (٢) .

وبعد فترة وجيزة عقد بيبرس مجلساً في قاعة الأعمدة بقلعة الجبل لاثبات نسب الامام حضره الامراء والفقهاء والقضاة ، وأكد العرب المرافقون للأمير لقاضي القضاة صحة نسبه وأنه ابن الخليفة الظاهر بأمر الله ابن الخليفة الناصر لدين الله . وقبل قاضي القضاة شهادتهم وحكم بصحة نسبه وبايعه بالخلافة . وتقدم الظاهر بيبرس اليه يبايعه بالخلافة ايضاً « على كتاب الله وسنّة رسوله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله وأخذ اموال الله بحقها وصرفها في مستحقها » (٣) وأقبل الحاضرون بدورهم يبايعون الخليفة العباسي الجديد ، ولقبه بيبرس بلقب (المستنصر بالله) وأمر بأخذ البيعة له من عامة الناس ونقش اسم الخليفة على السكة إلى جانب اسمه والدعاء

---

١ – النويري : نهاية الارب ج ٢٨ ق ١ ص ١٨ .
٢ – المقريزي : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٤٧ .
٣ – السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٤٩ .

للخليفة في خطبة الجمعة قبل الدعاء للسلطان . وفي يوم الجمعة وقف الخليفة الجديد يخطب في المصلين خطبة أطنب فيها في الثناء على بيبرس لاحيائه الخلافة العباسية [1] .

ويؤيد المؤرخون النويري (نهاية الأرب جـ ٢٨ ق ١ ص ١٨) والمقريزي (السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٤٥١) وأبو المحاسن (النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٨٨) صحة نسب أبي العباس الى العباسيين . أما المؤرخ أبو الفدا (المختصر في أخبار البشر جـ ٣ ص ٢١٣) ومفضل بن أبي الفضائل (النهج السديد ص ١٠٥) فيشكون في صحة نسب الخليفة الجديد ، وأساس هذا الشك ان الخليفة كان لون بشرته مائلاً الى السواد ، ولكننا نرى أن هذا السواد لا يمنع انتساب الخليفة الى العباسيين وخاصة اذا علمنا أن المؤرخ ابن اياس (بدائع الزهور جـ ٢ ص ١٠٠) ذكر أن ام الخليفة كانت ام ولد حبشية .

ما هي الأسباب التي دفعت الظاهر الى احياء الخلافة ؟ :

يرى توماس أرنولد (الخلافة ص ٤٩) أن الظاهر بيبرس اراد ان يكسب حكمه صبغة شرعية ، مثله في ذلك مثل أسلافه من المماليك « الأرقاء الأتراك » وان اختلفت أساليبهم عما اتبعه بيبرس ، فقد كان أسلافه يدعون انهم يحكمون مصر كأوصياء على الأمراء الأيوبيين الأطفال فحكم أيبك مصر (١٢٥٠ – ١٢٥٧) عوضاً عن طفل أيوبي من أحفاد صلاح الدين ، ثم حكم قطز (١٢٥٧ – ١٢٥٩) وصياً على أمير طفل آخر . أما السلطان بيبرس فقد رأى ان يعتمد على الخلافة العباسية في توطيد دعائم سلطته .

أما المؤرخ وايت [2] فيرى ان بيبرس اراد من احياء الخلافة العباسية

---

١ – ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٠٤ .

٢ – Precis de L'Hist. D'Egypt,e, P. 250

ان يدعم سلطته فيصبغهـــا بصبغة شرعية فيستطيع ان يمد سلطانه على الأراضي المقدسة في بلاد الحجاز . أما المؤرخ وليم ميور (Muir) فيرى ان غرض بيبرس ان يقوي عرشه ضد اطماع امراء المماليك ، ومن جهة اخرى خوفاً من محاولة الشيعة احياء الدولة الفاطمية ، فقد رأى انه لو نصب خليفة من السنيين فانه يقضي على أية محاولات شيعية اذ يصبح حكمه في مصر شرعياً . ولكن رأي ميور بعيد إلى حد كبير عن الصواب اذ اننا لا نجد ما يؤيده في المصادر العربية والافرنجية ، فانه على اثر المؤامرة التي دبرت (١١٩٤ م) لارجاع الخلافة الفاطمية بمصر لم يسمع عن أي محـــاولة اخرى لاعادة الفاطميين الى حكم مصر . ولعـــل ميور اعتقد ان طائفة الاسماعيلية التي كانت تقطن سورية وقتئذ والتي كانت على عداء مع بيبرس ربما تفكر في اعادة الخلافة الفاطمية ، ولكن هذه الطائفة لم يكن لديها من القوة ما يجعلها تعمل على تقويض سلطة الظاهر بيبرس في مصر كما ان المصادر لم تذكر شيئاً عن تفكيرهم في احياء الخلافة الفاطمية[1] .

ظل المماليك يشعرون دائماً بأنهم مجرحون لأصلهم غير الحر ، ولأنهم اغتصبوا ملك مصر والشام من اصحاب البلاد الشرعيين فأرادوا بهذا التصرف ان يضفوا على أنفسهم نوعاً من المهابة وعلى حكمهم لباساً من الشرعية وعلو المكانة . كما أن الظاهر بيبرس أراد ان يستمد من اقامة الخلافة العباسية في القاهرة دعامة يسند بها عرشه لا سيما بعد ان انكشف الدور الذي قام به في مقتل سلفه قطز[2] .

أصبحت مصر مقر الخلافة وقلب العالم الاسلامي النابض ، وأصبح السلاطين المماليك حماة الخلافة والخلفاء ودعموا سلطتهم الزمنية بسلطة روحية دينية .

---

١ – جمال سرور : الظاهر بيبرس ص ٦٣ .
٢ – سعيد عاشور : دولة المماليك البحرية ص ١٨٢ .

ولكن هل استفاد الخلفاء العباسيون شيئاً ؟

أصبح الخليفة العباسي العوبة في يدي السلطان المملوكي يحركه كيفما شاء . فلم يكن الخليفة العباسي في القاهرة إلا مظهراً خداعاً جهد المماليك لايجاده ذرّاً للرماد في العيون حتّى يقضوا على اطماع الطامعين في السلطة في مصر ويمحوا الشكوك التي تقوم حول احقيتهم في هذه السلطة . وأصبحت خلافة الخليفة العباسي في مصر كما قال المقريزي (المواعظ والاعتبار ج ٣ ص ٣٩٤) « ليس فيها أمر ولا نهي ، وحسبه ان يقال له امير المؤمنين » .

موقف الظاهر بيبرس من الخليفة العباسي الجديد :

قرت أعين عامة المسلمين لاحياء الخلافة العباسية ، فما زال المسلمون ينظرون إلى الخلافة أو الخليفة نظرة اجلال وتقديس، وتبارى الشعراء في تخليد هذا الحدث العظيم ، فقال أحدهم[1] :

ايا أسد الترك ويا ركنهم ويا آخذ الثأر بعد المخافـه
كسرت الطغاة جبرت العفاة قطعت الفرات وصلت الخلافه

كما أن وجود الخلافة في مصر أدى الى نشاط كبير في الحياتين العلمية والدينية فقال السيوطي (حسن المحاضرة ج ٢ ص ٩٦) :

« اعلم ان مصر من حين صارت دار الخلافة عظم امرها وكثرت شعائر الاسلام فيها وعلت فيها السنّة وعفت منها البدعة وصارت محل سكن العلماء ومحط رحال الفضلاء » .

اما الظاهر بيبرس فكان غرضه الأول تدعيم عرشه والقضاء على اطماع منافسيه من امراء المماليك. وبدأ الظاهر بتحقيق هذا الغرض فطلب من الخليفة

---

١ – ابن اياس ج ١ ص ١٠٣ .

العباسي أن يعطيه تفويضاً شرعياً ، وعقد اجتماعاً لتلاوة هذا التفويض، فخرج بيبرس يصحبه كبار الشخصيات في شعبان ٦٥٩ هـ إلى ضاحية المطرية حيث نصب خيمة ضخمة ثم صعد القاضي فتلا تفويض الخليفة لبيبرس وبدأ التفويض بالثناء على بيبرس لأنه « أقام الدولة العباسية بعد ان اقعدتها زمانة الزمان ومنح امير المؤمنين عند القدوم اليه حنواً وعطفاً »، ثم خاطب القاضي السلطان فقال : « وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الشامية والدياربكرية والحجازية واليمنية والعراقية وما يتجدد من الفتوحات غوراً ونجداً وفوض أمر جندها ورعاياها اليك » . ثم نصح الخليفة السلطان بالعدل والاحسان وفوضه في تعيين النواب والحكام وأن يأمرهم بالرفق ومعاملة الضعفاء بالحسنى ، وانتهى التفويض بمطالبة الخليفة السلطان ان يعيد الخلافة إلى بغداد فقال : « ... وبك يرجى ان يرجع مقر الخلافة الى ما كان عليه في الأيام الأولى ، فأيقظ لنصرة الاسلام جفناً ما كان غافياً ولا هاجعاً وكن في مجاهدة اعداء الله اماماً متبوعاً لا تابعاً وأيد كلمة التوحيد فما تجد في تأييدها إلا مطيعاً سامعاً » (1) ثم ألبس الخليفة السلطان خلعة السلطنة .

كانت رغبة بيبرس التي اراد ان يحققها من وراء عقد الخلافة الاسلامية لرجل من العباسيين رغبة سياسية أكثر منها دينية، فقد كان الظاهر يريد امتداد ملكه واتساع سلطانه بمساعدة الخليفة له باعتباره حامي الدين، فان فكرة الزعامة الدينية تعمل في الرؤوس ما لا تعمله أساليب السياسة اياً كان نوعها ، وما لا تناله اسنة السيوف مهما اراقت من دماء . ولم يكن غرض بيبرس من موافقة الخليفة على طلبه احياء الخلافة العباسية في بغداد اعادة ملك العباسيين واسترداد ما كان لهم من عز وجاه، فان ذلك كما يقوض دعائم ملك المغول الذين استولوا على بغداد يهدم أيضاً سلطة الظاهر في الشام ومصر (2) .

---

١ - السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٥٣ .
٢ - جمال سرور : الظاهر بيبرس ص ٧٢ .

ويعلق توماس ارنولد « الخلافة ص ٥١ » على هذا التفويض الممنوح من الخليفة بقوله : ومن أهم مظاهر هذه الوثيقة ادعاء الخليفة السلطة على بلاد لم تقدم للدولة العباسية الطاعة منذ قرون وادعاؤه انه يملك السلطة العليا في العالم الاسلامي رغماً عن انه لا يملك جنوداً ولا موارد مهما كان نوعها تحت تصرفه كما أنه من الغريب ان يتدخل الخليفة في تفاصيل الادارة لجهاز منظم لحكومة مصر .

بدأ بيبرس ينفذ رغبة الخليفة في اعادة الخلافة إلى بغداد ليرضي الخليفة والمسلمين ويكسب المجد ، فأعد جيشاً وصحبه الخليفة ورحلوا الى دمشق . وهناك نصحه بعض أتباعه المخلصين بالعدول عن تنفيذ هذا المشروع وخوفوه من أن الخليفة حينما يتربع على عرش الخلافة في بغداد بعد القضاء على المغول سيعمل على القضاء على السلطنة المملوكية التي تسيطر على مصر والشام . وآمن بيبرس بصدق النصيحة فترك الخليفة يخترق الصحراء برفقة قوة من الاعراب والترك . وسار الخليفة في طريقه إلى بغداد وعند مدينة « عانة » انضم اليه الأمير العباسي ابو العباس وسبعمائة فارس تركماني واتجهوا جميعاً نحو الحديثة ثم هيت ففتحوهما . وشعر المغول بخطورة الخليفة فبعثوا بجيش هزمه واستشهد الخليفة وبعض الأمراء العباسيين ونجا الأمير أبو العباس أحمد وهو الذي قدم إلى مصر فيما بعد وأصبح لقبه « الحاكم بأمر الله »[1] .

الخليفة العباسي الثاني في القاهرة :

ظل عرش الخلافة خالياً عاماً كاملاً حتى رأى بيبرس ان يعاود إحياء الخلافة العباسية في القاهرة ، فاستقدم أبا العباس أحمد (٦٦١ هـ) واحتفل

---

١ – السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٤٦٦ .

بتنصيبه في قلعة الجبل وبايعه كبار رجال الدولة وأكدوا صحة نسبه وبايعه بيبرس ولقبه الحاكم بأمر الله (١) .

تخلى العباسيون عن أحلامهم باعادة الخلافة العباسية إلى بغداد وخضعوا للأمر الواقع وأصبحت القاهرة كعبة البيت العباسي ، واراد بيبرس الا يخلو منصب الخليفة في القاهرة مرة أخرى ، ولذا ما كاد يصل إلى دمشق بعد استيلائه على قلعة صفد حتى بعث إلى القاهرة بأميرين عباسيين ليكونا بمثابة (احتياطي) للحاكم او سلاحاً يشهره في وجه هذا الخليفة (٢) .

كانت معاملة بيبرس للحاكم خير دليل على اغراضه الحقيقـــة من احياء الخلافة ، فقد بذل جهده من اجل اضعاف نفوذ الخليفة حتى يصبح ــ كما أراد له ــ رمزاً دينياً دون أن يكون له سلطة دنيوية ، فمنع الخليفة من الظهور في المجتمعات العامة فظل حبيساً في مناظر الكبش التي انشأها ابن طولون (٣) بعيداً عن الشعب ورجال الحكم . ويبدو ان الخليفة شعر بضعفه وانه لا جدوى من المقاومة فقنع بما رتب له السلطان من رواتب كبيرة حتى لا تصطدم اطماعه بأطماع بيبرس مما قد يودي بحياة الخليفة . ويدلل أرنولد (٤) على اهمال بيبرس للخليفة باللوحة التي أقامها في حمص ذكرى لبنائه قبر خالد بن الوليد فاتح الشام ، فقد ذكر بيبرس ضمن ألقابه العديدة انه هو الذي اصدر الأمر وامر بطاعة الخليفتين .

ومن مظاهر اهمال بيبرس للخليفة انه لم يأخذ منه تفويضاً بعهد السلطنة لابنه الملك السعيد ، وانما أصدر هو التفويض وجاء فيه « ولا تدبير ملك

---

١ ــ السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٤٧٩ .
٢ ــ Muir; The Mameluke ..., P. 16
٣ ــ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٩٠ .
٤ ــ الخلافة : ص ٥٤ .

كلي بنا او بولدنا يعمل » ، وجاء فيه أيضاً « ولا منبر خطيب الا باسمنا يميس ولا وجه درهم ولا دينار الا بنا يشرق ». ومن سخرية الأقدار ان الملك السعيد اضطر الى اللجوء الى الخليفة حين ثار عليه الأمراء المماليك وحاصروه في القلعة فطلب من الخليفة التوسط لكن الأمراء أصروا على خلعه [1] .

---

١ السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٦٥٥ .

١٠ . الخلافة العباسية في عهد السلاطين المماليك

موقف السلاطين المماليك من الخلفاء العباسيين :

أصبح قيام الخلافة واستمرارها في مصر امراً تقليدياً . حقاً كانت مسألة شكلية صورية ولكن حرص سلاطين المماليك على بقائها ، فقد كان الخليفة العباسي يقوم بإصدار التفويض الى السلطان ليباشر مهام السلطنة في مصر مقابل ان يدعى للخليفة على منابر مساجد الدولة المملوكية دون ان يمارسوا أي عمل رسمي سوى التردد على قصر السلطان في المناسبات والأعياد يقدم التهاني ويعلن الولاء ، كما قال السيوطي[١] : « صار الأمر في زماننا أن الخليفة يأتي السلطان ليهنئه برأس الشهر فأكثر ما يقع من السلطان في حقه أن ينزل من مرتبته ويجلسان معاً خارج المرتبة ثم يقوم الخليفة يذهب كأحد الناس ويجلس السلطان في دست مملكته » .

اصبح إحياء الخلافة العباسية في القاهرة حقيقة واقعة فتكررت حفلات تنصيب الخلفاء وما يتبعها من مواكب واحتفالات فينعقد الاجتماع التقليدي

---

١ ـ تاريخ الخلفاء ص ١٦٤ .

لتأكيد صحة نسب الخليفة الى العباسيين ثم مبايعة السلطان للخليفة بالخلافة واصدار الخليفة التفويض للسلطان بمباشرة الأعمال الحكومية ثم طواف الخليفة في موكب يطوف بأحياء القاهرة .

وان كان السلطان في بداية العصر المملوكي حريصاً على صدور التفويض من الخليفة حتى يصبغ سلطته الزمنية بصبغة دينية تقويها وتدعمها ولكن سرعان ما زالت هيبة هذا التفويض من نفوس المماليك ، بعد ان رأوا اقدام كبار امراء المماليك على اغتصاب العرش كلما سنحت لهم الفرصة وذلك رغم حصول السلطان المخلوع على تفويض الخليفة . وعلى الرغم من ان الخليفة والقضاة الأربعة كانوا هم الذين يباركون السلطان عند اعتلائه العرش ، فان ذلك لم يكن يتم الا بعد ان يعلن أمراء مصر موافقتهم على اختياره وارتياحهم الى توليته وبعد أن يأخذ السلطان الجديد العهود والمواثيق بأن يخلصوا له ويلتفوا حول عرشه . وعلى ذلك فان موافقة الأمراء وتأييدهم كانا العامل الأساسي الذي يسهل للسلطان الوصول إلى العرش والاحتفاظ به مدة تطول او تقصر تبعاً لذلك التأييد ، اما مبايعة الخليفة للسلطان وحضور القضاة الأربعة عند تلاوة البقية والشهادة على صدورها من الخليفة فقد كان امراً صورياً لا يقدم ولا يؤخر في توطيد عرش السلطان او زعزعته ولكنه كان تقليداً اتبع منذ عهد بيبرس وعادة اصطلح عليها في تلك الفترة من تاريخ مصر الاسلامية (١) .

وعلى الرغم من ان السلطان منح الخليفة العباسي في القاهرة حق ذكر اسمه في خطبة الجمعة ونقشه على السكة إلى جانب السلطان واعطاء السلطان تفويضاً يجعل حكمه في نظر رعاياه شرعياً « فان ذكر اسم الخليفة مع اسم السلطان في الخطبة على المنابر كان مقيداً وان ظهور اسم الخليفة على السكة بجانب اسم السلطان كان صورياً محضاً وإن منح الخليفة عهود التفويض للسلطان

---

١ — علي ابراهيم : مصر في العصور الوسطى ص ٣٣٨ .

لم يمنع وقوع حوادث الاغتصاب المتكررة . فالسلطان قلاوون لم يهتم بالحصول على تفويض من الخليفة كما امتنع السلطان الناصر عن ذكر اسم الخليفة الواثق بالله عدة شهور في الخطبة، وعلق السيوطي [1] على هذا الحدث فقال : « لقد زال اسم الخليفة من على المنابر كأنه لم يرتفع اليها قط وخلت المحاريب في الجوامع من الدعاء للخليفة كأنه لم يتردد قط عند أبوابها » .

كانت المرتبات التي خصصها سلاطين المماليك للخلفاء ضئيلة محدودة لا تسمح لهم بأن يعيشوا حياة تناسب مركزهم الديني الخطير ، فقد خصص لهم السلاطين مبالغ معينة يأخذونها من المكوس المفروضة على الصاغة كما كانوا يمنحون « رسم المبايعة » وقدره ألف دينار[2] وعهد إلى بعضهم بالاشراف على مشهد السيدة نفيسة ليستعينوا بايراد المشهد من النذور ، فذكر المقريزي (الخطط جـ ٢ ص ٢٤٣) ان الخليفة المعتضد بالله تحسنت حاله بما يبيعه من الشمع الذي كان يرد إلى مشهد السيدة نفيسة . وذكر ارنولد (الخلافة ص ٥٦) أن المعاش الممنوح للخليفة كان ضئيلاً لدرجة جعلت الجمهور يلقبونه على سبيل السخرية بالشحاذ .

لم يهتم السلطان المملوكي من أمر الخليفة العباسي بسوى الحصول على تفويض منه بالحكم ، أو استمالته إلى جانبه اذا شعر بخطورة منافسة أمراء المماليك أو طلب مصاحبته له وقت الحرب من باب التبرك . وفيما عدا ذلك كان سلاطين المماليك ينظرون إلى الخلفاء نظرة ملؤها الشك وعدم الثقة، بل لم يتردد بعض السلاطين في اهانة الخلفاء والتضييق عليهم في تصرفاتهم وارزاقهم[3] ولكن لم تبد أية محاولة من سلاطين مصر للقضاء على نظام الخلافة بل ظل كل منهم يعنى باقامة الخليفة ليلجأ اليه في تأييد سلطته اذا

---

١ – تاريخ الخلفاء : ص ١٩٧ .

٢ – أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ق ٢ ص ٣٩٨ .

٣ – سعيد عاشور : المماليك البحرية ص ١٨٤ .

حاول أي امير مملوكي أن يسلبه عرشه. وقد أدى هذا الأمر ببعضهم الى التدخل في تولية الخلفاء وعزل من ينحرف عنهم، كما أن الخلفاء أنفسهم لما رأوا ان السلاطين أصبحوا يعتمدون عليهم في اكساب حكمهم صفة شرعية صاروا لا يولونهم احترامهم، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل انحاز بعضهم إلى جانب الأمراء [1].

تطور الخلافة العباسية في القاهرة في العصر المملوكي :

وقفنا في أمر الخلافة عند تنازل الملك السعيد عن السلطنة على يدي الخليفة الحاكم بأمر الله. تولى السلطنة بدر الدين سلامش بن بيبرس فعين الأمير قلاوون اتابكاً له وأصبحت السكة تنقش باسميهما ولم يعد هناك مكان لاسم الخليفة [2]. ولكن قلاوون حينما تولى السلطة حرص على الحصول على تفويض من الخليفة، وفي هذا التفويض مدح الخليفة السلطان لحرصه على اقامة الخلافة العباسية وفوضه «بالنظر في أمور المسلمين بغير شريك» ودعا له وأوصاه بالعدل والاحسان ثم أوصاه في نهاية التفويض بقتال الأرمن والفرنج والتتار ليأخذ بثأر الخلفاء العباسيين وجميع المسلمين [3].

كان للسلطان قلاوون شخصية طاغية تضاءلت الى جانبها شخصية الخليفة الحاكم، لكن الأمر لم يكن كذلك في عهد ابنه الأشرف خليل (٦٨٩ ﻫ) فقد اضطر الى الاعتماد على الخليفة في تأييد سلطته فسمح للحاكم بمغادرة القلعة بعد أن كان محجوراً عليه، وأصبح الخليفة يخطب في المساجد كل يوم جمعة ويصحب السلطان في الاحتفالات الرسمية. وكان السلطان يستعين

---

١ — جمال سرور : دولة بني قلاوون ص ١٩ .
٢ — النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٧٠ .
٣ — المقريزي : السلوك جـ ١ ق ٣ ص ٧٧٣ .

بالخليفة في اثارة حماسة امراء المماليك والجنود لقتال الصليبيين فكان يحثهم دائماً على الجهاد في سبيل الله[1] واستمر الحاكم بأمر الله حريصاً على ما في يده من نفوذ وسلطة، فقد أقر ما قرره أمراء المماليك من عزل السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٦٩٤ هـ لصغر سنه ووافق على تعيين كتبغا سلطاناً واصدر له التفويض المعتاد. حتى اذا تولى الملك المنصور لاجين سنة ٦٩٦ هـ حرص على الحصول على تفويض من الخليفة يدعم به نفوذه ازاء امراء المماليك وبالغ في اكرام الخليفة وأغدق عليه الأموال وصحبه معه دائماً في المواكب والاحتفالات الرسمية.

حرص الحاكم بأمر الله على الاستفادة من تنازع أمراء المماليك وحاجة كل طامع في السلطنة الى تأييده. فتراه يرحب بمقتل السلطان لاجين (٦٩٨ هـ — ١٢٩٩ م) وعودة الناصر إلى السلطنة فأصدر له تفويضاً أغدق فيه الألقاب على الناصر فلقبه بأنه سلطان الاسلام والمسلمين ومبيد الأرمن والفرنج والتتار ووارث الملك وسلطان العرب والعجم وخادم الحرمين، وصاحب القبلتين، وفوضه حكم «سلطنة المماليك الاسلامية براً وبحراً وشاماً ومصراً» إلى جانب ما يفتح من البلاد، وفوضه في تعيين الوزراء والأمراء والقضاة واعلان الحرب أو الهدنة[2].

توفي الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٧٠١ هـ فخلفه ابنه ابو الربيع سليمان فتلقب (المستكفي بالله) بعهد من ابيه. ولكن السلطان الناصر اعترض على توليته لصغر سنه. بيد أن قاضي القضاة اقنعه بالابقاء عليه. واستطاع المستكفي أن ينال رضاء السلطان فخطب له على المنابر ونقش اسمه على السكة وصحبه اثناء قتاله المغول في الشام سنة ٧٠٢ هـ ليثير حماسة الجند مما أدى الى انتصار

---

١ — السيوطي : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٥٤ .
٢ — القلقشندي : صبح الأعشى جـ ١ ص ٥٩ .

عظيم على المغول في موقعة مرج الصفر قرب دمشق[1] .

واستغل المستكفي ايضاً صراع امراء المماليك حول السلطنة لتوطيد نفوذه كخليفة ، فبعد تنازل الناصر عن السلطنة ورحيله إلى الكرك سنة ٧٠٨ هـ منح الخليفة تفويضاً للسلطان الملك المظفر بيبرس الجاشنكير (٧٠٨ هـ) ولكن السلطان ما لبث ان طلب تفويضاً جديداً آخر سنة ٧٠٩ هـ وأمر السلطان أمراء المماليك أن يقسموا يمين الولاء في حضرة الخليفة . وأعلن الخليفة أن من أطاع السلطان فقد أطاع الخليفة ، ومن خالف السلطان أغضب الخليفة وابن عمه الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأعلن الخليفة انه عزل الناصر لأنه رفع راية الثورة وانه سيخرج لقتاله ان استمر على ذلك[2] .

لكن عامة الناس كانت تحب الناصر ، فلم تعبأ بتفويض الخليفة وثاروا ضد الملك المظفر ، وحاول السلطان ان يستغل تفويض الخليفة في تهدئة الثورة فأمر بقراءته على الأمراء والجنود في كل مكان بمصر والشام ، ولكن الناس كانت تقابل هذا التفويض بالسخرية والاستهزاء[3] .

تكاتفت عامة الناس مع الأمراء والجند على اعادة الناصر إلى السلطنة وتناسى الخليفة موقفه وهرع إلى الناصر يهنئه بالعودة إلى السلطنة فتهكم الناصر عليه وقال : كيف تحضر لتسلم على خارجي ؟ هل كنت خارجياً وبيبرس كان من سلالة بني العباس ؟! [4] وبدأ الناصر اضطهاده فحجبه عن الشعب وأمره بمغادرة قصره (في مناظر الكبش) ليقيم في برج بقلعة الجبل حتى توسط بعض الأمراء فأعاده إلى قصره . وما لبث الناصر ان نفاه إلى قوص ، لكنه

---

١ — السلوك جـ ١ ق ١ ص ٩٢٣ .
٢ — النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٦٣ .
٣ — السلوك جـ ٢ ق ١ ص ٦٤ .
٤ — السلوك جـ ٢ ق ١ ص ٦٤ .

لم يجرؤ على عزله أو حذف اسمه من الخطبة .

وقبل وفاة المستكفي عهد بالخلافة إلى ابنه احمد وأشهد على ذلك قاضي قوص ، ولكن الناصر لم يوافق على البيعة لأحمد وبايع لابراهيم اخي المستكفي رغم سوء سيرته واعتراض قاضي القضاة في سنة ٧٤٠ هـ ولقبه (الواثق بالله) لكن الناصر قبل وفاته ندم على البيعة لابراهيم اذ لم يكن أهلاً للخلافة فأوصى بتنصيب أحمد بن المستكفي ونفذ ابنه المنصور أبو بكر وصية أبيه ، فبعد توليه السلطنة خلع الواثق وبايع أحمد ولقبه الحاكم بأمر الله [١] .

اتبع المنصور سياسة تخالف سياسة أبيه الناصر فقوى نفوذ الخليفة وبالغ في تبجيله فحذت الرعية حذوه في احترام الخليفة ، لكن الخليفة الحاكم استفاد مما حدث لأسلافه فحرص على بعده عن المسائل السياسية حتى لا يصطدم بالخليفة ، وسار السلطان الملك الصالح صالح بن الناصر على نفس سياسة اكرام الخليفة واحترامه واستعان به ضد امراء المماليك الذين ثاروا عليه في الشام سنة ٧٥٣ هـ فصحبه أثناء قتاله لهم [٢] .

توفي الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٧٥٤ هـ دون أن يعهد لأحد فعقد السلطان الملك الصالح مجلساً ضم الأمراء والقضاة وبني العباس فتشاوروا فيمن يتولى الخلافة ثم اتفقوا على تولية أبي بكر بن المستكفي بالله ولقبوه « المعتضد بالله » . وحرص المعتضد على تجنب المسائل السياسية . ثم خلفه ابنه « المتوكل على الله » الذي انصرف تماماً الى الاشراف على مشهد السيدة نفيسة ، ورغم ذلك ، فقد حاول امراء المماليك دفعه الى الخوض في السياسة ، فبعد هرب السلطان الملك الأشرف شعبان عرض الأمراء على الخليفة المتوكل ان يتولى السلطنة لكنه اصر على الرفض وكان في ذلك بعيد النظر فقد كانت عامة الناس

---

١ - السلوك جـ ٢ ق ١ ص ٧٣ .

٢ - حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٥٩ .

تود استمرار حكم بني قلاوون ، وقد تولى الأمير علي ابن السلطان الملك الأشرف شعبان السلطنة بعد أبيه وقام المتوكل باصدار التفويض كالمعتاد [1] .

وكان تنازع امراء المماليك يضع المتوكل في حرج رغم حرصه على البعد عن السياسة ، فقد استبد الأمير اينبك البدري بالسلطة دون السلطان الملك المنصور علي بن الأشرف شعبان وطلب اينبك من الخليفة ان يوافق على عزل المنصور وتولية الأمير أحمد بن يلبغا العمري ، ورفض المتوكل وكان جزاؤه النفي إلى قوص وخلعه ، ولكن اينبك لم يلبث ان شعر بخطورة عزله الخليفة الذي سيثير عليه مشاعر المسلمين فأعاد تنصيب المتوكل خليفة [2] .

وكأن المتوكل شعر بخطإ سياسته في الابتعاد عن المسائل السياسية ، فبعد انتهاء حكم اسرة بني قلاوون وتولي برقوق السلطنة المملوكية بعث الخليفة المتوكل إلى الأمراء والعربان في مصر والشام والعراق يطلب منهم ان يدخلوا في طاعته ، ويتهم المقريزي [3] المتوكل أنه اتفق مع جماعة من الأكراد والتركمان على قتل برقوق وتولية المتوكل السلطنة ولذا غضب برقوق على المتوكل وهمّ بقتله لولا شفاعة نائب السلطنة فاكتفى بخلعه وسجنه في قلعة الجبل وولى عمر ابن ابراهيم عمل المتوكل ولقبه (الواثق بالله) ، وشفع أمراء المماليك في المتوكل فأطلق سراحه لكنه أبى اعادته إلى الخلافة ، حتى اذا توفي الواثق بالله سنة ٧٨٨ هـ كرر الأمراء رجاءهم باعادة المتوكل فأصر برقوق على الرفض وولى زكريا ابن الخليفة المعتصم بالله وسماه (المستعصم بالله) . ولكن كان من بين الأمراء والمسلمين من يميل إلى المتوكل ، فقد ثار نائب حلب يلبغا الناصري على برقوق لعزله المتوكل وأخذ يعد جيشاً يتقدم به إلى مصر ليعيد المتوكل إلى الخلافة بالقوة واضطر برقوق إلى إعادة تنصيبه خليفة وبالغ في احترامه

---

١ – ابن اياس : تاريخ مصر جـ ١ ص ١٩٧

٢ – السلوك جـ ٣ ص ١٠٦ .

٣ – السلوك جـ ٣ ص ١٤٢ .

فروى القلقشندي [1] :

« أن المتوكل اذا حضر إلى مجلس السلطان برقوق قام له وربما مشى اليه خطوات وجلس على طرف المقعد وأجلس الخليفة إلى جانبه » .

ولكن هذا الاجراء لم يثن يلبغا الناصري عن عزمه فقاد جيشه ودخل القاهرة وقبض على برقوق وسجنه في الكرك وعرض يلبغا السلطنة على المتوكل فرفض توليها واقترح اعادة الملك الصالح اميرحاج بن الأشرف شعبان وعرض الأمراء السلطنة على يلبغا فرفضها وأيد اقتراح الخليفة فلم يروا بدّاً من توليته السلطنة ولقبوه الملك المنصور[2] .

أدى صراع أمراء المماليك إلى ضعفهم وأدت استعانتهم بالخليفة الى ازدياد نفوذ الخلفاء ، فقد حدث أن خرج السلطان الناصر إلى الشام لقتال نائبي طرابلس وحلب لثورتهما عليه ، وصحب السلطان معه الخليفة المستعين بالله ابن المتوكل ولكن السلطان هزم ولجأ إلى الفرار واختلف الأمراء فيما بينهم فيمن يتولى السلطنة من بينهم ، ورأوا حسماً للنزاع ان يتولى الخليفة المستعين بالله عرش السلطنة . ووافق الخليفة على شرط ان يحتفظ بالخلافة اذا خلعوه من السلطنة وأصبح المستعين يسمى « الامام المستعين بالله امير المؤمنين وخليفة العالمين وابن عم سيد المرسلين المفترضة طاعته على الخلق اجمعين أعز الله ببقائه الدين » . وكان المستعين اول خليفة عباسي يدعى له على منابر الحجاز بعد مصرع الخليفة العباسي المستعصم بالله على يد هولاكو سنة ٦٥٦ هـ [3] .

ولكن الخليفة السلطان المستعين بالله تعرض نفوذه للخطر ، فقد طمع أحد الأمراء الذين ولوه السلطنة وهو الأمير شيخ المحمودي نائب حلب في الاستئثار

---

١ — صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٧٧ .
٢ — السلوك ج ٣ ص ٨٦ .
٣ — حسن المحاضرة ج ٢ ص ٧٠ .

بالسلطنة فولى شيخ (الأمير جقمق) منصب دوادار الخليفة ، فصار رقيباً على الخليفة واستبد بادارة شئون الدولة . وما لبث الأمير شيخ أن تطلع إلى عزل المستعين بالله ، فعقد مجلساً حضره الأمراء والقضاة وخطب فيهم مبيناً أن سبب اضطراب الأمور في مصر هو جمع رجل واحد منصبي الخلافة والسلطنة . وأدرك الحاضرون طمع الأمير شيخ في السلطنة فولوه اياها . لكن السلطان كان في حاجة إلى تفويض من الخليفة بالسلطنة ، فبعث السلطان في طلب التفويض وأبى الخليفة الا اذا أقسم السلطان على أن « يناصحه سراً وجهراً ويكون سلماً لمن سالمه ، حرباً لمن حاربه » . ورفض السلطان أن يحقق رغبة الخليفة فنقله من القصر إلى القلعة حيث حجبه عن الناس[1].

بدأت فترة شهدت الكثير من مظاهر ضعف الخلفاء العباسيين ، فقد أصبح الخليفة المستعين ومن خلفه كالمحجور عليهم . وكان بعض الخلفاء يحاولون استعادة نفوذهم ولكن جهودهم كانت تنتهي بالاخفاق . فقد تزعم الخليفة القائم بأمر الله مؤامرة لخلع السلطان الأشرف اينال وتولي السلطنة بدله ، لكنه اخفق ، فخلعه السلطان سنة ٨٥٩ هـ ، وبايع أخاه أبا المحاسن يوسف وظل الخلفاء العباسيون في زوايا النسيان والاهمال إلى أن قدم السلطان العثماني سليم الأول إلى القاهرة فغربت شمس الخلافة العباسية في مصر .

موقف العالم الأسلامي من الخلفاء العباسيين :

لم يمتد نفوذ الخليفة العباسي خارج دولة المماليك كثيراً فلم يعترف معظم الإمارات الاسلامية بالخليفة العباسي في القاهرة وأهملت الدعاء له على المنابر . بل ان أميري مكة والمدينة وهما قلب العالم الاسلامي النابض لم يعترفا من بين الخلفاء العباسيين إلا بخليفة واحد هو المستعين ، بل أبدى كثير من المسلمين

---

١ - تاريخ مصر جـ ١ ص ٢٥٩ .

سخريتهم من الخليفة العباسي في القاهرة وسخروا من ادعاءاته وشكوا في انتسابهم إلى خلفاء بغداد . بل رأى بعض المسلمين ان الخلافة لم تدم أكثر من ثلاثين سنة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم مستندين إلى حديث شريف يقول : « الخلافة بعدي في امتي ثلاثون سنة ، ثم ملك بعد ذلك ». وقد تبنى المؤرخ المقريزي هذه العقيدة فقال ان الخلافة أصبحت ملكية مطبوعة بطابع العنف والاستبداد بعد الخلفاء الأربعة الحقيقيين أي بعد وفاة علي بن أبي طالب، واعتبر ابن خلدون أنه لم يبق للخلافة بعد هارون الرشيد الا الاسم ومنذ ذلك الحين أصبحت ملكية مجردة وأن منصب الخلافة زال من الوجود بزوال سيطرة العنصر العربي . ثم تحدث كاتب متأخر وهو قطب الدين ، المتوفى سنة ١٥٨٢ ، فعين انتهاء الخلافة بصورة حاسمة منذ موت آخر خليفة في بغداد على أيدي المغول سنة ١٢٥٨ ، وكرر الرأي بأن الخلفاء في القاهرة كانوا خلفاء بالاسم فقط ولم يكن أي معنى لتسميتهم بهذا الاسم [١] .

واعترف مثل هؤلاء المفكرين بصراحة ان هناك تفاوتاً بين مركز الخليفة التابع للسلطان المملوكي وبين الحقوق المدعى بها المتصلة بهذا اللقب بأنه حامي الاسلام وعليه أن يدعو للجهاد ضد اعداء الدين . ثم نما شعور بأن القوة السياسية ومراقبة القوى المسلحة يجب ان تضم الى مثل هذه الحقوق السامية . ومنذ كان البويهيون يتقلدون الوصاية على الخليفة العباسي في بغداد أعلن القاضي أبو بكر الباقلاني الذي توفي في تلك المدينة سنة ١٠١٢ زمن الخليفة القادر أنه ليس من الضروري أن يكون الخليفة من قريش واسقط شرط القرشية في الخلافة لما أدرك عليه عصبية قريش من التلاشي والاضمحلال واستبدال ملوك العجم للخلفاء [٢] .

واذا كان المفكرون يشكون في حق الخليفة العباسي في القاهرة في زعامة العالم الاسلامي فلا نعجب اذا شاهدنا رجال السيف يقتطعون لأنفسهم ممالك

---

١ – أرنولد : الخلافة ص ٦١ .

٢ – مقدمة ابن خلدون ص ٣٩٦ .

ويستغلون فرصة الاضطراب لينصبوا أنفسهم ملوكاً مستقلين ، وهذا ما فعله المغول الذين انتقل اليهم اكبر جزء من الولايات الشرقية من الأمبراطورية العربية الاصلية . ورغم اعتناق المغول للاسلام فانهم ما زالوا تحت نفوذ دستورهم المغولي المسمى (اليسق) وهو مجموعة أنظمة تتضمن العرف والعادات التركية المغولية البدائية .

وعندما اعتنق احد هؤلاء الأمراء المغول الاسلام أراد تبديل هذا النظام القبلي والقانوني بالشريعة الاسلامية . لكنهم لم يهتموا مطلقاً بأن يحصلوا على تفويض من الخليفة العباسي في القاهرة ، بل إن أحفاد جنكيزخان كانوا يعتزون بنسبهم إلى هذا الفاتح لتبرير ممارستهم السلطة دون ان يعبأوا بالحصول على تفويض من أحفاد ذلك الخليفة العباسي الذي قتله أسلافه في بغداد سنة ٦٥٦ (١٢٥٨) ومن هؤلاء غازان خان (١٢٩٥ – ١٣٠١) الذي جعل الاسلام دين الدولة وبنى عدة مساجد ومدارس دينية ، فقد كان يفخر بنسبه للفاتح المغولي القاسي الذي قتل المسلمين دون حساب ودمر مراكز الحضارة الكبرى في آسيا الوسطى . وكان غازان خان حفيداً لهولاكو فاتح بغداد وقد تربى على البوذية لكنه اعتنق الاسلام قبل أن يرتقي العرش (١٢٦٥) وهاجم سوريا واحتل دمشق . وقد شعر غازان خان بأنه لم يكن بحاجة إلى تفويض من الخليفة ولذلك فانه دعي بعد احتلاله لدمشق في الخطبة « السلطان الأعظم سلطان الاسلام والمسلمين » ولكن حينما زاد الاسلام انتشاراً بين المغول كف ملوكهم المسلمون عن الفخر بنسبهم لجنكيزخان ولكنهم في نفس الوقت لم يعيروا الخليفة العباسي في القاهرة اهتماماً أو التفاتاً [١] .

أما ملوك هندستان فقد اعترف معظمهم بالخلفاء العباسيين في القاهرة وحاولوا الاعتماد عليهم في تدعيم سلطتهم . فقد بعث الملك محمد بن تغلق

---

١ – الخلافة ص ٦٣ .

إلى الخليفة العباسي في القاهرة المستكفي بالله وطلب منه تفويضاً بالحكم حتى اذا وصله هذا التفويض غمر الخليفة بالهدايا الثمينة وأمر بالدعاء للخليفة على منابر هندستان ونقش اسمه على السكة مصحوباً بالدعاء له (أطال الله بقاء الخليفة)[1] . واستمرت علاقة محمد بن تغلق بالخليفة الحاكم بأمر الله أحمد بن المستكفي بالله ، فقد بعث الخليفة الحاكم خلفه مع رسوله (حاجي سعيد صرصري) (٧٧٤ هـ - ١٣٤٣ م) فخرج الملك يصحبه كبار رجال الدولة للقاء هذا الرسول بالاكرام والاحترام وبعث الملك إلى الخليفة برسالة اعترف فيها بتعيينه له ، وظلت الرسائل بينهما مستمرة[2]. وعلم أحد الأمراء العباسيين وهو الأمير غياث الدين محمد حفيد الخليفة المستنصر ، باكرام ابن تغلق للعباسيين ، فقدم عليه حيث أكرمه الملك وبالغ في احترامه حتى إنه أمسك بركاب جواده حتى امتطاه واسكنه قصراً فخماً أمده بالخدم والجواري والأواني الذهبية والفضية ومنحه مرتباً يومياً قدره ثلاثمائة دينار وأقطعه مدينة كاملة وعهد اليه بحكم البلاد الواقعة في شرق دلهي ، وأمـــر الناس بطاعته مثل طاعتهم له[3] .

اتبع الملك فيروز شاه (١٣٥١ - ١٣٨٨ م) سياسة ابن تغلق في توطيد دعائم ملكه بواسطة الخليفة العباسي في القاهرة ، فقد طلب من الخليفة المعتضد بالله بن المستكفي بالله تفويضاً فأجاب المعتضد رجاءه .

وحذا بعض ملوك الهند حذو ملوك هندستان ، فقد أرسل (باهمان شاه) ملك الدكن إلى الخليفة المعتضد بالله يطلب منه أن يعترف به ملكاً على بلاده (٧٥٦ = ١٣٥٦) . كما بعث الملك (جلال الدين ابو المظفر محمد شاه

---

١ - Ellot : Hist. of India, V. 3, P. 50

٢ - Allan : Cambridge Shorter Hist. of India, P. 240

٣ - ابن بطوطة : تحفة النظار جـ ٢ ص ٤٥ .

ابن مندرو) ملك البنغال إلى الخليفة المعتضد يطلب تفويضاً فلبى نداءه وتبادلا الهدايا[1] .

وتودد بعض حكام فارس إلى الخلفاء العباسيين ، فقد أسس (مبارز الدين محمد بن المظفر) الدولة المظفرية في جنوب فارس (١٣١٣ - ١٣٩٣ م) وأبى التحالف مع المغول وأعلن ولاءه للخليفة المعتضد بالله سنة ١٣٥٤ م وذكر اسمه في الخطبة واستمر ابنه (شاه شجاع) على ولائه للخلفاء العباسيين فاعترف سنة ١٣٦٩ بخلافة المتوكل .

وفي بلاد ما وراء النهر استعان بعض ملوك المغول بالخلفاء العباسيين . فقد عهد تيمورلنك بالحكم قبيل وفاته إلى ابنه الكبير (بير محمد) ، ولكن بعد وفاة تيمورلنك سنة ١٤٠٤ م نافس (خليل سلطان) ابن عمه (بير محمد) واقترح بعض خاصة (بير محمد) عليه ان يؤكد سلطته بتفويض من الخليفة العباسي في القاهرة ، ولكنه رفض هذا الاقتراح لأن في هذا الغاء للقوانين المغولية (اليسق) واعترافاً بسيادة الخليفة والشريعة الاسلامية .

وبعث السلطان العثماني بايزيد الأول سنة ١٣٩٤ إلى الخليفة العباسي في القاهرة يلتمس منه ان يمنحه لقب سلطان . وكتب بايزيد سنة ١٤٠٠ إلى تيمورلنك يذكره بالعباسيين ورثة عرش الخلافة الذين التجأوا إلى مصر ويبين له أن الأتراك والمصريين يستطيعون أن يتحدوا فيكونوا امبراطورية اسلامية واحدة تقف في وجه تيمورلنك وما يأتيه من اضطهاد للمسلمين وسفك لدمائهم .

ولكن كان هناك بعض الأمراء المسلمين الذين لم يلقوا بالاً إلى الخلفاء العباسيين بل لم يجدوا بأساً من التلقب بلقب (خليفة) . من هؤلاء أبو عبد الله

---

١ - Allan, P. 27

الحفصي (١٢٤٩ – ١٢٧٧) وكان أبو يحي يحكم تونس نيابة عن سلطان الموحدين وما لبث ان استقل بها لكنه استنكف ان يكون لقبه (أمير المؤمنين) مثل لقب سلطان الموحدين فلقب نفسه خليفة واماماً ، وكان شريف مكة المحرض له على اتخاذ هذا اللقب واستمر خلفاؤه يتخذون هذه الألقاب .

وعندما سقطت دولة الموحدين سنة ١٢٦٩ تلقب « أبو عنان فارس » حاكم الدولة المرينية في مراكش بلقب أمير المؤمنين وهو الذي أهدى إليه ابن بطوطة كتاب رحلاته وكان ابن بطوطة يدعوه السيد الخليفة وأمير المؤمنين والامام وظل الله على أرضه وان كان خلفاء هـذا الأمير لم يتمسكوا بهذه الألقاب .

بنى غياث الدين كيخسرو الثالث أحد السلاجقة المتأخرين في آسيا الصغرى مدرسة في سيواس سنة ١٢٧١ م وكتب عليها الدعاء التالي :

« اللهم ساعد خادمك وخليفتك السلطان الكبير والخاقان المعظم سيد ملوك العرب والعجم ظل الله على الأرض » .

وفي الهند وصف الشاعر امير خسرو ، السلطان علاء الدين الخلجي (١٢٩٦ – ١٣١٦) بأنه « خليفة زمنه وظل الرحمن على رؤوس البشر » ونقش ابنه قطب الدين مبارك شاه (١٣١٦ – ١٣٢٠) على السكة أنه « قطب الأرض والدين » وأنه « الامام الأعظم » .

ووصف دولة شاه أحمد بن ادريس أحد ملوك الجلائرية التي اتخذت بغداد عاصمة لها حوالي سنة ١٣٨٢ م بأنه خلف أباه على كرسي الخلافة في عاصمة العباسيين القديمة . بل ان تيمورلنك نفسه الذي عرف عنه عدم الاهتمام بالخلافة وصفه المؤرخ نظام الدين الشامي الذي أرخ لحكمه وفتوحه بأنه « ملجأ الخليفة وظل الرحمن » . ونقش محمد الشيباني مؤسس دولة الأزبك في بلاد ما وراء النهر (١٥٠٠ – ١٥١٠ م) على السكة أنه « امام الزمان

وخليفة الرحمن » . بل إن بعض سلاطين المماليك المتأخرين رغم تأييدهم للخلفاء العباسيين الذين يعيشون في كنفهم لم يحجموا أن يسلبوا الخليفة أقدس ألقابه ، فقــد كان كل من السلطان جقمق (١٤٣٨ — ١٤٥٣) وقايد باي (١٤٦٨ — ١٤٩٥) وقنصوه الغوري (١٥٠٠ — ١٥١٦) يصفون أنفسهم بالامام الأعظم تأكيداً لزعامتهم للعالم الإسلامي وان كانوا لم يستعملوا لقب (الخليفة) فان ذلك لعلمهم أنه قد أصبح مبتذلاً [1] .

---

١ — أرنولد : الخلافة ص ٦٦ — ٦٧ .

١١ . غروب الخلافة العباسية في القاهرة

موقف السلاطين العثمانيين من الخلافة قبل فتح الشام ومصر :

رأينا في الفصل الماضي كيف انتحل بعض الامراء المسلمين لقب الخلافة رغم وجود خليفة عباسي في القاهرة ، ويبدو أن لقب الخلافة خلال الفترة الأخيرة من العصر المملوكي أخذ معنى جديداً فلم يعد يتطلب الانحدار من آل العباس ولا الانتساب لقريش اذ اصبح الحاكم المسلم يستمد سلطته مباشرة من الله فهو وكيله وليس خليفة للرسول ، اما الالقاب الاخرى التي صاحبت لقب خليفة مثل لقب (امام) او لقب (امير المؤمنين) فقد اصبحت في زوايا النسيان فقلما تسمى بها من دعوا أنفسهم خلفاء .

هذه الأحداث جعلت المؤرخ توماس أرنولد[١] يبني رأيه القائل بأن السلاطين العثمانيين قبل فتح الشام ومصر قد تسموا ايضاً بلقب (خليفة) فيقول : وعندما ينتحل كثير من الامراء القليلي الأهمية في العالم الاسلامي

---

١ – الخلافة ص ٧٦ .

هذا اللقب الفخم ، فلا نكاد نستغرب عدم رفضه لسلاطين آل عثمان الذين ازدادت قوتهم ، وما دام كثير ممن كانوا يراسلونهم ينسبون اليهم هذا الشرف في اشكال مختلفة من الخطابات فمن المحتمل انهم لم يرفضوا هذا المديح . ومن هؤلاء السلاطين مراد الاول فبعد احتلاله أدرنة سنة ١٣٦٢ كتب امير كرمانيا في آسيا الصغرى يهنئه على انتصاراته ويصفه بأنه (خليفة الخالق المختار وظل الله على الارض) ، ورد مراد برسالة جاء فيها أن لا فرق في الطبيعة والمادة بين حاكم ومحكوم ، ولكن الله خلع على بعض عبيده المختارين شرف الخلافة ليساعدوا من لا عون لهم . وكان مراد منذ توليته مكرساً كل وقته للحرب والجهاد في سبيل الاسلام ، ولذا اعتبر نفسه (خليفة) بمعنى هذه الكلمة الذي فهمها به معاصروه . وما لبث ان أرسل أحد امراء آسيا الصغرى وهو اصفندياريك سنة ١٣٧٤ خطاباً الى مراد يسميه فيه « صاحب السمو الذي بلغ منزلة الخلافة الرفيعة الشأن سلطان سلاطين الاسلام وخاقان خاقانات البشر » .

أما يزيد الاول (١٣٨٩ — ١٤٠٢) ابن السلطان مراد ، فقال في اخبار انتصاراته التي أذاعها على القضاة وموظفي الدولة : ان الله جهزني بطبيعة تحمل علائم الخلافة لأكون سلطاناً فاتحاً للعالم وانزل كلماته « وجعلناك خليفة على الأرض » . واستمر السلطان محمد الاول (١٤١٣) في انتحال لقب خليفة ، ففي كتابه الى (الشاه رخ) سنة ١٤١٦ يتحدث عن اعمال السلطنة والخلافة ، وفي كتابه الى « قرة يوسف » سلطان التركمان سنة ١٤١٨ يصف عاصمته بدار الخلافة . وكتب اليه احد الامراء فوصفه بأنه « الشمس في سماء الخلافة » كما وصفه والي مقاطعة شروان بأنه « فهرس كتاب السلطنة ، وديباجة رسالة الخلافة الالهية » . واستمر ابنه السلطان مراد الثاني في التلقب بالخلافة فكان الامراء يختمون كتبهم اليه بعبارة : « ضاعف الله القدير أيام سلطنته وزاد في سني حياته وخلافته الى يوم الدين » . ولقب حاكم ماردين السلطان مراد الثاني بأنه « سلطان

سلاطين الاتراك والعرب والعجم ونجم الخلافة وظل رحمة الله » .

واستمر السلطان محمد الثاني على سياسة أسلافه في ادعاء الخلافة ، فقد كتب اليه حاكم التركمان يهنئه فدعا له ان « يديم الله ملك محمد وخلافته وسلطانه الى الابد في الارض كافة » وسماه « نور انسان عين الخلافة » . ولكن محمد الثاني لم يستعمل لقب الخليفة في رسائله الخاصة سواء الى الملوك المعاصرين أو رعاياه .

كتب حاكم التركمان الى السلطان بايزيد الثاني (١٤٨١ – ١٥١٢) فسماه « صاحب الجلالة الذي بلغ منزلة الخلافة الرفيع الشأن وفخر سلاطين العالم الجالس بحق على عرش الخلافة » .

أما السلطان سليم الاول (١٥١٢ – ١٥٢٠) فكان يضفي عليه صفات الخلافة وجلالها قبل ان يتولى العرش حينما كان لا يزال أميراً، فقد وصفه الحاكم التركماني بأنه « مصدر أنوار الخلافة واليد اليمنى للدولة والعدالة والخلافة » ووصفه في خطاب آخر بأنه « شجرة روضة الخلافة الباسقة » كما كتب أبو المظفر شاه الى سليم يصفه بأنه « خير السلاطين زينته الخلافة ، أعظم من تقلد الخلافة الذي رفع رايات الاسلام في سماء المجد ودعامة السلطة والعدل ويد الخلافة اليمنى »[١] .

هل تنازل الخليفة العباسي للسلطان سليم عن الخلافة ؟ :

يذهب معظم المصادر العربية والافرنجية إلى أن الخليفة العباسي المتوكل على الله قد تنازل عن الخلافة للسلطان العثماني سليم الاول بعد فتح مصر سنة ١٥١٧ وبهذه الصورة انتقلت الخلافة الاسلامية من العباسيين الى العثمانيين ، ويقول البعض ان التنازل تم في القاهرة ، ويقول البعض

---

١ – أرنولد : الخلافة ص ٧٩ –٨١ .

الآخر انه تم في القسطنطينية ولكن الجميع يتفقون في القول بأن الخلافة انتقلت الى السلطان سليم ومن خلفه من السلاطين بناء على تنازل الخليفة العباسي .

كان اول من قال بهذا الرأي موراجي دوسون (D'Hosson) في كتابه باللغة الفرنسية (سلسلة عامة لنسب آل عثمان)[1] . على أن دوسون لم يشر الى مصدر من المصادر التي يؤيد بها ما ذهب اليه بل ولم يحاول أحد من المؤرخين الذين نقلوا عنه ، ان يكشف عن حقيقة هذا القول . ومن ثم انتقلت هذه الفكرة من كتاب الى آخر من الكتب التاريخية شرقية كانت او اوروبية واصبحت امراً متفقاً عليه وايدته الدعاية الاوروبية التي انتشرت في العالم الاسلامي لتأييد دعوى العثمانيين للخلافة .

ومن المؤرخين الافرنج الذين يؤيدون انتقال الخلافة من العباسيين السير وليم ميور[2] إذ قال : لم يسمح للخليفة المتوكل بالعودة من القسطنطينية الى القاهرة إلا حينما تنازل عن لقبه ووظيفته الى العثمانيين ، ومنذ تنازل الخليفة المتوكل عن الخلافة صار سلاطين العثمانيين هم الخلفاء واتخذوا لأنفسهم جميع حقوق الخلافة الاسلامية .

تستند هذه المصادر المؤيدة لتنازل الخليفة لسليم إلى بعض الشواهد ، فقد كان بعض المتصلين بالسلطان سليم يطلقون عليه لقب الخلافة في مدائحهم ومن هؤلاء (ابن زنبل) الذي صحبه في فتح مصر فلقبه بلقب « خليفة الله في الأرض » . ووصفه المؤرخ قطب الدين الذي كان مفتي مكة بلقب « خاقان » و « خير الخلفاء » كما كتب شريف مكة بركات الى سليمان سنة ١٥٢٠ م مهنئاً إياه بالعرش ولقبه « خليفة الله » ، ولقب قطب الدين مفتي مكة سليمان الثاني (١٥١٦ — ١٥٧٤ م) بلقب الخلافة ،

---

١ — Tableau generale de L'Empire Othman

٢ — دولة المماليك في مصر ص ١٨٤ .

ولكن فات هذه المصادر ان استعمال لفظ خلافة قبل فتح مصر في العصر الذي كان يقصد به مجرد حاكم قوي مستقل لمن اقوى الأدلة على ان سلاطين العثمانيين لم يكونوا خلفاء او ائمة بالمعنى الذي كان يقصد به أيام الخلفاء الراشدين والأمويين [1] .

ولكن هناك أدلة تاريخية لا تؤيد تنازل الخليفة العباسي عن الخلافة للسلطان سليم وتذهب الى أن هذه القصة ما هي إلا اسطورة تكونت بعد فتح مصر وبعد وفاة السلطان سليم بمدة غير قصيرة .

أولاً : كان المؤرخ (ابن إياس) معاصراً لاستيلاء العثمانيين على مصر ، فقد دون في تاريخه « بدائع الزهور » كثيراً من الحوادث بتفاصيل وافية ، لكنه لم يذكر شيئاً عن أمر الخليفة . يتكلم ابن إياس عن سفر الخليفة الى القسطنطينية ويروي أخباره هناك في مناسبات كثيرة ويتحدث عن اخبار سليم ولكنه في كل مرة يسمي المتوكل بالخليفة ويسمي سليماً باسم السلطان ولم يشر ولو اشارة عابرة الى تبدل أمر من أمور الخلافة . وكل ما ذكره ابن اياس (تاريخ مصر ج٣ ص ١٧٦) ان المتوكل سلم الى السلطان سليم مخلفات الرسول وهي البردة التي كان يلبسها الخلفاء العباسيون في بغداد وبعض من شعر لحية الرسول وسيف الخليفة عمر بن الخطاب . وعلق ارنولد (الخلافة ص ٨٦) على هذا الحدث بأن سليماً نقل هذه المخلفات الجليلة كقسم من الغنائم التي غنمها بفتحه مصر ، ولكن ليس هناك دليل على انتقال الخلافة من المتوكل الى سليم .

ثانياً : لا يوجد تاريخ تركي كتب في عهد السلطان سليم الا أن منشآت فريدون بك تضم نوعاً من اليوميات التي تسجل ما فعله السلطان سليم منذ مغادرته العاصمة لفتح الشام ومصر حتى عودته بعد الفتح الى القسطنطينية ،

---

١ – حسن وعلي ابراهيم : النظم الاسلامية ص ١٤٠ .

وفي هذه اليوميات لا توجد كلمة واحدة حول انتقال الخلافة رغم ان هذه المذكرات لم تترك صغيرة او كبيرة الا ذكرتها ، فهذه اليوميات تذكر الأيام التي قضاها السلطان في العيد والجوامع التي صلى فيها صلاة الجمعة ، والاشخاص الذين أنعم عليهم او قتلهم او قابلهم ، وبين كل هذه التفاصيل لا تذكر شيئاً عن أمر الخلافة . وتصف المذكرات الخليفة العباسي بأنه « الخليفة المتوكل على الله مولانا محي الدين من آل العباس » الذي هو بقية الخلافة العباسية في المحروسة المصرية [1] .

ثالثاً : ان أقرب التواريخ العثمانية الى عهد السلطان سليم هو المعروف باسم « تاج التواريخ » ، ان هذا التاريخ يحتوي بحثاً طويلاً عن السلطان سليم ومع هذا لا يذكر شيئاً عن الخلافة . ومما يلفت النظر ان كاتب « تاج التواريخ » كان ابن شيخ الاسلام الذي رافق السلطان سليماً خلال سفره الى مصر ، وقد دون عدة وقائع وأمور نقلاً عن والده . فلو كان حدث تبدل ما في أمر الخلافة خلال وجود السلطان سليم في مصر او بعد عودته الى القسطنطينية لذكر ذلك بكل اهتمام .

رابعاً : كتب السلطان سليم رسالة طويلة الى ابنه وولي عهده سليمان فصل فيها انتصاراته في مصر لكنه لم يذكر شيئاً عن الخلافة . ولم يهتم سليم طوال عهده بلقب « خليفة » بل كان يسمي نفسه دائماً « سلطاناً » كما اعتز بلقب « خادم الحرمين » بعد ان أعلن شريف مكة ولاءه لسليم الاول ، وكان هذا اللقب ينتهي به السلطان المملوكي وليس الخليفة العباسي ، وبطبيعة الحال لم يستطع سليم ان يتلقب بهذا اللقب الا بعد انتهاء حكم سلاطين المماليك . وكان متمسكاً بهذا اللقب ، حتى انه عندما سمع أنه وصف في الخطبة في جامع حلب الكبير بخادم الحرمين الشريفين سجد

---

١ — أحمد فريدون : منشآت السلاطين جـ ١ ص ٣٩٨ — ٤٠٦ .

شكراً لله وخلع على الخطيب خلعاً سنية ، كما ان سليماً لم ينقش على السكة التي ضربت باسمه اي لقب يشير الى الخليفة . والحقيقة أن سليماً كان لا يعبأ بلقب (خليفة) فقد اصبح لقباً رخيصاً ، وكـــان سليم يعلم أن عدوه اللدود شاه فارس عندما استولى على بغداد منذ سنوات قليلة (١٥٠٨) من التركمان قد عين خصياً حاكماً لبغداد ولقبه بخليفة الخلفاء [١] .

وعلى الرغم من أن السلطان سليماً تلقب بلقب الخلافة قبل فتح مصر كما تلقب آباؤه بهذا اللقب منذ قرن ونصف ، فقد كان من الطبيعي أن تستمر هذه التسمية في بقية عهده . بيد أننا نرى أن تلقيب سليم بلقب الخلافة بعد فتح مصر انعدم او كاد ومن ثم لا نجد اختلافاً ما في الالقاب التي كان يطلقها عليه « قضاة بروسه » بعد الفتح والذي كان يخاطب به هو وأجداده بعد الفتح وذلك مثل « صاحب الجلالة ، ظل الله ، بادي شاه ، حامي العالم ، فليثبت الله هذه الاسرة التي تحمل دعائم الخلافة » وهو نفس الأسلوب الذي كان يستعمل في مخاطبة سلاطين العثمانيين منذ مائة وخمسين سنة . هذا الى اننا لا نقف على استعمال لفظي (إمـــام) و (امير المؤمنين) .

من ذلك نرى أن سليماً لو اعتبر نفسه خليفة للخلفاء العباسيين لاستعمل القاب الخلافة بالاسلوب القديم . ومما يؤيد هذا الرأي ايضاً ان سليمان لم يذكر في مراسلاته مع أبيه سليم لقب الخلافة ولا أي لقب آخر يتصل به ، كما لا نجد في رسائله الى كبار الموظفين بعد اعتلائه العرش ان أباه كان خليفة بالمعنى الاسلامي القديم وإنما أشار اليه باعتباره سلطانـــاً فحسب فيقول « السلطان الخاقان . خادم الحرمين » [٢] .

---

١ – أرنولد : الخلافة ص ٨٨ .

٢ – الخلافـــة ص ٩٤ .

قال فون هامر (Von Hammer) : كان لقب خليفة يطلق في ذلك العصر على صغار الامراء ، حتى لم يبق لــه شيء من مظاهر الاحترام والتقديس التي كانت له في العصور الاولى ، ولا يبعد ان يكون سليم قد وجد أن لقب الخلافة قد أصبح شائع الاستعمال مبتذلاً .

ولا عجب في عدم اهتمام السلطان سليم بلقب خليفة ، لأن الخلافة في ذلك الحين كانت قد فقدت مكانتها منذ مدة طويلة ، واصبح الخليفة « مقام تبرك » لا يتمتع بأية سلطة فعلية أو اسمية فاقتصر عمله على أن يدخل في التشريعات مع القضاة الأربعة ، وكان يتولى مقام الخلافة بأمر يصدره السلطان بعد مشاورة العلماء والقضاة . حتى انه يقصى عن منصبه ايضاً بأمر من السلطان في بعض الأحيان . فقد وصف المؤرخ ابن اياس [1] تولية الخليفة المستنجد بالله أبي المحاسن يوسف بعد عزل أخيه حمزة من الخلافة فقال : « ... فلما تكامل المجلس ، قال قاضي القضاة علم الدين صالح البلقيني : نقل بعض علماء مذهبي ان السلطان له ان يعزل الخليفة ويولي غيره . فهذا كان حاصل المسألة في خلع الخليفة حمزة وولاية أخيه الجمالي يوسف . فعندئذ قام القاضي كاتب السر محب الدين بن الاشقر وقال في المجلس : نشهد عليك يا مولانا السلطان انك عزلت الخليفة حمزة من الخلافــة ووليت أخاه الجمالي يوسف . فقال : نعم فأحضروا له التشريفة ... »

يؤيد الدكتور فيليب حتي [2] هذا الرأي فيقول : كان موت الخليفة العباسي المتوكل بعد عودته من القسطنطينية الى القاهرة خاتمة آخر فصل في تاريخ الخلافة العباسية الصورية . وسواء – كما ينسب اليه دون أدلة كافية – أكان قد تنازل عن منصبه للسلطان العثماني ام لم يفعل فان الحقيقة الثابتة هي أن الحاكم التركي في القسطنطينية ظل بالتدريج يتمتع بامتيازات

---

١ – بدائع الزهور ج ٢ ص ١٨٦ .

٢ – تاريخ العرب ص ٩١٢ .

الخلافة حتى انتهى به الأمر الى انتحال اللقب نفسه، وعلى الرغم من ان بعض اخلاف سليم كانوا يطلقون على انفسهم لقب الخليفة ويناديهم الناس بهذا اللقب، إلا أن استعمال هذا اللقب كان إضافياً ولم يعترف به خارج ممتلكاتهم. وأول وثيقة سياسية معروفة اطلقت على السلطان العثماني لقب خليفة واعترفت بسلطته الدينية على المسلمين خارج حدود تركيا هي المعاهدة الروسية التركية المعروفة باسم (كوشوك كينارجي) التي وقعت سنة ١٧٧٤ .

كان كل شيء يدل على ان سلاطين آل عثمان لم يعيروا — في بادىء الأمر — أمر الخلافة أي اهتمام. وعندما اهتموا بها فيما بعد، وأرادوا ان يستفيدوا منها، بصورة تدريجية، اختلق ساستهم ومؤرخوهم اسطورة التنازل وانتقال الخلافة من العباسيين الى العثمانيين.

ماذا كان مصير الخليفة العباسي الأخير ؟ :

في شهر مايو (أيار) ١٥١٦ خرج السلطان المملوكي قنصوه الغوري من مصر الى الشام في صحبة الخليفة المتوكل العباسي للقاء السلطان سليم. ولكن قنصوه هزم في موقعة مرج دابق ثم لقي حتفه. استقبل سليم الخليفة في معسكره قرب مدينة حلب، وحينما علم سليم ان موطن الخليفة الاصلي هو بغداد عزم على ارساله اليها وخلع عليه واغدق عليه الأموال وسمح له بالعودة الى حلب. وفي نهاية سبتمبر (أيلول) ١٥١٦ دخل سليم دمشق وتبعه الخليفة اليها .

اختار المماليك (طومان باي) خلفاً للسلطان الغوري، ولكن كان لا بد من وجود الخليفة العباسي للاحتفال بتولية السلطان الجديد وإصدار تفويض له حتى يمارس سلطته. وكان هناك المستمسك « ابو المتوكل » وكان قد اعتزل الخلافة سنة ١٥٠٩ م لشيخوخته فناب عن ابنه في الحفل الذي اقيم في شهر اكتوبر (تشرين الأول) ١٥١٦ م .

ولكن سليمان استمر في زحفه نحو مصر وهزم طومان باي في الريدانية في ٢٢ يناير (كانون الثاني) ١٥١٧ ودخل القاهرة . واقيمت الخطبة لسليم في مساجد القاهرة فوصفوه بأنه (السلطان ملك البرين والبحرين ، سلطان العراقين وخادم الحرمين ، الملك الناصر السلطان سليم شاه) ثم قبض على طومان باي وشنقه ونقض عهده بمنحه الأمان .

منح السلطان سليم الخليفة العباسي بعض السلطة كما اشركه في إدارة البلاد حتى ان قصره قد غص بالمتظلمين الذين هرعوا اليه يلتمسون منه التوسط لدى سليم لقضاء حاجاتهم . وإنما لجأ الى هذه السياسة ليصلح بين أهالي القاهرة والحكومة الجديدة ويمهد بذلك السبيل لانتقال الحكم الى العثمانيين ، وتقدم الكثير بالهدايا الى الخليفة المتوكل الى حد لم يسبقه اليه من تولى الخلافة قبله من الخلفاء ، ولكن الخليفة شعر بالغرور فتعالى وتكبر وخشي سليم من ازدياد نفوذه فنفاه الى القسطنطينية (يونيو — حزيران — ١٥١٧) .

وفي القسطنطينية ساءت العلاقات بين السلطان والخليفة ، فقد تشاحن الخليفة مع ذوي قرباه على توزيع مخصصاته كما تألم سليم من تبذير الخليفة وإسرافه في شراء الجواري والمغنيات فاعتقله سليم في احد القصور حتى ١٥٢٠ م . ثم عاد الخليفة الى القاهرة في عهد السلطان سليمان القانوني محتفظاً بلقبه كخليفة . وفي سنة ١٥٢٢ م قام بمراسم تنصيب احمد باشا والي مصر الذي ثار على السلطان سليمان واستقل بهذه البلاد مدة من الزمن سلطاناً عليها وما لبث ان مات المتوكل سنة ١٥٤٣ م .

هل نعتبر السلطان العثماني خليفة ؟ :

كان السلاطين العثمانيون اول من تلقبوا بلقب الخلافة دون أن يكونوا من قبيلة قريش ، ورغم ذلك فان الأئمة الحنفية يرون صحة خلافة

بني عثمان إذ في رأيهم ان الخليفـــة تولى الخلافة بخمسة حقوق هي :

١) حق السيف : ومعنى ذلك ان طالب الخلافة يجب ان يقوم بدعوته انصار لا يقوى عليهم مناظر آخر على وجه الارض ، وقد كان ذلك شأن السلطان سليم يوم التمس الخلافة بعد فتح مصر .

٢) حق الانتخاب : اي مصادقة أهل العقد وهو مجلس من الأئمة والعلماء ، وحجتهم في ذلك أن هذا المجلس كان في أول عهد الاسلام بالمدينة ثم نقل الى دمشق ثم الى بغداد ونقل من بغداد الى القاهرة فيجوز ايضاً نقله من القاهرة الى القسطنطينية ، فلما فتح السلطان سليم مصر حمل معه جماعة من علماء الازهر واضاف اليهم عدة من علماء الاتراك والف من الفئتين مجلساً صادق على انتخابه وسلموه السيف . وكانت هذه هي العادة الجارية في تقليد الخلفاء العثمانيين السيف من أيدي العلماء ، وكانوا يفعلون ذلك في جامع ايوب بضواحي الآستانة .

٣) الوصاية : وهي وصاية الخليفة لمن يخلفه بعد موته . وقد أوصى المتوكل آخر الخلفاء العباسيين بمصر يوم فتحها الاتراك للسلطان سليم بالخلافة .

٤) حماية الحرمين : فقد كان السلاطين العثمانيون حماة الحرمين ، الا سبع سنوات تولاهما فيها ائمة ضعفاء في القرن العاشر وسبع سنوات اخرى تولاهما فيها الوهابيون .

٥) الاحتفاظ بالامانات : وهي المخلفات النبوية المحفوظة في الآستانة ، وهم يقولون ان الآثار النبوية سلمت من اغتيال التتر في بغداد ، فحملها الخلفاء العباسيون معهم الى القاهرة وما زالت فيها حتى نقلها السلطان سليم الى القسطنطينية وما زالت محفوظة الى الآن في احد القصور القديمة (١) .

---

١ — جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ١ ص ١٢٩ .

١٢ . الخلافة العثمانية في القسطنطينية

موقف السلاطين العثمانيين بعد سليم من الخلافة :

لم يهتم السلاطين العثمانيون الذين حكموا بعد سليم بألقاب (الخليفة) و (الامام) و (أمير المؤمنين) فلا نرى لهذه الأسماء ذكراً في المكاتبات الرسمية ، فقد كان السلاطين العثمانيون متأثرين بالمذهب الحنفي ، وهو مذهب الدولة الرسمي ، الذي يذهب الى أن الخلافة لم تـــدم أكثر من ثلاثين سنة ، أي الى أن قتل علي بن أبي طالب ، ثم بدأت الحكومة الملكية . كما أننا لا نعثر على هذه الألقاب في كتاب (ملتقى الأبحر) الذي وضعه الفقيه التركي ابراهيم الحلبي ، ويعتبر مرجعاً لتاريخ الدولة العثمانية ، كما لا نجدها أيضاً في منشآت أحمد فريدون بك سكرتير الصدر الأعظم « محمد صقلي » والتي قدمهـــا للسلطان مراد الثالث في عيد الفطر سنة ١٥٧٥ ، وقد ضمت كثيراً من المراسيم السلطانية ، وتصف السلطان بكثير من الألقاب بلغت ستة عشر لقباً ، لا نجد بينها ما يدل على الخلافة سوى أربعة ذكرت الخلافة عرضاً دون تلقيب السلطان بلقب خليفة صراحة ،

مثل «جناب خلافت، خلافت مرتبت، روضيّ خلافت»[1].

بدأ اهتمام السلاطين العثمانيين بلقب «خليفة» في القرن ١٨ م حينما احتاجوا الى استخدامه في سياستهم الخارجية خلال معاملاتهم مع الدول المسيحية، فقد أصبحت العلاقة بين السلطان العثماني وبين المسلمين الذين يسكنون خارج الدولة العثمانية تشبه العلاقة بين دولة مسيحية ورعايا الكنيسة القاطنين في دولة أخرى، وكانت المناسبة الأولى التي استخدم فيها السلطان العثماني لقب الخلافة هي معاهدة (كوشوك كينارجي) سنة ١٧٧٤ بين السلطان عبدالحميد الأول وامبراطورة روسيا كاترين الثانية، فقد انتهز المفاوضون العثمانيون فرصة مطالبة أمبراطورة روسيا بحماية مسيحيي الكنيسة الأرثوذكسية القاطنين في الأراضي العثمانية ليطالبوا بحماية السلطان العثماني للمسلمين في شبه جزيرة القرم، وحق السلطان في منح تفويض لوالي القرم بالحكم وتعيين القضاة والمفتين. وكتبت المعاهدة بثلاث لغات هي: التركية والايطالية والفرنسية، في النص التركي يوصف السلطان بأنه إمام المؤمنين وخليفة من يؤمنون بوحدانية الله، وفي الترجمة الايطالية تصفه بأنه الخليفة الاسلامي الأعظم، وفي الترجمة الفرنسية تصفه بأنه الخليفة الاسلامي الكبير[2].

أصبح السلطان الخليفة في القسطنطينية أقوى حاكم إسلامي، فقد ورث خلفاء بغداد كما ورث أباطرة بيزنطة. وبتحطيم قوة المماليك وامتداد الدولة العثمانية الى ضفاف البوسفور انتقل مركز القوة الاسلامية الى الغرب. والحق يقال إنه في ذلك الوقت قد انتقل مركز الحضارة العالمية الى الغرب أيضاً. وكان اكتشاف امريكا ورأس الرجاء الصالح مؤذناً بنقل التجارة العالمية الى طرق جديدة، وأسدل ستار النسيان على الممالك

---

١ — أرنولد : الخلافة ص ١٠٠ .
٢ — الخلافة ص ١٠١ .

الواقعة في شرق البحر الأبيض. وبذلك انتهى تاريخ الخلافة العربية والدول الاسلامية التي تأسست على انقاض الامبراطورية العربية في العصور الوسطى ، وافتتحت صفحة جديدة في التاريخ الحديث هي صفحة الامبراطورية والخلافة العثمانية [١].

ظهرت بعض الآراء التي تشبّه السلطان — باعتباره خليفة الاسلام — بالبابا باعتباره الرئيس الروحي للمسيحيين الكاثوليك ، وكان أول من نادى بمثل هذا الرأي (دوسون) في كتابه (سلسلة عامة لنسب آل عثمان) الذي نشره باللغة الفرنسية في باريس سنة ١٧٨٧ فتكلم عن « سلطة السلطان الكهنوتية » ووصف السلطان بأنه « بابا المسلمين » وهذا يذكرنا بما قاله الجغرافي « ياقوت » حينما تحدث عن روما فذكر انها المدينة التي يسكن فيها البابا الذي يطيعه الفرنجة ، وهو لهم بمنزلة الامام متى خالفه أحد منهم كان عاصياً عندهم ومخطئاً يستحق النفي والطرد والقتل ، كما سمى المؤرخ ابن الجوزي (١١٨٦ — ١٢٥٧) البابا « خليفة الفرنجة » كما وصف ابن خلدون (١٣٣٢ — ١٤٠٦) البابا بأنه « خليفة المسيح » [٢].

ومهما كان الأمر ، فقد استفاد السلاطين العثمانيون من الخلافة فائدة عظيمة ، لأن المهم في أمثال هذه الأمور ليس موافقتها أو عدم موافقتها للحقائق التاريخية ، بل هو اعتقاد الناس بها ، أو عدم التفاتهم اليها . ولا شك في أن اعتقاد المسلمين بالخلافة العثمانية قوّى نفوذ الدولة العثمانية وسهّل

---

١ — حتي : تاريخ العرب ص ٩١٢ .
٢ — الخلافة ص ١٠٤ .

حكمها في الولايات العربية والاسلامية . ولاظهار قوة هذا التأثير المعنوي ننقل ما كتبه الزعيم الوطني المصري محمد فريد في كتابه (تاريخ الدولة العلية العثمانية) تعليقاً على مقتل السلطان عثمان الثاني : « فأعدموا السلطان عثمان غير مبالين بهذا الجرم العظيم ، والاثم الذي ما بعده اثم الا الكفر المبين ، فانه ان كانت مخالفة أوامر الخليفة الأعظم تعد كفراً بنص الكتاب الشريف فما بالك بقتله ؟ وهنا يقف القلم ويكف المداد عن وصف هذه الفعلة الشنعاء والكبيرة الشعواء تاركاً وصفها للقارىء اللبيب والمطلع الأريب لعجزي عن هذا المقام العالي ... »(١)

موقف السلطان عبد الحميد الثاني من الخلافة والجامعة الاسلامية :

لم يظهر اتخاذ سلاطين العثمانيين لقب الخلافة بالمعنى القديم — الذي يقصد به السيطرة على المسلمين كافة — لم يظهر الا في القرن التاسع عشر في عهد السلطان عبد الحميد الثاني . فقد ظهر هذا اللقب بصفة رسمية في دستور مدحت باشا الصادر في ٢٤ ديسمبر (كانون الأول) ١٨٧٦ . فقد نصت المادة الثالثة على أن السلطنة العثمانية تؤول الى أكبر أعضاء البيت العثماني ، ونصت المادة الرابعة على أن صاحب الجلالة السلطان خليفة المسلمين هو حامي الاسلام .

تولى السلطان عبد الحميد الثاني العرش في وقت حفلت فيه الدولة العثمانية بالكوارث والنكبات ، فقد أعلنت الثورة في الهرسك ، ثم وقعت حرب مع الصرب والجبل الأسود ، وفي السنة التالية (١٨٧٧)

١ — تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ١٢٤ .

أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية . ووصل الجنود الروس الى أسوار القسطنطينية (١٨٧٨) ، وأدت معاهدة برلين الى ضم البوسنة والهرسك الى النمسا ، وحصلت رومانيا وصربيا والجبل الأسود على الاستقلال التام وأصبحت بلغاريا دولة مستقلة مع الاعتراف بسيادة اسمية للدولة العثمانية . وشعر عبدالحميد بضياع هذه المساحات الواسعة من ممتلكات الدولة العثمانية في أوروبا ، فبدأ يهتم بالممتلكات الاسلامية والعربية ، ورأى أن يتخذ الخلافة طريقاً الى المحافظة على هذه الولايات .

في ذلك الحين ، زادت أطماع الدول الأوروبية في الولايات العربية الخاضعة للعثمانيين ، وسعت وراء نيل امتيازات واسعة ، وتدخلت لتأييد بعض الطوائف ، مما أضعف الدولة العثمانية ، مثل أطماع الفرنسيين في سوريا ولبنان وشمالي افريقية ، والانجليز في مصر والسودان والعراق والخليج الفارسي والبحر الأحمر ، والألمان في استغلال المرافق الاقتصادية للدولة ، والايطاليين في ليبيا .

ظل العرب المسلمون يعتبرون الدولة العثمانية دولتهم ويستسلمون لحكمها ، لأنها دولة الخلافة الاسلامية . وظل العرب المسيحيون يشعرون بأنها غريبة عنهم ، لأنها تعتبرهم رعايا ، ويتوجهون نحو الدول الأوروبية لأنها تحميهم في كثير من المناسبات . ولم تكن فكرة القومية العربية قد ظهرت بعد لتحول أنظار المسلمين عن الدولة العثمانية وأنظار المسيحيين عن الدول الأوروبية لكي تجمع كلمتهم حول العروبة التي تستمد قوتها من اللغة والتاريخ[١] .

---

١ — القومية العربية من الفجر الى الظهر : للمؤلف ص ١٥٢ .

كانت الوحدة الاسلامية في ذلك الوقت ، وقبل ظهور فكرة الجامعة الاسلامية ، تقوم على ركنين هامين : الحج الى الأماكن المقدسة في الحجاز ، والخلافة الاسلامية . أما الحج فهو بمثابة مؤتمر اسلامي سنوي يضم المسلمين من جميع الأنحاء . أما الخلافة فقد كانت النواة التي تجمع المسلمين حولها ، ولكنها لم تعد قوية كما كانت أيام الأمويين والعباسيين ، ولكن السلاطين العثمانيين اعتبروا أنفسهم خلفاء المسلمين وخاصة في وقت ضعف الدولة العثمانية .

وفي منتصف القرن ١٩ تعرض العالم العربي والاسلامي للأطماع الأوروبية ، فقد فتح الفرنسيون الجزائر سنة ١٨٣٠ ، واستولت روسيا على القوقاز ، وسيطرت انجلترا على الهند ، وهولندة على أندونيسيا . وخاف المسلمون أن يسيطر الأوروبيون على العالم الاسلامي جميعه ، ولذا فكر المسلمون في جمع كلمتهم للوقوف أمام التيار الأوروبي ، فنشأت فكرة الجامعة الاسلامية . وساعد على ظهور هذه الفكرة ، ظهور السيد جمال الدين الأفغاني (١٨٣٩ ــ ١٨٩٧) ، فقد كانت تعاليمه وآراؤه من الأسس التي قامت عليها فكرة الجامعة الاسلامية ، وقد تنقل بين الأقطار الاسلامية المختلفة ينشر فيها هذه الفكرة . وقامت دعوة جمال الدين الأفغاني على أساسين :

أولهما : اصلاح حال المسلمين وتلقينهم المدنية الحديثة .

ثانيهما : تحرير الشرق من سيطرة الغرب ولفت أنظار المسلمين الى ما وصلوا اليه من ضعف وتأخر نتيجة عدم مسايرتهم الحضارة والمدنية الحديثة حتى طمع الأجانب في بلادهم . ودعا جمال الدين المسلمين الى الاتحاد ليقفوا في وجه الاستعمار .

وهكذا كان جمال الدين يدعو الى وحدة شرقية اسلامية عامة ، تكفل لأمم الشرق استقلالها وحريتها ، وخاصة أن الدولة العثمانية لم تعد قادرة على حماية ولاياتها الاسلامية من أطماع دول أوروبا .

رأى السلطان عبد الحميد أن يستفيد من ظهور فكرة انشاء الجامعة الاسلامية ليتخلص من مشاكله الداخليـة حيث قام بعض المصلحين بزعامة مدحت باشا يطالبونه بالدستور ، ومشاكله الخارجية الممثلة في تهديد روسيا المستمر وثورات البلقان الدائمة . ورأى عبد الحميد أن يقوي مركزه عن طريق الدين ، فيتبنى سياسة (الجامعة الاسلامية) ، وخير وسيلة لذلك احياء (الخلافة الاسلامية) حتى يعتبره المسلمون حامي الاسلام ضد الاستعمار الأوروبي . فدعا الأمم الاسلامية الى الالتفاف حول الدولة العثمانية باعتبارها دولة الخلافة التي تحمي الاسلام والمسلمين . وأرسل دعاته الى جميع البلاد الاسلامية ، وخاصة التي هددتها الأطماع الأجنبية مثل مصر والهند وأفغانستان والملايو وغيرها .

لم تكن سياسة عبد الحميد قائمة على تبني أفكار جمال الدين الأفغاني ، بل كانت في جوهرها محاولة من جانب الخليفة السلطان لتأييـد السلطة الزمنية في الدولة العثمانية باعلان حقوقه وامتيازاته كخليفة المسلمين على نطاق واسع .

كانت الدول الأوروبية تعترف بأن السلطان العثماني هو في نفس الوقت خليفة المسلمين منذ قرنين من الزمن . ولكن بمرور الوقت طغت السلطة الزمنية على السلطة الدينية ، حتى فقد لقب الخليفة قوته ومغزاه .

رأى عبد الحميد أن يقوي مركزه كسلطان بأن يعيد الى الخلافة مهابتها الاولى ، باقناع العالم بأن الخلافة والسلطنة شيء واحد ، وأن يتخـذ الخلافة وسيلة لتحقيق أغراضه السياسية ، وهذا جعل الكثير يربطون

بين سياسة عبد الحميد ودعوة جمال الدين الأفغاني ، ولكنها في حقيقة الأمر صلة سطحية غير حقيقية [1] .

نادى عبد الحميد بأن سلطته الزمنية تستند الى سلطته الدينية ، فهو خليفة النبي ، وخادم الحرمين الشريفين ، وأمير المؤمنين ، وظل الله على الأرض ، وبذلك اكتسب احترام رعاياه المسلمين . وفي الخارج ، كانت سياسته الاسلامية ترمي الى تقوية مركز الدولة العثمانية ، بأن يكتسب اجلال الملايين من المسلمين المقيمين خارج مملكته ، والتابعين لبريطانيا وفرنسا وروسيا .

أحاط عبد الحميد حياته الخاصة باطار من التقوى والتقشف ، فكان يقوم بالفروض الدينية على أكمل وجه ، والتف حوله عدد كبير من الفقهاء ورجال الدين ، وانشأ معهداً دينياً لتخريج الوعاظ الذين بعث بهم الى جميع أرجاء العالم الاسلامي ينادون بعبد الحميد خليفة للمسلمين . ونجح عبد الحميد في أن يفوز بتأييد شريف مكة ، فنادى به خليفة وسط الحجاج ، وسخّر عبد الحميد الصحافة لتأييد دعوته[2] .

وكانت زيادة الأطماع الأوروبية في العالم الاسلامي والعالم العربي عاملاً هاماً في نجاح الجامعة الاسلامية ، ورحب بالفكرة زعماء عرف عنهم الوطنية مثل مصطفى كامل الزعيم المصري ، فقد كتب يقول : « إننا نحب الدولة العثمانية لأننا قبل كل شيء نريد أن نرى أمة شرقية قوية تصدر منها الأنوار الى كل أمة شرقية ، ولأننا بصفتنا مسلمين نرى أنها تحمي المسلمين في الشرق ، وتحفظ البلاد الطاهرة المقدسة ، فمملكة الخلافة الاسلامية هي في الحقيقة مملكتنا وقبلتنا التي اليها نلجأ ونحوها نتجه » .

---

١ – انطونيوس : يقظة العرب ص ٧٣ .
٢ – القومية العربية : للمؤلف ص ١٦٥ .

وساعد على انتشار فكرة الجامعة الاسلامية تقدم طرق المواصلات ، ونهضة الصحافة في البلاد الاسلامية العربية التي لعبت دوراً كبيراً في نشر مبادىء جمال الدين الافغاني ، كما لعبت عوامل اقتصادية هامة دوراً كبيراً في نجاح الجامعة الاسلامية . إذ كانت الأطماع الاقتصادية الأجنبية تسير جنباً الى جنب مع الأطماع السياسية ، فقد تدفقت على الأقطار الاسلامية رؤوس الأموال الاجنبية واستثمر الأجانب مرافقها ، وأدى الاستعمار الاقتصادي الى استعمار سياسي ، ورأى المسلمون أن الجامعة الاسلامية تخلصهم من الاستعمارين على السواء .

استمر السلطان عبدالحميد في تنفيذ الجامعة الاسلامية بكل الوسائل الممكنة . ومن أبرز هذه الوسائل مد الخطوط الحديدية ، وكان يهدف الى توطيد نفوذه في أطراف الدولة التي لم تخضع لسلطانه الا خضوعاً اسمياً ، وربط الولايات التي بدأ فيها الوعي القومي بعجلة الدولة العثمانية ، مثل سوريا والعراق وكردستان والحجاز ، وإجبار هذه الولايات على الاندماج في الدولة والاشتراك في الدفاع عنها بتقديم الرجال والأموال .

بدأ السلطان عبدالحميد في تنفيذ سياسة مد الخطوط الحديدية بمد خط حديدي من دمشق الى المدينة ، وكان ينوي مده الى مكة ، بدلاً من طرق القوافل القديمة . وكان الغرض الظاهر خدمة الحجاج وتسهيل الحج ، بينما رمى عبدالحميد الى أهداف سياسية وعسكرية . فمن الناحية السياسية خلق المشروع في انحاء العالم الاسلامي حماسة دينية كبيرة ، فقد طالب عبدالحميد المسلمين بالتبرع للمشروع فانهالت التبرعات ، وتبرع هو بمبلغ كبير ، وحسم عشرة في المائة من مرتبات الموظفين ، وغطت التبرعات ثلث النفقات ، ونال عبدالحميد رضا المسلمين . أما الأغراض العسكرية فقد أراد عبدالحميد تسهيل نقل الجيوش الى الجزيرة العربية ، وخاصة الحجاز واليمن ، حتى يضمن استقرار خضوعها للدولة العثمانية .

وصل الخط الى المدينة المنورة في أغسطس (آب) ١٩٠٨ ، ثم أدرك الشريف الحسين بن علي الأهداف السياسية والعسكرية الحقيقية ، فبدأ يناهض المشروع ، حتى إذا قامت الحرب العظمى الأولى اتفق الحسين والانجليز على تخريب الخط الحديدي[١].

وقد كتب السفير البريطاني في القسطنطينية في تقريره السنوي لعام ١٩٠٧ ما يلي : « ان بين حوادث السنوات العشر الاخيرة عناصر بارزة في الموقف السياسي العام ، أهمها خطة السلطان الماهرة التي استطاع أن يظهر بها أمام ثلاثمائة مليون من المسلمين في ثوب الخليفة الذي هو الرئيس الروحي في الدين الاسلامي . وأن يقيم لهم البرهان على قوة شعوره الديني وغيرته الدينية ببناء سكة حديد الحجاز التي ستمهد الطريق في القريب العاجل أمام كل مسلم للقيام بفريضة الحج الى الأماكن المقدسة في مكة والمدينة . وبهذا تفتح له أبواب الحياة الأخرى ، وما تحويه من جنة ونعيم . وقد ترتب على هذه السياسة أنه أصبح حائزاً على خضوع رعاياه له خضوعاً أعمى بشكل لم يسبق له مثيل . فباتوا نتيجة هذا الخضوع راضين عن حكمه الاستبدادي الذي قد لا نجد في جميع أدوار التاريخ ما يحاكي شدته . وهكذا أصبحت إرادة السلطان قانوناً في البلاد ، فاذا ما كتب لمسلم بائس أن يئن تحت وطأة الاضطهاد والاستعباد القاسي من جانب الحكومة أعلن شكواه من الموظفين دون أن ينسب الى عمل سيء » [٢].

كان سقوط السلطان عبدالحميد الثاني بعد عزله سنة ١٩٠٨ نذيراً بموت فكرة الجامعة الاسلامية التي حمل لواءها فترة طويلة .

---

١ – عزت عبد الكريم والبطريق : العالم العربي في العصر الحديث ص ١٠٨ .
٢ – انطونيوس : يقظة العرب ص ٧٣ .

موقف العرب من الخلافة العثمانية في مطلع القرن العشرين :

كانت الدولة العثمانية دولة اسلامية لحماً ودماً ، ولذلك كانت تعامل المسلمين من العرب معاملة تختلف عن معاملتها للمسيحيين ، ولهذا السبب كان ارتباط العرب بالدولة العثمانية يختلف باختلاف أديانهم . فكانت الخدمة العسكرية والمناصب مقصورة على المسلمين . ويمكننا أن نقول ان العرب المسيحيين كانوا يعيشون على هامش حياة الدولة العثمانية ، شأنهم شأن سائر العناصر المسيحية التابعة للسلطنة العثمانية من اروام وبلغار ، ولذلك كانوا يعتبرون الدولة غريبة عنهم متسلطة عليهم ، كما كان المسيحيون أكثر اتصالاً بالغربيين والحضارة الأوروبية ، ولهذه الأسباب كلها ، كان من الطبيعي أن تنشأ فكرة القومية عند المسلمين على أنماط تختلف عن أنماط نشأتها بين المسيحيين .

كان العرب المسلمون التابعون للدولة العثمانية ينظرون الى التاريخ نظرات إسلامية بحتة ، فيرون أن الخلافة الاسلامية تسلسلت من الراشدين الى الأمويين والعباسيين فالعثمانيين ، ولذا لم يفكروا في (تاريخ الأمة العربية) . وكانوا يرون أن التاريخ العثماني تتمة للتاريخ الاسلامي العام . ولكن في مطلع القرن العشرين بدأت يقظة العرب ، فبدأ البعض يشك في اعتبار السلاطين العثمانيين خلفاء المسلمين ، إذ انه لا يوجد نسب قرشي ، ونادى البعض أن الخلافة الاسلامية يجب أن تعود للعرب .

وقام بعض العرب بلفت النظر الى الفساد المنتشر في الدولة العثمانية ، وطالبوا باصلاح أحوال البلاد العربية ، وبدأوا يقارنون بين الولايات العربية وسائر الولايات العثمانية ، وخرجوا بنتيجة هي أن حقوق العرب مهضومة [١] .

---

١ – القومية العربية : للمؤلف ص ١٦٥ .

وظهرت تيارات مختلفة بين العرب المسلمين في مطلع القرن العشرين ، جماعة تطمع في قيام خلافة عربية ، وجماعة تطلب اصلاح أحوال البلاد العربية ، وجماعة تدعو الى اصلاحات عامة في الدولة العثمانية ، وجماعة رابعة تطالب بحقوق مختلفة للعرب ، وجماعة خامسة ترى انفصال البلاد العربية عن الدولة العثمانية وتأسيس دولة عربية مستقلة .

وظهرت الدعوة الى قيام خلافة عربية في كتاب (أم القرى) الذي ألفه عبد الرحمن الكواكبي وصدر باللغة العربية في مصر سنة ١٣١٦ ه ، كما ظهرت الدعوة الى انشاء دولة عربية مستقلة في كتاب (نهضة الأمة العربية) الذي ألفه نجيب عازوري وصدر باللغة الفرنسية في باريس سنة ١٩٠٥ م .

وقد تحدث الكواكبي في كتاب (أم القرى) عن أسباب تأخر العالم الإسلامي ، ثم دعا الى إقامة خلافة عربية في مكة المكرمة ، ونادى بأن (العرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية بل الكلمة الشرقية) . ثم انتقد الحكم العثماني وأشار الى هضم حقوق العرب ، ثم قال : « من أهم الضروريات أن يحصل كل قوم من أهالي تركيا على استقلال نوعي وإداري يناسب عاداتهم وطبائع بلادهم » .

وأبرز آراء الكواكبي تفريقه ما بين الحركة العربية والحركة العامة التي تستهدف الوحدة الاسلامية والبعث الاسلامي ، والتي تولى جمال الدين الأفغاني اثارتها ثم سخرها عبد الحميد لأغراضه الخاصة . ومما لا شك فيه أن الكواكبي قد تأثر بسلفه ، ولكن بينما كان جمال الدين يعتبر عالم الاسلام جميعه ميداناً واحداً يجب توحيده تحت حكم خليفة واحد ، ولا يهتم بجنس ذلك الخليفة سواء أكان تركياً أم أفغانياً أم مصرياً ما دام قوياً وسيداً في داره ، كان الكواكبي يفرق تفريقاً واضحاً ما بين العرب والأجناس الاسلامية الاخرى ، وعلى هذا ، فان الكواكبي في الوقت الذي أيد فيه

فكرة الوحدة الاسلامية تأييداً تاماً ، راح يدعو الى الغاء حق السلطان في الخلافة والى المناداة بتنصيب خليفة في مكة ينتمي الى قريش .

أما كتاب (يقظة الأمة العربية في آسيا) فهو من تأليف (نجيب عازوري) وهو عربي مسيحي ظهر نشاطه في الأعوام الأخيرة للعهد الحميدي ، وكان المؤلف قبل أن ينتقل الى فرنسا من الموظفين الاداريين في الدولة العثمانية ، وكان يدرك أحوال الدولة العثمانية تماماً ، فوصف أحوال البلاد العربية ، ودعا الى توحيد الكنائس الكاثوليكية تحت اسم (الكنيسة الكاثوليكية العربية) ، ودعا الى انفصال الولايات العربية عن الدولة العثمانية ، على أن تكون الحجاز مقراً لخلافة إسلامية عربية ، وتكون الولايات العربية دولة عربية موحدة [١].

هذه هي التيارات العربية التي قامت في البلاد العربية في مطلع القرن العشرين ، قبل الانقلاب الذي حدث في تركيا سنة ١٩٠٨ ، وهذه التيارات ما قامت الا لتقضي على الجامعة الاسلامية وتعمل على احياء القومية العربية .

الخلافة العثمانية بعد سقوط عبد الحميد سنة ١٩٠٨ :

ماتت فكرة (الجامعة الاسلامية) بانتهاء عهد عبد الحميد . بل ان جمال الدين الافغاني الذي كان يدعو الى الوحدة الاسلامية تحت حكم الخليفة السلطان عبد الحميد ادرك عدم جدارة عبد الحميد ليكون محوراً لهذه الوحدة الاسلامية ، فكان يقول : يؤلمني أن يكون هذا الرجل معتوهاً وإلاّ لضمنّا له ولاء كل الشعوب الاسلامية ، ولكن ما دام اسمه عظيماً في عقول الناس فيجب أن تتم الوحدة الاسلامية باسمه [٢].

كان استبداد عبد الحميد العامل الأول في القضاء على فكرة الجامعة

١ — انطونيوس : يقظة العرب ص ١٠٢ .
٢ — Brown : The Persia Revolution, P. 84

الاسلامية أو احياء الخلافة ، فقد استولت (جمعية الاتحاد والترقي) على الحكم في استنبول سنة ١٩٠٨ وخلعت السلطان عبد الحميد وأعلنت الدستور وأخذت فكرة الخلافة في العالم الاسلامي تضعف رويداً رويداً حتى اختفت تماماً .

وإن كانت حكومة الاتحاد والترقي لم تغبأ كثيراً بمسألة الخلافة ، إلا أن الدول الاوروبية ما زالت تعتبر السلطان العثماني خليفة للمسلمين يتمتع بسلطة روحية على الرعايا المسلمين . فبعـد ان ضمت النمسا البوسنة والهرسك (اكتوبر — تشرين الأول — سنة ١٩٠٨) ، أشارت المعاهدة التي وقعتها النمسا مع الحكومة التركيـة الجديدة الى أن اسم السلطان يجب أن يستمر ذكره كخليفة في صلاة الجماعة ، وأن يتبع رئيس العلمـاء في البوسنة والهرسك دائرة شيخ الاسلام في القسطنطينية . وفي معاهدة لوزان سنة ١٩١٥ التي أعلنت سيادة ملك ايطاليا على ليبيا ، اعترفت المعاهدة بخلافة السلطان العثماني وأقرت أن يدعى له في الخطبة ، وان يعين شيـخ الاسلام في القسطنطينية رئيس القضاة في ليبيا ، وأن تدفع الحكومة التركية راتبه باعتباره رئيساً روحياً يستمد سلطتـه من الرئيس الروحي للدين الاسلامي .

ومن أبرز الكتب التي اهتمت بالخلافة الاسلامية في الفترة بين قيام حكومة الاتحاد والترقي سنة ١٩٠٨ وقيام الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ كتاب كتبه بالألمانية (وايت) تحت عنوان (سياسة الأتراك والخلافة) وترجمه الى العربية ورد على ما جاء فيه من آراء كاتب تركي مؤيد لحكومة الاتحاد والترقي هو (محمد بك صفا) ونشر في استنبول سنة ١٣٣١ هـ ، وسنلخص أقوال (وايت) وردود (محمد صفا) .

قال وايت[1] : لم تخرج الخلافة من بعض الولايات العربية (الجزائر

---

١ — سياسة الأتراك والخلافة ص ٤١ — ٤٥ .

وتونس ومصر) بخروج الأتراك . وقد يتخذ الأتراك القطر المصري مركزاً لأعمالهم لأن مصر في حاجة اليهم . فاذا كان في مصر الآن مسلمون وكان أهلها ميالين الى الاستقلال السياسي فلا سبيل لهم الى شيء غير الاعتماد على سياسة الخلافة . ان خلاص بلادهم من الانجليز لا يتم الا بهذه الطريقة والا محي على آثار العرب . وقد عرف العرب هذه الحقيقة فبدأوا يعملون بواسطة (الحزب الوطني) ، وغايتهم السياسية توثيق عرى المودة بينهم وبين حكومة الآستانة واعلان الثورة عـلى الادارة الانجليزية .

لا يعيش العرب الا بسياسة الخلافة ، فانها تكون حداً معنوياً بين الانجليز وبين المسلمين في مصر ، ولا غرابة في ذلك ، فان الذي يعيش في الآستانة لا يكون مثل ابن لندن ، وإذا ظهرت روح الاتحاد الاسلامي في مصر شابه المصري ابن لندن واستفاد العرب لا الأتراك وخسر الخديوي (عباس حلمي الثاني) والانجليز . وقد أخذ الخديوي والانجليز في معاكسة هذه السياسة .

يشتغل الخديوي بتشكيل خلافة لنفسه ، عالماً أن هذه السياسة ستكون وبالاً عليه ، وسيكون استقلاله دون شك تحت حماية الانجليز وتصبح مصر تحت حمايتهم . والخديوي لا يرى في هذه الوجهة ما يوجب الارتياب ، وقد يمنع عزمه على تشكيل خلافة في مصر الحكومة الانجليزية من رفع علمها على مصر .

ثم يرسم (وايت) الطريقة التي قد تم لتنصيب خليفة في القاهرة فيقول : يفرض الدين الاسلامي تعيين الخلفاء بالانتخاب ، وعليه فيمكن عقد مؤتمر في القاهرة وحضور المندوبين الى المؤتمر من جميع البـلاد الاسلامية لانتخاب خليفة وشراء ذممهم بالمال ووضع مذكرة تنتهي باختيار أحد الاشراف لخلافة المسلمين ، وجعل الخديوي سلطاناً للدولة الاسلامية ،

ونحن نأمل أن يتم هذا الترتيب بالنجاح . ولكن هذه الطريقة تخالف الدين الاسلامي ، فقد استمرت الخلافة الاسلامية بين أبناء الخلفاء يتوارثونها منذ ١٢ قرناً ، وانحدرت السلطة الدينية والادارية في شخص واحد ، فمن الأمويين الى العباسيين الى العثمانيين الذين لم يغيروا في هذه الأصول شيئاً ، فقد خلت القاعدة في حكم العادة ، وكانت تعاليم الدين الاسلامي قد طبقت في هذه المسألة . وعليه فالذين يرون وجود خليفة منتخب قليلون وهم من الذين باعوا ذممهم . ومثل هذه الحكومة الواقعة تحت استبداد الانجليز لا تعمر طويلاً بل تقوم في وجهها الثورات منذ لحظة قيامها .

ثم يمضي (وايت) في نقد اتفاق الخديوي والانجليز فيقول : ان اتفاق لندن والقاهرة نتيجة الاعتقاد بأن مسلمي العالم ستتبدل أفكارهم ضد الخلافة بعد هزيمة الدولة العثمانية في الحرب (الحرب العظمى الأولى) ، ولكن النتيجة كانت غير متوقعة ، فقد اجتمعت قلوب المسلمين حول عرش الخلافة ومالت العناصر الاسلامية الى الانتقام من الصليبيين ، ولا يمكن تسكين ثائرة غضبهم إلا بواسطة تركيا لأنه لا توجد دولة اسلامية مستقلة سوى تركيا ، ولا يمكن لأية حكومة اسلامية اخرى القيام بعمل ما لوقوعها تحت حكم الدول المسيحية .

لقد تحالف الخديوي مع الانجليز واذاعوا بين أهالي سوريا أن الأتراك يريدون محو لسان العرب وقوميتهم ، وأن حكومة استانبول ستعمد الى سياسة التتريك وهي السياسة التي تجريها في البلقان ، وزعموا أنه اذا كانت الأمة العربية تريد النجاح والخير لنفسها فلا يتم لها ذلك الا بالدخول تحت حماية الانجليز ، وإذا دخلت سوريا تحت حماية الانجليز اتحدت مع بقية العرب ، وهذا الاتحاد يقوي اللغة العربية في المستقبل . وهذه الخرافات قد تلاقي آذاناً مصغية فتقوم ثورات في سوريا نتيجة غفلة تركيا .

ومضى (وايت) في الهجوم على الخديوي فقال: تؤثر سياسة الخديوي ورسله في جماعة الشبان المتعلمين اكثر من غيرهم، وهم يقولون ان غرض الأتراك من المركزية الشديدة تتريك العرب. ويعلن هؤلاء الشبان أفكارهم على صفحات الجرائد ومنهم بعض الصحفيين الذين يكتبون المقالات التي لم نر مثلها ولم يجز نشر أمثالها قانون في بلاد العالم، ولعل أصحاب هذه الجرائد لا يعرفون شيئاً من السياسة أو علم الاجتماع.

ثم انتقل (وايت) الى موقف مصر من الخلافة فقال: اذا أخفق الانجليز والخديوي في سياسة الخلافة، فهل تنقطع العلاقات بين الآستانة وبين مصر؟ ان ضرر تركيا يكون قليلاً، ولكن الحكومة المصرية تقع في هاوية عميقة. واذا استبقت حكومة انجلترا الخديوية المصرية باسم الاستيلاء على الخلافة ثم فشلت، فانها تكون قد قضت على الخديوية المصرية يوم فشلها، ولن نجد بين الانجليز من يدافع عن مصر كما دافعوا بالأمس عن الترنسفال، ولا نظن أن الخديوي يجهل هذه الحقائق. لقد قال لي ضابط من أعضاء الحزب الوطني المستعفين من الجيش: «ان المصريين سيقاومون الانجليز مدة من الزمن اذا لم تقبل الحكومة العثمانية حماية انجلترا على مصر، واذا انتصروا أعلنوا استقلال مصر وقطعت مصر علاقتها بتركيا وبالانجليز». ولكني أرى أن استقلال مصر بعد اعلان الخلافة فيها يجعل مركز تركيا حصيناً.

انبرى (محمد صفا) للرد على أقوال (وايت)[1]، وهو في رده يدافع عن حكومة الاتحاد والترقي والخديوي ويهاجم (وايت) والألمان وفكرة قيام خلافة في مصر، فقال: يريد وايت الصيد في الماء العكر، وهو الماني يحاول معاكسة مصالح الانجليز. فهو ينصح للمصريين بالاعتماد

---

١ – سياسة الأتراك والخلافة ص ٢١٢ .

على سياسة الخلافة وهي فكرة المانية نساعده عليها . بيد أننا نقول : « اذا قام المصريون وعملوا على تخليص بلادهم من الانجليز فهل تساعدهم ألمانيا ، أو تفعل بهم ما فعلت بغيرهم من المسلمين ؟ نسأل المسيو وايت عن (الحزب الوطني) الذي يقول انه بدأ يعمل باسم الخلافة اليوم ، أو من زمن عبد الحميد ، فان كان قد عمل مع عبدالحميد فكيف يعمل اليوم مع هذه الحكومة (حكومة الاتحاد والترقي) ؟ وهل كانت سياسة عبد الحميد ترمي الى احياء هذه الدولة التي أبقاها بلا أسطول ولا سلاح ثلث قرن ؟ فاذا كان الحزب الوطني يريد خدمة الجامعة الاسلامية اليوم بعبارات وايت فالسلام على مصر والمصريين » .

ثم يدافع (محمد صفا) عن الخديوي وينفي عنه اتهام وايت له بأنه يريد احياء الخلافة في القاهرة واستغلالها لمصلحته الخاصة ، ويهاجم الحزب الوطني والمانيا ، فيقول : عاون الخديوي رجال الحزب الوطني الذين يتكلم باسمهم وايت ، ثم رأى من المصلحة إبعاد هؤلاء الشبان عن السياسة لأن مصالح الوطن لا تتفق مع مصالحهم الشخصية . والخديوي هو حاكم مصر الشرعي والانجليز قد احتلوا مصر لتعزيز العرش الخديوي بعد الثورة العرابية ووعدوا بالجلاء عن مصر مراراً دون الوفاء بوعودهم ، فهم أعداء البلاد وغاصبوها ، فكيف يقول (وايت) ان الانجليز والخديوي يخسرون اذا نجح المصريون في أعمالهم السياسية ؟ أما ما يزعمه وايت من أن الخديوي يعمل على تشكيل الخلافة لنفسه فنحن لم نسمع بهذه العبارات الا من شبان الحزب الوطني ، بينما اخلاص الخديوي لعرش الخلافة (يقصد الدولة العثمانية) لا ينكره أحد ، وقد رأينا الخديوي يجود بالأموال ويجمع الاعانات لدولة الخلافة في حرب اليونان والحرب البلقانية وغيرهما . ان غرض (وايت) الايقاع بين الخديوي وعرش الخلافة لتنال ألمانيا من وراء ذلك مأرباً كما هو شأنها مع الأمم الشرقية عموماً والمسلمين خصوصاً .

غروب الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٤ :

أقامت حكومة الاتحاد والترقي بعد عزل السلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٩٠٨ حكومة دستورية ، وأصبحت هذه الحكومة الدستورية المسئولة أمام مجلس نيابي تتناقض مع قيام الخلافة ، فقد كان جو الخوف والاحترام الذي كان يحيط بالشخصية التي تحمل اسم الخليفة العظيم يوجب نحوه الطاعة العمياء ويعرض وزراءه لخطر الاستقالة في كل لحظة كما كان يحدث في العهد الاستبدادي السابق .

اشتركت الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى الى جانب ألمانيا ضد الحلفاء ، ثم ساءت أحوالها فاحتل الحلفاء سواحل بحر مرمرة واستنبول . وفي ١١ أكتوبر (ت ١) ١٩٢٢ عقدت هدنة مودانيا التي نصت على جلاء الحلفاء عن هذه البلاد . ثم أعلن المجلس الوطني الكبير في ٢٩ أكتوبر ١٩٢٣ الغاء السلطنة العثمانية واعلان الجمهورية وانتخاب مصطفى كمال رئيساً لها ، وتم عزل السلطان وحيد الدين ، وانتخب البرلمان ابن عمه (عبد المجيد) خليفة على المسلمين ، وجرد من كل سلطة حقيقية في النواحي السياسية أو الادارية ، وان كان قد سمح له بارتداء بردة الرسول الا أنه حرم من قوة السيف ، فلم يذهب الى جامع أيوب ليتمنطق بسيف مؤسس البيت العثماني ، وأصبحت مهامه شكلية .

ثم رأى الأتراك ان بقاء الخليفة قد يثير حوله حركات رجعية ، وان فصل السلطة الدينية عن السلطة الزمنية في الاسلام لا يتفق ونظام الخلافة ، فألغوا الخلافة في ٢ مارس (آذار) ١٩٢٤ ، فأفلت شمس الخلافة الاسلامية الى الأبد .

تركيـــا بعد الغـــاء الخلافـــة :

كتب (ألفرد كانتويل سميث)[1] مدير معهد الدراسات الاسلامية ، وأستاذ الدين المقارن بجامعة (ماكجل) في مونتريال بكندا ، عن تركيا بعد سقوط السلطنة العثمانية .والخلافة . فكتب تحت عنوان (الاسلام والدنيوية التركية) : ان القول بأن الأتراك بايثارهم الدنيوية قد تخلوا عن الاسلام لا يحظى بتأييد من الباحثين في الشرق أو الغرب ، وانما هو مجرد احساس شائع بين الأوروبيين والمسلمين في الأقطار الأخرى . والمسألة في حقيقتها لا تعدو الهيئة الحاكمة . لقد شرع أتاتورك ومن حذا حذوه من دعاة المدنية الحديثة في بناء بلادهم من جديد ، وبدأوا يضفون عليها الطابع الغربي . لقد رأوا أنفسهم في حيرة ، يتساءلون كيف يمكنهم الاحتفاظ بتقاليد الدين الاسلامي واحيائها مع هذه الظروف الجديدة ، ولكنهم لم يترددوا في اعتناق المدنية الحديثة كلها ، فبدأوا كما لو كانوا قد ابتعدوا عن حظيرة الدين في حركة تحررهم .

ومما يقوي هذا الاتهام الذي يستهدفون له قضاؤهم على الخلافة في سنة ١٩٢٤ واحلالهم القوانين الغربية محل الشريعة الاسلاميـــة في سنة ١٩٢٦ ، وتعديلهم دستورهم في سنة ١٩٢٨ مغفلين منه الفقرة التي تنص على أن الاسلام دين الدولة ، وأحلوا الحروف اللاتينية محل الحروف العربية ، فهل من أجل ذلك يصدق عليهم أنهم تركوا الاسلام؟

ينفي الأتراك ذاك ، ولا يرون سوى أنهم سمحوا لأنفسهم ازاء دينهم ببعض الحريات ، دون أن يرتدوا عنه . لقـــد صرح كثير من الأتراك بأنهم مسلمون ولكن بشكل مستنير ، وانهم لم يتخلصوا الا من الاشياء التي تبعدهم عن دينهم ، وما زالت فيهم روح الدين الحقة نامية

---

١ - الاسلام في التاريخ الحديث ص ٥٣ - ٥٥ .

قوية ، لقد تخلصوا من ذلك الرباط ـ أي الخلافة ـ الذي يربط بين الدين والحكومة ، والذي سبق أن أدى بالسلطات الدينية الى الانغماس في الرذيلة والتدخل في السياسة مما عاق تقدم أمتهم .

إن الاسلام عند الأتراك دين بلا كهنة . ولكن الـذي حدث في بلادهم يوم كان الحكم مرتبطاً بالدين أن ظهر بينهم من استغل الأفراد وافسد الحكم باسم الدين الذي أساءوا التعبير عنه ، وهـم يعتقدون أن الاسلام دين تقدمي ، ولكن هؤلاء المستغلين المفسدين جعلوا منه عقبات في سبيل التقدم ، كما جعلوه جامداً حتى إنه لما جاءت حكومة تعمل على تقدم البلاد ودفعها الى آفاق أوسع ، وجدت أن هذا الجمود وتلك العقبات الدينية قد وقفت في طريقها ، فرأينا تركيا في سبيل رفعة شأنها وخلق مثل عليا جديدة لم تتردد في سحق تلك السلطات الدينية ، وألغت تعاليمها ، وحررت الاسلام وكشفت النقاب عن الدين الحق القويم . (١)

(١) سميث : الإسلام في التاريخ الحديث ص ٥٥ ـ كان مؤلف هـذا الكتاب (الدكتور علي حسني الخربوطلي) أستاذاً زائراً في معهد الدراسات الإسلامية بمونتريال بكندا في سنتي ١٩٦٣ و ١٩٦٤ .

المصـــــادر

ثبتٌ بالمصادر العربية والافرنجية وقد وردت جميعها في متن البحث وحواشيه ومرتبة أبجدياً حسب أسماء المؤلفين .

اولاً : المصادر العربية

ابن الأثير : (٦٣٠ هـ — ١٢٣٨ م) الكامل في التاريخ (القاهرة ١٣٠٢ هـ) .

احمد أمين : فجر الاسلام (مطبعة الاعتماد ١٩٢٨) .

الأصبهاني : (٣٥٢ هـ — ٩٦٧ م) .

— كتاب الأغاني (مطبعة التقدم ١٣٢٣ هـ) .

— مقاتل الطالبيين (طبعة الحلبي ١٩٤٦) .

أحمد عزت عبد الكريم ، الدكتور — بالاشتراك مع الدكتور عبد الحميد البطريق والدكتور أبو الفتوح رضوان :

تاريخ العالم العربي في العصر الحديث (القاهرة ١٩٥٧) .

أحمد فريدون : منشآت السلاطين .

ابن إياس : (٩٣٠ هـ — ١٥٢٣م) كتاب تاريخ مصر المعروف ببدائع الزهور في وقائع الدهور (بولاق سنة ١٣١١ هـ) .

ابن بطوطة : (٧٧٩ هـ - ١٣٧٧ م) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (القاهرة ١٣٥٨ هـ) .
البغدادي : (٤٢٩ هـ - ١٠٣٧ م) الفرق بين الفرق (لجنة نشر الثقافة الاسلامية ١٩٤٨)
البلاذري : (٢٧٩ هـ - ٨٩٢ م) فتوح البلدان (مطبعة الموسوعات بالقاهرة ١٩٠١) .
البيروني : (٤٤٠ هـ - ١٠٤٨ م) الآثار الباقية عن القرون الخالية (ليبزج ١٨٧٨) .
الجاحظ : (٢٥٥ هـ - ٨٦٩ م) .
- البيان والتبيين (القاهرة ١٣٣٢ هـ) .
- رسالة برأيه في الأمويين (طبعة الخانجي) .
جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي (مطبعة الهلال ١٩٥٨) .
ابن حزم : (٤٥٦ هـ - ١٥٦٤ م) الفصل في الملل والأهواء والنحل (المطبعة الأدبية ١٣١٧ هـ) .
حسن ابراهيم حسن ، الدكتور :
- النظم الاسلامية بالاشتراك مع الدكتور علي ابراهيم (القاهرة ١٩٣٩) .
- تاريخ الاسلام السياسي ٣ أجزاء .
- تاريخ الدولة الفاطمية (القاهرة ١٩٥٨) .
الخضري ، محمد : تاريخ الأمم الاسلامية (القاهرة ، الطبعة الثالثة) .
ابن خلدون : (٨٠٨ هـ - ١٤٠٥ م) المقدمة (المطبعة البهية المصرية) .
الدينوري : (٢٧٢ هـ - ٨٩٥ م) الاخبار الطوال (ليدن ١٨٨٨) .
زهدي جارالله : المعتزلة (القاهرة ١٩٤٧) .
سعيد عبدالفتاح عاشور ، الدكتور : دولة المماليك البحرية (القاهرة ١٩٥٩)
السيوطي : (٩١١ هـ - ١٦٠٥ م) .
- تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة (المطبعة المنيرية ١٣٥١ هـ) .
- حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة (جزءان) .
الشهرستاني : (٥٤٨ هـ - ١١٥٣ م) الملل والنحل (القاهرة ١٩٤٨) .
ابن طباطبا : (٧٠١ هـ) الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية (القاهرة ١٣٤٠ هـ)
الطبري : (٢١٠ هـ - ٩٢٢ م) تاريخ الأمم والملوك (المطبعة الحسينية بالقاهرة) .

طه حسين ، الدكتور : علي وبنوه (القاهرة ١٩٥٣) .
عبد الحميد العبادي : صور من التاريخ الاسلامي (الاسكندرية ١٩٤٨) .
ابن عبد ربه (٤٣٩ هـ) العقد الفريد (القاهرة ١٩٤٨) .
ابن العبري : تاريخ مختصر الدول (بيروت ١٨٩٠) .
ابن العربي : (٥٤٣ هـ) العواصم من القواصم (القاهرة ١٣٧١ هـ) .
عبد العزيز الدوري ، الدكتور : مقدمة في تاريخ صدر الاسلام (بغداد ١٩٤٩)
— العصور العباسية المتأخرة « بغداد » .
عبد العزيز شاويش ، الخلافة الاسلامية .
علي ابراهيم حسن ، الدكتور : تاريخ مصر في العصور الوسطى (مكتبة النهضة) .
علي حسني الخربوطلي ، الدكتور : تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي (القاهرة ١٩٥٩) .
— العرب والحضارة (القاهرة ١٩٦٦) .
— الحضارة العربية الاسلامية (القاهرة ١٩٦٢) .
— القومية العربية من الفجر الى الظهر (الحلبي ١٩٥٩) .
— محمد والقومية العربية (القاهرة ١٩٥٩) .
— العزيز بالله الفاطمي (سلسلة أعلام العرب) .
— المجتمع العربي (القاهرة ١٩٦٠) .
— الدولة العربية الاسلامية (الحلبي ١٩٦٠) .
— مصر العربية الاسلامية (القاهرة ١٩٦٣) .
— عبد الله بن الزبير (سلسلة أعلام العرب) .
— المهدي العباسي (سلسلة أعلام العرب) .
— حياة محمد (القاهرة ١٩٦٠ و ١٩٦٦) .
علي عبد الرازق : الاسلام وأصول الحكم (القاهرة ١٩٢٥) .
عمر ابو النصر : الحضارة الأموية العربية في دمشق (بيروت ١٩٤٨) .
ابو الفدا : (٧٣٢ هـ — ١٣٣١ م) المختصر في اخبار البشر (المطبعة الحسينية بالقاهرة) .
القلقشندي : (٨٢١هـ — ١٤١٨ م) صبح الأعشى في صناعة الانشا (المطبعة الاميرية ١٩١٤)
ابن قتيبة : (٢٧٦ هـ — ٨٨٩ م) الامامة والسياسة (القاهرة ١٣٢٥ هـ) .

ابن كثير : (٧٧٤ هـ) البداية والنهاية (مطبعة السعادة بالقاهرة) .
كرد علي ، محمد : الاسلام والحضارة العربية (دار الكتب ١٩٣٦) .
الكرملي ، انستاس ماري : النقود العربية وعلم النميات (المطبعة العصرية ١٩٣٩) .
الماوردي : (٤٥٠ هـ – ١٠٥٧ م) الأحكام السلطانية (مطبعة الوطن ١٢٩٨) .
أبو المحاسن : (٨٧٤ هـ – ١٤٦٩ م) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (دار الكتب ١٩٢٩) .
محمد رشيد رضا : الخلافة (القاهرة ١٩٢٣) .
محمد جمال الدين سرور ، الدكتور : الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عهده (القاهرة ١٩٣٨) .
– دولة بني قلاوون في مصر (القاهرة ١٩٤٧) .
– مصر في عصر الدولة الفاطمية (القاهرة ، سلسلة ألف كتاب)
محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية .
المسعودي : (٣٤٦ هـ – ٩٥٦ م) مروج الذهب ومعادن الجوهر (طبعة دار الرجاء بالقاهرة) .
المقري : أبو العباس أحمد .
الجمان في أخبار الزمان : (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٤١٢ تاريخ) .
المقري : (١٠٤١ هـ – ١٦٣٣ م) شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني .
– نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب (بولاق ١٨٦٢) .
المقريزي : (٨٤٥ هـ – ١٤٤١ م) .
– النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم .
– اتعاظ الحنفاء بأخبار الخلفاء .
– السلوك لمعرفة دول الملوك .
– المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار .
– إغاثة الأمة بكشف الغمة .
– شذور العقود في أخبار النقود .
الملطي : (٣٧٧ هـ) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع (القاهرة ١٩٤٩) .
ابن النديم : (٣٨٣ هـ – ٩٩٣ م) الفهرست (المطبعة الرحمانية ١٣٤٨ هـ) .

نشوان بن سعيد : (٥٧٣ ﻫ) شرح رسالة الحور العين وتنبيه السامعين (مطبعة القاهرة ١٩٤٨) .
النويري : (٧٣٢ ﻫ – ١٢٣٢م) نهاية الأرب في فنون الأدب (دار الكتب المصرية ١٩٣١)
ابن هشام : (٢١٨ ﻫ – ٨٣٣ م) كتاب سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم (القاهرة ١٣٣٧ م) .
اليعقوبي : (٢٨٢ ﻫ – ٨٩٥ م) تاريخ اليعقوبي : (النجف ١٣٥٨ ﻫ)

ثانياً : مصادر افرنجية مترجمة الى اللغة العربية

أرنولد (توماس) : الدعوة إلى الإسلام، ترجمة الدكتور حسن ابراهيم وآخرين (القاهرة ١٩٤٧) .
– الخلافة ، ترجمة جميل معلى (دمشق ١٩٤٦) .
أنطونيوس (جورج) : يقظة العرب ، ترجمة علي حيدر الركابي (دمشق ١٩٤٦) .
بارتولد (ف .) : تاريخ الحضارة الاسلامية ، ترجمة حمزة طاهر (القاهرة ١٩٤٢) .
بروكلمان (كارل) : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي (بيروت ١٩٤٨) .
جوزي (بندلي) : من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام (القدس ١٩٢٨) .
جولد تسيهر (أجناس) : العقيدة والشريعة في الإسلام ، ترجمة علي حسن عبد القادر وآخرين (القاهرة ١٩٤٦) .
حتّي (فيليب) : تاريخ العرب ، ترجمة محمد مبروك نافع (القاهرة ١٩٥٣)
دوزي (ر . ب . ا) : نظرات في الإسلام ترجمة كامل كيلاني (طبعة الحلبي ١٩٣٣) .
ديمومبين (موريس غودفروا) : النظم الإسلامية ، ترجمة صالح الشماع وفيصل السامر (بغداد ١٩٥٢) .
رونلدسن (دوايت م) : عقيدة الشيعة ، ترجمة ع . م . (مطبعة السعادة ١٩٤٦) .
سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي ، ترجمة رياض رأفت (القاهرة ١٩٣٨) .

فان فلوتن (ج) : السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني أمية ، ترجمة الدكتور حسن ابراهيم والشيخ محمد زكي ابراهيم (١٩٣٤) .
كريمر (فون) : الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية ، ترجمة الدكتور طه بدر (دار الفكر العربي بالقاهرة) .
لين بول (ستانلي) : العرب في اسبانيا ، ترجمة علي الجارم (القاهرة ١٩٤٤) .
متز (آدم) : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة الدكتور عبد الهادي أبو ريده (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) .
المودودي (أبو الأعلى) : نظام الحياة في الإسلام ، ترجمه عن الاوردية محمد عاصم حداد (دمشق ١٩٥٨) .
ميور (وليم) : تاريخ دولة المماليك في مصر ، ترجمة سليم حسن ومحمود عابدين (القاهرة ١٩٢٤) .
وايت : سياسة الأتراك والخلافة ، ترجمة محمد صفا (استانبول ١٢٣١ هـ) .

Allan : Cambridge Shorter History of India.
Arnold : The Caliphate, (Oxford 1924).
Brown : (Edward G.) : A Literary History of Persia, (London 1909).
D'Ohsson (le Baron G.) : Histoire des Mongols.
— Tableau Generale de l'Empire Othoman.
Dozy (R. P. A.) : The Moslems in Spain, (London 1913).
Eliot : The History of India.
Khuda Buksh (S.) : Contributions to the History of the Islamic Civilization, (Calcutta 1930).
H. Lammens (S. J.) : L'Islam, Croyances et Institutions, (Beyrouth 1926).
Muir (W. T.) : The Caliphate. Its Rise, Decline and Fall, (Edinburegh 1892).
Nicholson (A. R.) : Literary History of the Arabs (London 1923).
O'leary (de Sacy), A Short History of the Fatimide Khaliphate (London 1923).
Palmer : Haroun al Raschid, (London 1881).
Sykes (Percy) : A History of Persia, (London 1921).
Weit : Precis de l'Histoire d'Egypte.

فهرس